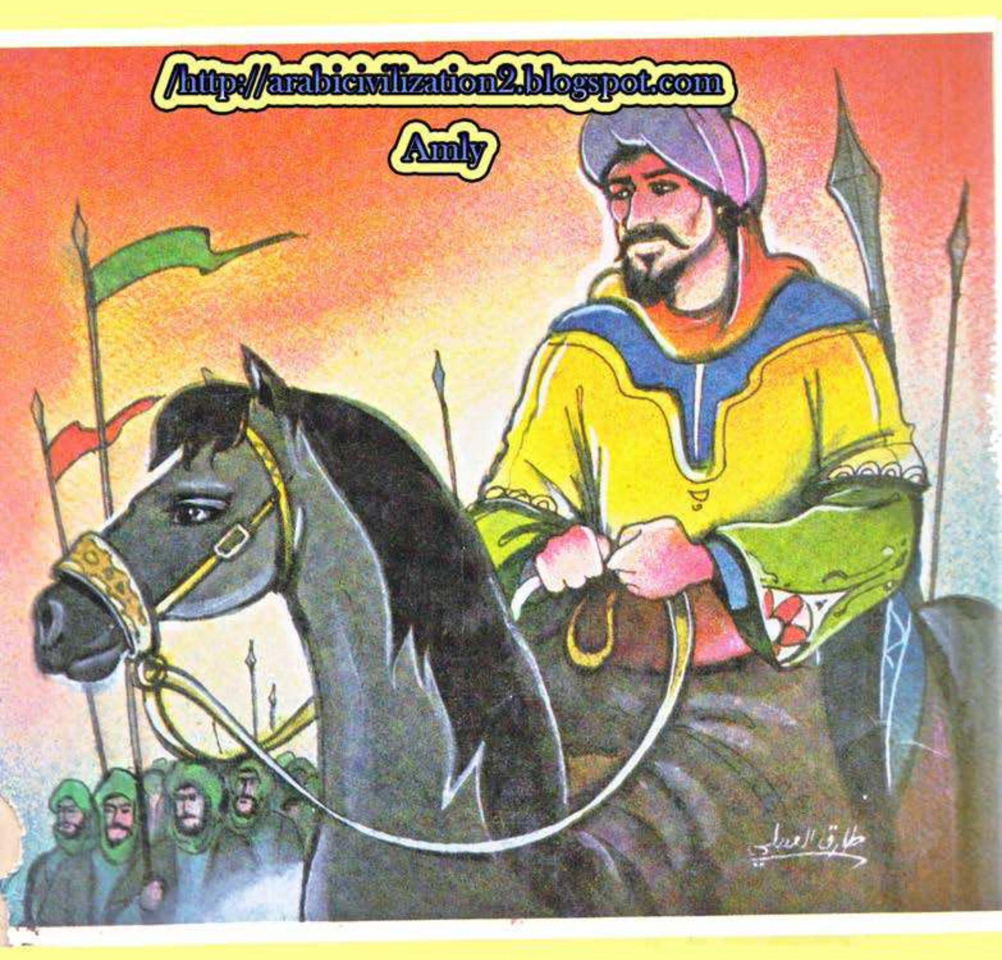
روايات تاريخ العرب والإسلام

اميل حبشي الأشقر

الحارث الأكبر الغساني



دار الأندلس

الحارث الأكبر الغسّاني

روايات تاريخ العرب والاسلام

أميل حبشي الأشقر

الحارث الأكبر الغسّاني

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م

دار الأندلس - بيروت ، لبنان
هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ٤٥٥٣ ١١ - تلكس ٢٣٦٨٣

توطئة

دولة الغساسنة

اجمع نسابو العرب، على ان غسان قبيلة من قبائل اليمن ،هجرت بلادها على أثر تهدم سدّ العرم في مأرب(١) وحطت رحالها أولاً في تهامه ، ثم انتقلت منها الى بادية الشام في جوار حوران .

وكانت دولة الروم ، في ذلك الزمان ، اي في أواخر الجيل الثاني للميلاد ، سيدة الغرب والشرق ، تمشي جنودها ظافرة من فتح الى فتح ، وقد فتحت الشام في الجيل الاول قبل الميلاد ، واستولت بعد ذلك على باديته في أول القرن الثاني للمسيح بعد ان قهرت أصحابها الانباط .

اما البدو من العرب ، المقيمون في تلك الضواحي ، فلم تستطع

(١) مأرب احدى مدن اليمن والعرم سد عظيم بناه ملوك اليمن بين جبلين لحجز السيول ورفع المياه لري الارض المرتفعة على الجانبين كما يفعل اهل هذا الزمان في بناء الخزانات .

أخضاعهم دولة القياصرة ، فكانوا يتعرضون لجنودها، ويغزون أطراف المـدن ينهبون ويسلبون ، حتى يئست منهم دولة الروم ، فعمدت الى مسالمتهم والاغضاء عنهم .

وأشهر هؤلاء البدو بنو سليح من قضاعـــة ويعرفون بالضجاعم ، فعندما نزلت غسان البلقاء، في أوائل القرن الثالث، قامت الحرب بين القبيلتين وتنازعتا النفوذ على أهل البادية ، فانتصرت غسان ، وطاب لها المقام في تلك الديار، فانشأوا دولتهم، ووطدوا سلطتهم،واستمروا حقبة من الدهر لا يختلطون بالروم ولا يعرفون شيئاً عن احوالهم الخاصة .

فبعد ان نشأت دولة ساسان في أوائل القرن الثـالث وجمعت كلمة الفرس ، واصبحت فارس دولة الشرق الكبرى ، تهيب الروم امر هذه الدولة، فلجأوا الى خطب ودّ العربان، أتقاء لشرهم من جهة، وللاستعانة بهم من جهة اخرى عـــلى دولة الاعجام .

وكانت أعلام رومـا كما تقدم ، تخفق في معظم أنحاء الشرق وملوك الشرق وأمراؤه يلقون بسلاحهم على اقـــدام الفاتح الظافر ، فحسبت الفرس للنسر الرومـاني حسابه ، واستعدت لطوارىء الزمان .

وبعد ذلك أي بعد ان نشبت الحرب بين الدولتين ، وطال امرها وتفاقم شرها ، اضطر الفرس الى استنصـــار اللخميين ملوك العراق ، واستنصر الروم عرب الشام وهم غسان .

وكانت الدولتـــان ، لخم وغسان ، مستقلين في شؤونهما ، لكل منهما العدة والجيش والحصون والقلاع ، فلما حاربت غسان في صفوف الروم ، اغدقت عليهم روما أنعامها ، ومنحت اميرهم كما سيجيء ، لقب

ملك ، فامسى هذا اللقب حقاً مشروعاً للاسرة الحاكمة في غسان ، يرثه الابن عن ابيه على التعاقب ، واصبح ملوك غسان بحكم المصلحة والجوار عمالاً بالاسم لدولة الروم ، لا تتدخل روما في شؤونهم الخاصة ولكن امرها هو الامر النافذ في شؤون الحرب ، ومنذ ذلك الحين تنصرت غسان .

واستمر ملك الغسانيين ، على رواية ابي الفداء ، اكثر من أربعمائة سنة، اما حمزة الاصفهاني وصاحب تواريخ الامم، وغيرهما من المؤرخين فيقولون ان مدة سيادتهم ستة أجيال ، غير ان شواهد التاريخ ، تثبت القول الاول وتكذب الثاني، اما عدد ملوكهم، فاثنان وثلاثون ملكاً.

- ١ -

الحارث الاكبر

كان الحارث الخامس ابن جبلة « بن أبي شمر » ملكاً جبّاراً كبير المطامع واسع السلطان ، يحب الادب ويعطف على الشعراء ويجالسهم .

وهو الملك الخامس والعشرون من ملوك غسان ، تقدمه اربعة وعشرون ملكاً ، اولهم جفنة بن عمرو مزيقياء ، وآخرهم أبوه جبلة بن الحارث الرابع وكلهم رجال شدة وحرب (١) .

وكان غازياً موفقاً ، تعشق المعالي وهو ولي عهد ، فادرك منها ما أراده وهو ملك ، فحفظ له التاريخ ذكراً لم يحفظ مثله لاسلافه ، واطلق عليه المؤرخون اسم الحارث الاكبر ، وهو بحق ، اكبر ملوك غسان وارفعهم قدراً ، وابعدهم نفوذاً على الاطلاق .

وكان جوّاداً كثير العطاء ، يبذل المال لشعراء العرب ووفودهم ، كما يبذله لرجال قصره ، لا يفرق في العطاء بين نديمه الخاص وبين العربي

---

(١) حمزة الاصفهاني اقدم مؤرخي العرب وابو الفداء .

القـادم عليه من اطراف البادية ، فتناقلت الوفود اخبار بذله كما تناقلت اخبار ظفره في حروبه وملاء اسمه بادية الشام وبلاد نجد وتهامه والعراق والحجاز واليمن ، حتى ان اللخميين ملوك العراق انفسهم ، وهم خصوم غسان، كانوا يتحدثون بجوده وعظمة سلطانه ، وينعتونه بالوهاب لكثرة عطائه .

وبسط الحارث نفوذه، على سائر مشارق الشام والبلقاء وتدمر وجميع العربان النـازلين في سوريا وفلسطين ولبنان ، البدو منهم والحضر ، وذلك توسع جديد قصّر عنه اجداد الحارث، فنـاله بحد السيف .

والحارث ، اول امير في غسان سمي ملكاً ، وجبلة ابوه اول امير في غسان حـارب في صفوف الروم فأخمد ثورة اقلقت راحة القيصر ، فمنحته رومـا سنة ٤٩٧ رتبة فيلارك «Phylarch» اي رئيس جماعة وعينته حـاكماً في بطرا ، ويرى تولدكي ، المؤرخ البحاثة الالماني ، ان جبلة هذا هو ابو الحارث الاكبر ولم يرد في كتب اليونان قبل هـــذا الامير ، ذكر امير غيره من امراء غسان حارب في صفوف الروم .

وكان الحارث في ذلك الزمن ولي عهد ، فرأت روما ان تزيد في تكريم حليفها الامير الغساني ، فانعمت على ولي عهده بعد ذلك بمثل رتبة ابيه ، ثم بعد توليه الحكم سموه « باسيليوس » ومعناها « الملك » على اثر واقعة في السامرة ، قاد فيها جنود الرومانيين الى النصر .

ولفظة « باسيليوس » لقب قواد الروم وامرائهم ، فلما عرض لكتاب السريان ذكر الحارث ، ترجموا اللفظة في كتبهم حرفياً فقالوا « ملك » وجاراهم العرب فقالوا « ملـــك » ، ثم منحه الروم لقباً آخر فسمّوه

« بطريقاً » وهو لقب الاشراف، فقيل له البطريق الحارث ، وتمتع ولي عهده المنذر بمثل لقب ابيه ، ولكن العرب لم يحفظوا من هذه الالقاب غير « الملك » واطلقوه على سائر امراء غسان[1]

واشتهرت دولة الحارث في العالم العربي ، وذهب لابن ابي شمر بين حكام الروم وامرائهم واشرافهم صيت وذكر ، فكانوا يعجبون بشدة بأسه وجلال منظره ، وله عندهم المنزلة العالية والرأي المسموع .

وبلغ من شهرته في شدة البأس، ان المرأة من نساء العرب والروم، كانت باسم الحارث ، تسكت طفلها اذا بكي فتقول له « ان لم تسكت جئتك بالحارث بن جبلة .

ولم يقم في غسان — في الاربعة والعشرين ملكاً الذين تقدموه وفي السبعة الذين تولوا الملك من بعده ، ملك اثبت منه جناناً وأشد عزماً وأنفذ هيبة وأحسن رأياً ، فهو بطل الحرب اذا احتدم سعيرها ، ورجل المشورة والرأي ، وكان داهية ليناً ، وله في حديثه اسلوب خاص لا تكاد تتبين فيه الشدة حتى تلمس الدهاء ، فهو يبدأ بالغضب وينتهي بالحلم ، فيبغت محدثه ويقرأ بهذا الاسلوب دخائل نفسه .

وكان قصره « القصر الابيض » القائم في منبسط من الارض في اطراف حوران على حدود البادية ، محجاً لقبائل العرب وشعرائهم وفصحائهم ، يأكلون خبز الحارث فيمطرونه شعراً ومدحاً — ويمطرهم هو عطايا وذهباً .

---

(١) العرب قبل الاسلام .

والقصر بناه اجداده مربع الشكل ، حوله سور فيه برج عال لجهة البادية ، كان يجلس الى جانبه كل مساء ، في ايام السلم – مع ندمـــائه وخاصته ، يتفرج على القادمين طالبي احسانه ، والراحلين حاملي خيراته ، وهو فرح القلب باسم الثغر .

وليس القصر الابيض بالقصر الوحيد في حوران ، فللغسانيين بضعة قصور كلها غاية في الفخامة والفن ، منها صرح الغدير ، وقصر المشتى ، وقصر الفضا والقلعة الزرقـاء وقصر منار وقصر السويـداء ، وقصر بركة وقصر ابين ، وقصر خارب ، وبضعة اديار منها دير حالي ودير حناد ودير ايوب ودير الكهف ودير النبوة ، بنى معظمها عمر بن جفنة ثاني ملوكهم . وابنه ثعلبة . والحارث الثاني ابن جبلة ملكهم السادس ، والنعمان بن عمر بن المنذر الملك الخامس عشر .

وانشأوا في البلاد المدن والقرى ، منها معان ونجران ، وقسطل في البلقاء واذرح من اعمال الشراة وفي جانبها الجرباء ، وفي قسطل يقول كثيّر الشاعر :

سقى الله حياً بالموقر دارهم الى قسطل البلقاء ذات المحارب (١)

ومن آثارهم ، حصون وقلاع وابراج ، وقناطر وصهاريج واقنية لجر الماء ، وكلها ناطقة بتحضر تلك الدولة ، واتخاذها في حياتها معظم اسباب العمران .

وبنى الغسانيون معظم هذه الحصون والقصور في اطراف حوران

---

(١) زيدان ياقوت ابو الفداء ابن خلدون

كما ذكرنا ، على شكل خط للدفاع يفصل بين حوران وبين البادية ، يتألف هذا الخط من عدة حصون في جملتها القصر الابيض ، والنمارة ، ودير الكهف والقلعة الزرقاء . على رواية الاستاذ دوسو الفرنساوي الذي زار حوران ووعورها . ودرس الاثار والانقاض في اللجا والحراء والرحبة وجبل الصفا .

وكانت بصرى التي تعرف انقاضها اليوم « باسكي شام » عاصمة الغسانيين غير ان الحارث ، كان يصيف في القصر الابيض ، ويقضي شهور الخريف في بصرى ، وبعض اشهر الشتاء في قصر المشتى ، بل كان في معظم حياته يصيف ويشتو في خيمة من شعر ، بين صفوف جنده الظافر ، حاملاً سيفه وعدة حربه .

- ٢ -

زهير بن جناب

كانت قبائل عدنان اهم واكبر قبائل البدو في شمالي جزيرة العرب ، تنقسم هذه القبائل الى بطون واحياء ، على كل حيّ منها امير او رئيس عشيرة . وكان هؤلاء الامراء ، او رؤساء العشائر ، مستقلين في الحكم ، ولكن استقلالهم فوضى والحرب بينهم لا تخمد نارها .

ولكنهم اشداء ، اصحاب بطش وقوة ، ورجال صبر وجلد ، لو اتحدوا ، لم تغلبهم دولة من دول ذلك الزمان .

شأنهم الدائم ، الخصومة والنزاع ، والقوي منهم يأكل الضعيف لا شيء يمنعه ، وكلما غلب امير على امره ، لجأ مضطراً الى دولة تحميه من جاره ، ثم هو لا يستعيد قواه ، حتى يعبث بتلك الحماية ويعود الى الاستقلال ، وهكذا على التوالي.

وكانت دول الروم ، والفرس ، واليمن ، اقوى واضخم الدول في

تلك العصور ، فاذا لجأ الى احداهـا امير مستضعف ، لجأ لمطمع له كما مر لا يثبت على الولاء، ثم لا تلبث حتى تنقلب عليهم فتمشي في الحرب الى جانب المناذرة تأكل خبزهم وتضرب بسيفهم .

وكانوا يخضعون لليمن، اكثر من خضوعهم للفرس والروم فاليمن دولة العرب الكبرى ، وصاحبة الحول والطول ، وعلى سطح جزيرة العرب ، يمتد نفوذها وتخفق اعلامها .

وعندما يلجأون الى اليمن، ويخضعون لسلطانها، تختار للولاية عليهم، اميراً من امرائهم، او اميراً من احدى تلك القبائل التي تعودت السيادة، كقضاعة ، او غسان او لخم او سواها .

وزهير بن جناب الكلبي ، احد اولئك الامراء اللامعين المتحدرين من قضاعة ، وهو بطـــل باسل شديد البأس، سديد الرأي وسيد من سادات العرب اصحاب الرفعة والمجد .

تولى الرئاسة على قبائل الشمال في اواخر الجيل الخامس ، تحت رعاية دولة اليمن ، ثم ولاه صاحب اليمن الامارة عــــلى قبيلتي بكر وتغلب والاثنتان من ربيعة وهما اشد القبائل واقواها . فساس القوم بيد من حديد ، بقسوة وعدل ، واخذ يجمع خراج الارض ويبعث بـــه الى اولياء نعمته .

وكان القوم في شمالي الجزيرة ، يعتقدون ، عـــلى توالي الاجيال ، ان الخضوع لدولة اليمن امر لا بد منه ، فهي الدولة التي لا تغلب ولها وحدها السلطان في ان تولي عليهم من تشاء وتعزل من تشاء .

ولكن الزمان يدور ، فقد غزا الاحباش ارض اليمن ، فقتلوا الرجال وسبوا النساء غزوها في الجيل الثالث والجيل الرابع ، ثم توالت الحرب بين البلادين فضعفت عزيمة اليمنيين ، وكادت دعائم ملكهم تنهار تحت اقدام الاحباش الفاتحين .

فقام في ذهن البلاد ، ان ملوك اليمن ، اضعف من ان يحفظوا استقلال دولتهم ، فذهبت هيبتهم من قلوبهم ، وأخذوا يفكرون في الخروج عن طاعتهم ، وكسر ذلك السيف اليمني ، الذي يشهره عليهم في ذلك الحين باستبداد وقوة ، زهير بن جناب .

واتفق ان البلاد ، في ايام زهير ، اصابها ضيق واعحلت ارض نجد ، فتأخر القوم عن دفع الخراج ، فأمرهم زهير بدفعه ، فاعتذروا . فألح في الطلب فشكوا عجزهم فمنعهم المرعى او يؤدوا الخراج ، فصبروا حتى كادت المواشي تهلك جوعاً .

وكان عكيب بن وائل ، الفارس العربي المشهور ، سيد ربيعة وفارسها ، معاصراً لزهير ، فكره ان يرى قومه اذلاء عبيداً لابن جناب ، يحكم في رقابهم ، ويستبد ببلادهم ، ويأخذ اموالهم ويمنعهم ساعة يشاء ، المرعى والكلاء .

فقال لقومه :

ايها القوم : لقد اجدبت نجد ، الارض قاحلة لا تنبت شيئاً ، ومواشينا تكاد تهلك جوعاً ، ونحن نستمهل ابن جناب في دفع الخراج فيأبى ويسمعنا ما لا نحب ، افتريدون ان نتخلى عن بلادنا لقمة سائغة لسادته ملوك اليمن ؟؟

فاستقوى القوم ، ولكنهم لم يجرؤوا على الحرب ، فدسوا رجلاً منهم اسمه زيابة من بني تيم الله ، واوعزوا اليه ان يقتل زهيراً غدراً ، فأتاه زيابة وهو نائم وطعنه ورجع الى قومه يقول انه قتله ، غير ان زهيراً لم يمت ، لان الضربة مرت بجانب البطن ولم تصب منه مقتلاً ، وعرف زهير ان سالم فلم يتحرك لئلا يجهز عليه القاتل ، فلما انصرف زيابة ، اوعز الى قومه ان يظهروا موته ويستأذنوا بكراً وتغلب في دفنه ، فلما اذنوا ، دفنوا ، ثياباً ملفوفة وفروا به مجدين الى قومهم . وفي ذلك يقول زيابة من قصيدة .

خانني السيف اذ طعنت زهيراً وهو سيف مضلل مشئوم

واقبل زهير على اليمن فعبأ الجيش وعاد به غازياً بكراً وتغلب فانكسرتا وأسر فارسي ربيعة كليباً ومهلهلاً وطائفة كبيرة من وجوه الفرسان والامراء .

فعظم ذلك على القوم فجمعوا كلمتهم ، وولوا عليهم ربيعة والد الاسيرين وخرجوا على زهير . فانقذوا الاسري وانهزم ابن جناب .

ومرت الايام فمات ربيعة . وعاد ابن جناب الى سابق عزه . فجمع الخراج واستبد بقبائل معد ما شاء الاستبداد . وكان كليب قد خلف اباه وفي نفسه على اليمن ضغائن وحزازات ، فجمع قبائل معد تحت لوائه . وهي ربيعة وقضاعة ومضر واباد ونزار . وحارب اليمن في معركة عرفت بيوم « خزاز » فتم له النصر ولم يدفع لليمن بعد ذلك

حراجاً ، واصبح كليب بعد ذلك الفوز . سيد معد وملكها والحاكم بامره فيها[1] .

فلما ضعفت شوكة اليمن . رأى ابن جناب وقد اصبح شيخاً . ان يلجأ الى غسان ، فشد رحاله في ليلة مظلمة ، ومشى يريد حوران ، يرافقه ولداه عامر وقيس وابنته سفانة . وعبداه بارق وجندل .

وبعد سفر متعب شاق صارعوا فيه أحوال البادية وأخطارها ، وحرّها ورمالها أبصر جندل أحد العبدين عند غروب الشمس . في منتهى الافق جبلًا ابيض صغيراً مربع الشكل ، تمتد الى جانبيه لجهة البادية تقط متباعدة تحسبها صخوراً او اكواماً من رمال :

فقال لعامر :

ما هذا الجبل الذي نراه يا مولاي ؟ افلا ترى اننا قطعنا السهل وسننفض عنا غداً رمال البادية ؟

فاستوضح عامر اباهفقال : لا اعرف شيئاً عن هذا الجبل يا بنيفكلنا في هذه البلاد غرباء وغداً قبل هذه الساعة نكون بالقرب منه ، فنتبينه عن كثب ونقف على ما وراءه من سهل او جبل، ثم فكر قليلًا وقال : لعله اول جبال حوران ، فلقد تركنا نجداً منذ اكثر من عشرين يوماً ولا تبعد نجد عن حوران اكثر من ذلك ، افلا تذكر ما قاله لنا ذلك الشيخ في اطراف الجوف ؟

وكانت سفانة تسمع الحديث فقالت : اذن نكون غداً او بعد غدٍ في بلاد الحارث بن جبلة .

(١) ابن الاثير والعرب قبل الاسلام لزيدان .

فقال زهير : قد تكون الآن في أرضه، وعلى كل حال سنبيت الليلة هذا الموضع . وننهض للسفر غداً عندالفجر فنصل الى الجبل الذي ترون قبل الغروب .

قال هذا وأشار الى العبدين ان ينصبا الخيام ويعدّا لهم ما يأكلون .

واقبل الظلام . فتعشى القوم ، وعلفوا دوابهم ، وقبل ان يخيموا ، احاطت بهم الخيل على ظهورها الفرسان ، وسمعوا في ذلك الليل الهادىء في ذلك السكون الرائع ، صوت رجل لمسوا في نبراته القوة والسلطان يقول : ايها القوم انتسبوا :

فبنت القوم لهذه المفاجأة ، وهمس زهير في اذن ولده عامر : انهم من نهابي العرب فقاتلوا حتى نموت .

ورأت سفانة وهي لا تزال بلباس الفرسان ، ان اباها واخويها لم ينتسبوا وخافت ان يستبطيء الفارس الجواب فتنوب السيوف عن الكلام ، فمشت خطوتين الى الامام وقالت بصوتها العذب :

انتسب انت أولا فننتسب .

فخيل الى الفارس انه يسمع صوت فتاة فقال لرفاقه :

الصوت صوت فتاة واللباس لباس رجل ، ثم قال : واني انا وحدي صاحب الامر في هذه البلاد ، فانتسبوا .

فخشي ابن جناب ان يكون المتكلم الحارث الغساني نفسه .

فانتسب قائلًا : زهير بن جناب الكلبي امير عرب الشمال ، وولداه عامر وقيس وابنته سفانة ، وعبداه بارق وجندل .

فقال الفارس : نسب معروف لا بأس به ومن اين انتم قـادمون ؟

ـ : من ضواحي نجد .

ـ : والى اين

ـ : الى الملك الفياضي سيد العرب جميعها الحارث ابن جبلة ملك غسان

فاهتز الفارس على ظهر جواده ، وصاح برفاقه : الاضياف الاضياف

فوثب الفرسان على ظهور الجياد وهم يرددون :

مرحباً بالاضياف ، مرحباً بالاضياف

وكان زعيمهم الملثم لا يزال راكباً ، فاقبل عليه زهير وقال :

العلي بحضرة الملك الحارث ؟

فقال الفارس : لا ، ولكنك تخاطب المنـذر ابن الحارث ، وولي عهده ، وقائد جنده .

وكان جندل قد اوقد النار فتعارفت الوجوه

فهم زهير بتقبيل يده ، فمنعه المنذر وقفز الى الارض وقال :

نصافح اضيافنا ونجالسهم ، مرحباً بالاضياف مرحباً بالاضياف

ثم اقبل يصافحهم حتى وصل الى سفانة ، فازاح لثامه ومد اليها يده وهو يقول : «سحرنا صوت سفانة ، ولعلنا اذا رأينا عينيها قتلنا السحر .»

فعرف زهير ان المنذر يريد ان يرى وجه سفانة فقـال : يا سفانة اسفري فسفرت سفانة وصافحت المنذر وهي مطرقة الرأس .

المنذر ابن الحارث[1]

كان المنذر بن الحارث، وهو المعروف بالتاريخ بالمنذر ابي كرب، بطلًا من ابطال ذلك الزمان ، كبيراً في نفسه، كبيراً في اخلاقه ، اخذ المروءة والكرم عن ابيه ، وقد وهبه الله جمالاً قـل ان تجد له نظيراً بين شباب العرب .

وكان ابوه الملك قد احسن تربيته في الادب والسياسة والحرب ، فنبـغ في الفنون الثلاثة ، ورافق أباه في حروبه يقود جيشه الظافر بعد ان ولاه ابوه قيادة هذا الجيش .

---

(١) يقول حمزة الاصفهاني في كتاب سني الملوك ان ولي عهد الحــارث الاكبر يدعى النعمان « اباكرب » وليس للحارث ولد يدعى المنذر غير ان مؤرخي الروم يقولون ان ولي عهد الحــارث هو المنذر « ابو كرب» ويسمونه المنذروس ويرى الاستاذ نولدكي ان تواريخ اليونان والسريان تسميه المنذر اباكرب . يثبت هـــذا القول ان البحاثة ودينكتون عثر في قرية من قرى البثنية عــلى خط يوناني هو الخط ٢١١٠ جاء فيه « بنى فلافيوس البانوس وابنه البانوس هذا الصرح من اسسه الى اعلاه في ايام المنذر البطريق سنة ٤٧٣ لتاريخ بصرى اي ٢٢ اذار سنة ٥٧٨ للميلاد » ويقول ودينكتون في اثر ذلك ان المنذر هذا من آل غسان الذين حكموا في العرب في حوران وبادية سورية الى ظهور الاسلام وهو ابن الحارث الخامس .

وللحارث الاكبر ولدان غير المنذر هما جبلة والحارث ، والاثنان احسن مثال لابناء الملوك ، لهما اخلاق ابيهما وشجاعته ، ورحابة صدره ، واقدامه وهما لم يتوليا الملك للاسباب التي سترى ومن عادة الغسانيين ان الابن الاكبر يخلف اباه في الملك، ولكنها ليست قاعدة متبعة لا تتبدل، فقد يشاركه اخوته في الحكم ، يتولى كل واحد منهم في زمن واحد امر مدينة او عشيرة ، وهم متفقوا الكلمة متحدوا المبدأ يرجعون في الحرب والسلم الى عادات واحدة ونظام واحد .

ولم يكن بين ولد الحارث ، وهم البررة المخلصون ، من يغار على الملك مثل المنذر ، فهو زعيم غسان بعد ابيه ، له الرأي الثاني في البلاط ، والأمر النافذ في الجيش والعشائر .

ولقد شغف المنذر من الصغر بركوب الخيل ، واقتنى منها الجياد التي لا تبارى ، فكان اذا ركب جواداً في حرب او في سباق ، احس الأمراء والقواد انهم اضعف من ان يدركوه ، ومشوا خلفه يفدونه بالمهج في الحرب والسلم .

وكان لحكمة في نفسه ، يركب كل ليلة في طليعة عشرة من رجاله يكتشف صدر البر من جهة البادية ، ويرسل أخاه جبلة في طليعة عشرة يرقبون طريق الحيرة،صوناً لملك غسان من عدو مفاجيء او قبيلة نهابة.

وللمنذر نظام خاص في معيشته ، فهو يقضي بعضِ ايامه يصيد حمار الوحش في تلك البقعة الوعرة الواقعة وراء جبال حوران نحو الشرق الشمالي ، الى ذلك الجبل البركاني الشكل الذي يقال له « جبل الصفا » وهناك يلهو بالصيد او بقراءة الآثار المحفورة في صخور الجبل، وكلها

تنطق بمدينة تلك الدول العربية التي عاصرت المسيح وخلدت على الصخور أنساب بعض امرائها وكهانها ، وبعض آلهة الجنوب والشمال مثل « عشتار واللات وذو الشرى وشمس » وغيرها .

وعندما يعود ، يلازم القصر اياماً ، فيحضر مجلس ابيه وشرابه ، ويسمع روايات الندماء ومديح الشعراء ، الذين تكثر وفودهم على باب الحارث في مختلف الفصول وقد كان يلذ له بنوع خاص ، شكل لباس الروم الذين يزورون البلاط ومعظمهم من السادة والقواد ، يلبسون الطراطير الخوذ يخفق فوقها ريش النعام ، وتلمع في اعناقهم سلاسل الفضة والذهب .

ومن عاداته ، انه يصحب رفاقه وامراء القصر ثلاث مرات في الشهر ، الى سهل فسيح تتسابق فيه الخيل ، وتلعب على ظهورها الفرسان .

وكان كل اوقات فراغه ، يزور مع اخويه عمتهم « كوكب » اخت الحارث فيتناولون على مائدتها باذن من الملك طعام الغداء أو العشاء ، ويقضون عندها الساعات الطوال في انس وطرب .

ولم ينس المنذر قط ، بالرغم من هذه العادات التي قرأت ، ان يكون في أوقات لهوه وصيده وسباقه ، حارساً اميناً لحدود غسان .

وفي تلك الساعة ، ساعة اجتماعه بزهير بن جناب ، كان في أطراف البر لجهة الشرق يستطلع منافذه ويتلمس اشباحه ، فسمع في الجهة الغربية منه صهيل الخيل وجعجعة الجمال ، فاقبل مع رجاله يتبين القادمين ، وهو يحسب للامر حسابه .

ثم دخل القوم الى خيمة زهير، الا رجال المنذر فقد عادوا الى ظهور الخيل وعيونهم شاردة في البر الفسيح .

وأعاد المنذر كلمته الاولى : مرحباً بالاضياف . مرحباً بالاضياف .

فاكبر زهير وبنوه هذه العناية التي احاطهم بها ولي عهد الحارث ، واصبحوا يعتقدون منذ ذلك الحين ان وراء ابتسامة المنذر، ابتسام الايام ، وان الملك الغساني ملكهم ، يبذلون ارواحهم في الدفاع عن عرشه .

اجلس يا مولاي . هذه خيمتي لا تصلح لاستقبال الامراء . ولكنها البيت الذي يمنع حر الشمس ورطوبة الليل ... اجلس يا مولاي . انها البيت السيار الذي تنقله الجمال للامراء المحاربين والهاربين ...

قال زهير هذا ويداه ترتجفان... فجلس المنذر وأومأ اليهم بالجلوس فجلسوا واخذ ابن جناب يقص على الامير قصة قدمه الى حوران . ويروي له اسباب الحرب بينه وبين قبائل ربيعة . والمنذر يتظاهر بالاصغاء اليه. وهو يخالس سفانة النظر وسفانة واخواها مطرقون بحضرته لا يقولون كلمة .

فلما وصل زهير في حكايته الى فشله في الحرب . واضطراره الى هجر بلاده مع اهل بيته ليس غير. بعد ان كانت الجيوش تضج حوله والعشائر تأتمر أمره تساقط الدمع من عينيه . وخوفاً من ان يلحظ الامير ضعفه، تظاهر بالسعال واخذ يمسح عينيه بطرف كمه. ثم أحس ان قلبه يكاد يثب من صدره . فهمّ باستطراد حديثه فلم يستطع فنهض يحاول الخروج فتراخت ركبتاه وسقط الى الارض وقد اغمي عليه .

فملأ الخوف قلوب بنيه، واسرعوا اليه مع الامير ينضحون وجهه بالماء. واسندت سفانة رأسه الى صدرها وهي تناديه باعذب الاسماء .

ولكن ابن جناب غائب عن الوجود . فاخـــذت سفانة تبـكي ، وترفع عينيها بحزن الى المنذر . تقرأ في ملامح وجهه السكينة والجزع ، والمنذر مقطب الجبين تكاد تلمس الاشفاق مطلًا من عينيه ، وهو يفرك يدي زهير وصدغيه ويضع اذنه من حـــين الى آخر على موضع قلبه ، ينصت الى ضرباته الهادئة .

وما هي غير لحظة، حتى افاق زهير من اغمائه ، وفتح عينيه بتعب، فرأى الامير وولديه حوله ، وهو متكي ، فتجهم وجهه ونهض كالليث المجروح وهو يقول :

أجـل ، لقد ذكرت كل شيء ، انهـا ساعة ضعف ليتها لم تكن لقد ازعجت سيدي الامير وأبعدته عن رجاله ... ويلاه ماضعف الانسان، فانا ، انا زهير بن جنـــاب سيد قضاعة ، اطول عربان الجزيرة سيفاً ، واصدقهم عزيمة وأشدهم يوم القتال بأساً ، اصبح ضيق الصدر ضعيف القلب ، ابكي للمجد الزائل كما تبكي النساء ؟؟

وخافت سفانة ان يعود ابوها الى ذكر فشله . فيستولي عليه الغم وتسوء العاقبة .

ولحظ المنذر انها تريد ان تقاطع اباها ويمنعها الحياء فقال :

ليست دموعك ضعفاً يا أبا عامر ، انها نزوة الخلق العالي تظهر في مقلتيك .. فدع الماضي فلا خير فيه ، وستكون باذن الله ، في ظل دولة غسان ، اكثر عزاً منك في ظل دولة اليمن .

ان اليمن وطن اجـــدادنا ، ومسقط رأس « الازد » الذين نحن احفادهم ، ولكن الدولة التي تتمرغ في الترف والرفاه، وتستهويها مظاهر السعة والنعيم ، لهي الدولة التي لا تقدر ان تعيش موفورة الكرامة ، فاستبدل اذاً دولة هرمة بدولة فتية ، وعزاً مضى بعز حاضر ، ان الاضياف الذين ينزلون بيننـــا يصبحون سادة في غسان يشملهم عطف الملك ورضاه ، وحمايته واحسانه .

فبغت القوم لهذه المروءة يبديها الفتى الغساني لاضياف غرباء، وحاول ابن جناب، وهو الخطيب الفصيح اللهجة، ان يقابل مروءته بكلمة شكر فتلجلج لسانه . فانحنى امام المنذر ، وقبـل الارض التي تطأ ما قدماه . وقد امتلأت عيناه وعيون بنيه دموعاً .

فـكان انحناء ذلك الشيخ ، ابلغ ثناء تفيض فيه صدور الخطباء .

ولكن المنذر كان رشيقاً، وكأنه أراد ان يضع حداً لعاطفة الشيخ وتأثيره فانهضه وقال :

حدثنا الآن عما لاقيتم في طريقكم الينا ،

فمسح زهير دموعه وقال : لم نلاق اثناء سفرنا يا مولاي ما يستحق الذكر ، فالسهل من الجوف الى هذه الديار ، يكاد يكون بحراً هادئاً لا اعصار فيه ولا رياح ، لولا تعرض بعض الصعاليك من البدو للقوافل الضعيفة بغية السلب والنهب .

ـ : وهل اعترض لـكم احد من هؤلاء البدو ؟

فقال عامر : اجل يا مولاي، لقد اعترض لنا جماعات منهم ، فكانت نبالنا احدق من نبالهم ، واسيافنا اكثر مضاءً ...

فاعجبت المنذر فصاحة عامرٍ وبيانه .

ولكن سفانة كانت افصح اذ قالت :

ولا تنسى يا عامر ان هيبة مولانا الحارث الغساني ، كانت أنفذ من أسيافنا الى صدور العربان .

فلمع الحب في عيني المنذر ، وحال ان يخفيه وكيف يخفيه ؟ حب تغلغل في اعماق صدره عند سماعه صوت سفانة العذب ، وقبل ان يرى جمالها الخلاب وعينيها السوداوين الذابلتين .

وكادت تتلفظ شفتاه بما يفضح حبه، لولم يملك نفسه ويضغط أرادته ، وكأنه ذكر انه امير غسان ، والامراء لا يبذلون في مجالسهم ، ولا يعجلون اشياءهم فقال لسفانة وهو يبتسم .

بارك الله في سيفكم وهيبتنا ، فقد كانا حليفين في القتال ، وابليا البلاء الحسن في مواقف الدفاع .

قال هذا وضحك القوم .

وعاد زهير الى الحديث فقال :

وكنا نطارد الغزلان على افراسنا فنصيدها بحد السيف .

فقاطعه المنذر بقوله : وأفلت منها ظبي حيي ..

فعرفت سفانة انه يعنيها فقالت : اجل يا مولاي وقد لجاء الى الاسد ليحميه ... والتقى النظران ، فكانا أبلغ رسول الى القلبين ...

• • •

وسمع المنذر صهيل الخيل ، فمشى الى خارج الخيمة ونادى عاصم بن

ثعلبة أخاه بالرضاع وقال له :

أتموا دورتكم ، وترصدوا البر بيقظة وحذر ، فنحن مقيمون هنا حتى تعودوا ثم قال لرجاله: أطيعوا عاصماً كما تطيعوني واذهبوا على بركات الله.

ومشت الخيل الى جهة الشرق ، الى موضع يقال له « المرافق » يترصدون منه ذلك البر الفسيح .

ثم عاد المنذر الى مجلسه وقال .

أتسافرون في هذا الليل ام عند الفجر

قال زهير : نسافر عند الفجر يا مولاي فقد تعبنا وتعبت الخيل ، وانتم يا مولاي هل كنتم في سفر ؟

لا ولكننا خرجنا قبل بزوغ الفجر نطارد حمار الوحش فاعجزنا صيده ، فعزمنا على تفقد هذا السهل ، على أمل ان نعود عند نصف الليل الى القصر .

— : وهل القصر بعيد يا مولاي ؟

— : لا فهو قائم في طرف هذا السهل حيث تبدأ حدود حوران ، وليس بيننا وبينه غير مرحلة واحدة .

قالت سفانة :

وهل يقوم القصر يا مولاي، الى جانب الجبل الابيض الصغير القائم في منتهى الافق ؟

: واي جبل هذا يا سيدتي ؟

فاومأت سفانة الى ناحية الجبل الذي رأوه عند الغروب ..

فضحك المنذر وقال ، ان الجبل الذي رأيتموه يا سفانة ، هو القصر الابيض اعظم قصور الغسانيين واحكمهم صنعة وبنياناً ، وضع اسه على الحدود جدنا ثعلبة بن عمرو ثاني ملوك غسان بعد ان اتم بناء « صرح الغدير » الذي يقوم الى جهة الغرب من القصر الابيض ، وتولى بعد ثعلبة جدنا الحارث الاول ابنــــه فاتم بناءه ، ثم توالت الملوك بعدهما فشادوا الى جانبه الحصون والابراج وبنوا في هذه الجهة من حوران ، على طول الحدود من الشمال الى الجنوب ، قلاعاً وقصوراً تقيم فيها الحامية للدفاع عن البــلاد ، وبالقرب من كل قصر ، في خط مستطيل ، تقوم بيوت الاضياف ومنازل الغرباء كما سترين ، وأخذ المنذر يعد القصور باسمائها الى أن قال :

ولم يكن القصر الابيض هـــــذا ، مقراً لكل ملوك غسان ، فقد تنقلوا بين هذه القصور على مقتضى رغباتهم واحوال عصورهم ، فثعلبة بن عمرو كان يقيم في صرح الغدير ، والحارث الثاني ابن جبلة أقام في القصر الذي بناه في البلقاء، وفيه كانت تقيم امه مارية ذات القرطين التي ضربت بقرطيها الامثال، والنعمان بن عمرو بن المنذر جعل مقره في قصر السويدا ، ثم ينتقل منه الى قصر حارب ، وليس بين الملوك من هجر قصر بصرى ، فهي عاصمة الملك وفيها كانوا يقضون بعض فصول السنة كما يفعل الحارث ابي اليوم .

ان الحارث ابي يفضّل القصر الابيض عن كل قصوره ، لانه القصر الرحب المنيعة حصونه وابراجه، واذا انتقل منه في فصل الشتاء الى قصر

المثنى ، فاكراماً لرجال بلاطه وحاشيته ، وندمائه وقواده .

قال عامر ، وقد أراد ان يتحدث عن الحرب : واين يجتمع الجيش يا مولاى ؟

فخاف ابن جناب ان يكون عامر جاوز الحد المألوف في السؤال ، فقال له بشيء من الغضب : لا تستطلع اسرار الدولة يا بني .

قال الامير : انتم اضيافنا وفي حمايتنا فلا نبخل عليكم باسرارنا ، اذا كان في دولتنا اسرار ، فاعلم يا عامر ، ان الرجال في غسان جميعهم في الحرب جنود الملك الا الضعيف والشيخ العاجز ، وليس للجيش في وقت السلم مجتمع خاص ، فان الجندي عندما تنتهي الحرب يترك ساحة القتال عائداً الى بيته كأنه عائد من الحقل ، فاذا دعاه الملك الى حرب لبى نداء مليكه ، وعاد الى عدة حربه يحملها الى مواقف العز والفخار .

والجندي الغساني ، احسن جنود العرب قتالاً واشدهم في الحرب احتمالاً ، لا يهتم لغير محراثه وسيفه ، المحراث لمعاشه ، والسيف لمليكه .

وليست بلاد غسان ، بحاجة الى من يحميها في زمن السلم ، فهناك عمال منتشرون في البلاد ، يجبون الخراج ، ولكل واحد منهم السلاح والحامية الصغيرة من الجند تأتمر أمره وتدافع عنه عند الحاجة ، اما العامل المقيم في جهات تدمر ، فقد ضاعفنا له قوى الجند وعززنا موقفه بالمؤنة والعدد ، خوفاً من تعدي خصومنا اللخميين ، وهم يتحرشون بالحامية والجند كلما رأوا الى ذلك سبيلاً .

والقصر الذي يقيم فيه الملك ، تقوم بحراسته فرقة من الفرسان المجربين

ينفذون رغائب الملك ويحملون أوامره الى عماله وانصاره ، وحلفائه قواد الروم .

وجعلنا لكل حامية رئيساً ، ولكل عدو قائداً ، هذا يقود عشرة وهذا يقود الفاً ، حتى تصل على هذا النظـــام ، الى قائد عام يدرب الجيش كله ، والجيش بما فيه جماعاته وقواده ، يقوده جميعه يوم النزال قائد اكبر ، هو الملك او ولي عهده .

ولم يكن هذا النظام في الجيش متعباً في غسان من قبـــل ، بل كانت الرئاسات في العشائر تنتقل بالوراثة ، فلما حارب جدنا جبلة في صفوف الروم ادخـل شيئاً من نظام جيشهم في بلاده ، وحفظ للعشائر بعض الحق في تولي القيادة ، على قدر ما تسمح له احوال البلاد .

ثم تولى ابي الحارث الملك بعد ابيه ،فابقى للجيش نظامه ، لكنه اعاد الى امراء القبائل كل حقهم في تولي الرئاسات ، مشترطاً عليه اتباع النظام العام في ايام الحرب لا يغيرون فيه ولا يبدلون ، وبكل فخر استطيع ان اقول ، بصفتي اكبر أنجال الملك ، وقد خبرت اطواره ورافقته في الحرب والسلم ، ان ما من ملك يضبط بلاده وشعبه ،بمثل اليقظة والحزم الذين يضبط بهما الحارث رعيته ، فهو مطلع على كل ما يجري في بلاده وبلاد الناس اطلاع عارف خبير ، ومن واجب عماله ان ينقلوا اليه كل ما يعرفونه عن احوال خصومه وحلفائه ، حتى ان الشعراء الذين يجيئون من اقاصي البلاد لا يأذن لهم في القول قبل ان يقصوا عليه اخبار القبائل وروايات حربها واحوال امرائها .

والويل لمن يكذب على الحارث ، فهو حليم متسامح يغفر معظم الذنوب الا الكذب فلا يعفو عن صاحبه ولا يقربه ولا يحبه ، واحب شيء اليه الصراحة والصدق وهو القائل « الصريح الصادق لا باطن له» اي ان ظاهره مرآة نفسه .

وكل امر في غسان مهما يكن طفيفاً مرجعه الملك ، يبحثه مجلسه ، وتدرسه خاصته ، ثم يبعثون به امراً نافذاً في العمال والرعية والجيش لا مراجع فيه .

والعدل ، العدل فوق كل شيء ، فرئيس العشيرة والامير ، والفلاح المعوز الفقير ، جميعهم يسودهم نظـــام واحد ، لا يسلب القوي حق الضعيف ، وان فعل ، فحكم الملك لاشفاعة ورجاء فيه .

وقد كانت العشائر ، في ايام جدنا جبلة ، تشن الغارات وتغزوا القبائل ، فتستأثر بالاسلاب والغنائم لا يشاركها فيها أحد ، اما اليوم ، فشن الغارة والغزو ممنوع في غسان ، والحرب يشهرها الملك لا سواه ، فلا يجرد سيف من غمدة الا بـــأذن ، الا في احوال الدفاع والتعدي المفاجئ ، وليس لجماعة او عشيرة ، حق الاحتفاظ باسلاب الحرب فكل الغنائم تحفظ في بيت المال الى حين الحاجة ، وللملك وحده ان يوزعها على العشائر والجيش ساعة يشاء .

كذلك كان الامراء والروساء ، يدخلون على الملك وهم متقلدون السيوف وفاقاً لعاداتهم الموروثة ، غير ان ابي ، ابطل هذه العادات فهو لا يأذن لأحد في الدخول اليه الا اعذل ، حتى ان رسل القيصر وقواد الروم انفسهم ، تأخذ الحجاب سيوفهم وحرابهم قبل الدخول على الملك

وبالعكس ، على كل من يقابـل الملك في ايـام الحرب ، ان يتقلد سيفه وعدة حربه والا عده الملك متمرداً عاصياً وامر بطرده وعقوبته .

وكان زهير وبنوه يصغون الى حديث المنذر وقد ملأت قلوبهم هيبة الحارث وتاقت نفوسهم الى رؤيته .

فقال زهير : وهل يأذن لنا مولانا الملك في تقبيل بساطه ؟

قال المنذر : بل يأذن لـكم بمقابلة خاصة يحيطكم بها بعنايته وعطفه ان شاء الله .

والآن فانا مودعكم على ان نلتقي غداً ، فاذا عاد عاصم ورفاقـه فقولوا لهم ان يتبعوني .

ومد يده فصافحهم وقال : استريحوا الليلة فتستعيـدوا قواكم ، وسافروا قبل بزوغ الفجر .

ثم شد على يد سفانة ، فاحست بالحب يتمشى في عروقها ، وايقنت من تلك الساعة ، ان حياتها اصبحت ملكاً لارادة هذا الامير النبيل .

وعلا المنذر ظهر جواده ، واومأ الى اضيافه بالسلام وهو يقول : الى اللقاء :

- ٤ -

سفانة بنت زهير

كان عامر بن زهير من فتيان العرب لساناً وبياناً ، وكان اخوه قيس نبيل الكلام صادق القلب واللسان ، والاثنان من خيرة الابطال الذين تشهد لهم الحرب انهم رجالها واربابها .

وكانت سفانة اختهما ، في الدرجة الاولى من علو الخلق وادب النفس ، وقد نشأت بدوية مستقلة ، صريحة القول وثابة العواطف ، حرة الطباع لا تعرف الخداع والرياء .

وفي سهول نجد وجبال اليمن ، على قمة الصخر وفي ظلال النخيل ، قضت سفانة معظم العمر ، وهي على ظهر الجواد ، تصيد الوحش والطير بالسهام ، كما يصيدها اصدق الرماة من الرجال .

علمها ابوها ادب اللسان ، وعلمها اخواها صنوف القتال ، وعلمتها الطبيعة الهادئة صفاء القلب وطهارة الوجدان .

وهي سمراء جذابة الملامح ، تبسم النضارة في خديها وفي جبينها وعينيها كل السحر ومعاني الجمال .

وسفانة ، بنت خير وعز ، تدللت ما شاء الدلال ، فكانت سيدة قومها ومطمح انظار الفتيان الاشراف وامراء القبائل .

ولكنها لم تعرف الحب ، وهي اليوم في ربيع الحياة لم تتجاوز السادسة عشرة ولم تكن تجاوزت العام الثاني عشر عندما ماتت امها في منازل قضـــاعة .

• • •

نام ابوها واخواها ، اما هي فلم يغمض لها جفن ، وكيف تستسلم للنوم وقد خطا فؤادها خطوته الاولى في طريق الغرام ؟ ومن احبت ؟ أحبت اجمل فتيان العرب وجهاً ، واطيبهم خلقاً ، واعظمهم شأناً، أمير غسان اليوم وملكها غداً ، وكيف احبته وهي لا عهد لها في الحب وقد رأت معظم فتيان العرب يحاربون في نجـد والبحرين ولم تبالي بهم ، ولم يخفق قلبها لاحدهم ، أفيكون الامير الغساني ، الذي لجأوا اليه ، ونزلوا في حماه ، فاتحاً فؤادها مسلطاً على عاطفتها؟ واذا استبد بهذا القلب الذي فتحه ، فلمن تشكو جوره واستبـداده ، وهو الملك المطلق السلطان المالك رقاب الناس واموالهم ؟ وهب انه طارحهـا الحب فاسترسلت في هواه ، ثم نبذ هو هذا الهوى،افلا تصبح عاراً على ابيها وذلاً لعشيرتها ؟ ومن انبأها ان المنذر يتنازل الى حبها وبنات الملوك والامراء ينطرحن على قدميه والغانيات الحسان تهـــدى من جميع الامم اليه وهل كانت نظراته اليها وهو يحادث اباهـا نظرات حب او وسائل اغواء ؟ وهل يكون الامير حراً في غرامه ام يمنعه شرف نسبه من نيل مرامه ؟ ومن يضمن لها رضى الحارث عن هذا الغرام وقد يختار لولي عهـــده احدى

بنات عمه ولا يرضى ان يدخل غريبة في بيته؟ هكذا كانت سفانة تناجي نفسها وهي متكئة في فراشها على وسادةٍ من جلد ، وكلما تمثل لها ظلام الغد ، اشرق في اعماق نفسها شعاع من نور الامل ، وقام في ذهنها انه اذا انطفأ هذا الشعاع فقد انطفأ آخر أمل لها في الحياة .

وحاولت سفانة بعد ذلك ان تستريح بالنوم فلم تقدر ، فاكتفت بخيال الحبيب يتراءى لها في ذلك الليل باسم الثغر ، تنطق عيناه بما في قلبه من لواعج الغرام .

• • •

أطلق المنذر عنان فرسه قاصداً قصر الملك وهو يفكر بسفانة ، سفانة الفتانة التي ملكت لبه ، واصبحت في مثل هذه السرعة امنيته الوحيدة في حياته ، وكان يخاطب نفسه فيقول :

وماذا يمنعني من ان تكون سفانة زوجة لي ، وهي اميرة الجمال وبنت الشرق والنسب ، وابوها صاحب الجاه العريض بين قبائل العرابات ومن يسلب مني سفانة واناشيد غسان ؟

ثم انتفض فجأة اذ خطر له ان سفانة لا تحبه ، بل هي عالقة القلب بفتىً عربي غيره اكرهها القدر على فراقه ثم هي لا تلبث حتى تعود اليه ، بعد ان يملأ ابوه الملك راحتي ابيها مالاً ، ويغدق عليه انعامه واحسانه... وفيما هو يركض فرسه وهو شارد الفكر ، حمحم الفرس ، فالتفت المنذر فرأى الخيل وراءه فعرف انها خيل عاصم بن ثعلبة ورجاله ، فقال لهم دون ان يقف : اتبعوني الى القصر :

فاطلقوا الاعنة ومشوا خلف الامير متجهين جميعاً الى القصر الابيض .

وعرفت سفانة ان الليل مضى اكثره ، فايقظت اباها واخويها وهي تقول : قوموا لقد بزغ الفجر .

فقاموا الى الخيل يسرجونها ، وشد العبدان أحمال الجمال وتهيأوا للرحيل فقال زهير لاولاده :

يا اولادي ، لقد كنا في الامس غيرنا اليوم ، كنا سادة فاصبحنا عبيداً كنا نطعم الغريب فأمسينا غرباء نطرق ابواب المحسنين ، فتناسوا عزكم ، واصبروا على فقركم ، وانهجوا في بلاد غسان نهج الرجال الاشراف الذين لا تبطرهم نعمة ولا يغيرهم جور الزمان .

يا أولادي :

كونوا اضيافاً خفاف الظل في بلاد لا تعرفون عاداتها واخلاق شعبها ، فاذا انزلنا الحارث في ارضه ، وأحسن الينا احسانه الى اضيافه، كنا اعواناً له نوالي أنصاره ونحارب أعداءه ، والا ، فالارض اوسع من أن تضيق في وجوهنا ، وقد نجد بين امراء العرب من يقبلنا في بلاده ضيوفاً .

يا اولادي :

خير خصال المرء الصدق والصبر ، فعالجوا اموركم بهما ولا تتدخلوا في امور الناس لئلا تسمعوا ما لا تحبون .

وانثنى زهير الى فرسه فركبه وركب اولاده خلفه ، ومشوا يريدون حوران .

- ٥ -

شقيقة الملك

كوكب أخت الحارث ، فتاة فتانة المحاسن عصبية المزاج ، كثيرة التقلب سريعة التأثير .

وفي كوكب كبر وغرور ، اذا مشت ملأت بردتيها الخيلاء ، وترنح عطفاها غنجاً ودلالاً .

وهي وحيدة ، فام الحارث لم تلد من البنات غير كوكب ،

وهي مليكة القصر بعد وفاة زوجة الملك ، ولا يرد لها الحارث شفاعة ، ولا يرفض لها رأياً .

ولكنها لم تكن صريحة ، فظاهرها ناعم حلو ، وباطنها مكر وخداع ، لا تعرف الصراحة الا في حبها الملك ، تسهر على راحته وتشاطره همه ، وتعطف على بنيه عطف الام الحنون .

والمنذر وشقيقاه يحبون عمتهم ويحترمونها ، وقد قضوا ايام الطفولة في حضنها تداعبهم وتلاعبهم .

وهي تقيم في قصر صغير قائم داخل سور القصر الملكي ، امامه رواق ينتهي بدرج يصعد منه الى القصر الابيض .

وليس في مملكة الغساسنة ، بل ليس في البلاد العربية ، من يجهل جمال كوكب الجذاب ، وقدها الاهيف ، وعلو منزلتها عند اخيها ، حتى بعد صيتها وانتشر ذكرها فكثر خطابها وكلهم من امراء العرب، غير انها كانت تردهم الواحد بعد الاخر لا رغبة لها في الزواج، بل كانت تقول انها لا تميل الى الرجال. وقد بلغت اليوم الثلاثين وهي بعد عذباء.

وفي الواقع كانت كوكب ميالة الى ما يميل اليه الرجال ، من ركوب الخيل، وضرب السيف، واقتناء انواع السلاح حتى اصبحت من صف الفرسان الذين لا يشق لهم في الحرب غبار .

كذلك كانت وصيفاتها وغيرهن من نساء غسان . يلعبن على ظهور الخيل ويترامين بالسهام . كما يترامين بالزهور في فناء القصر .

وكثيراً ما كان الحارث وولداه المنذر وجبلة ، يحاولون كوكب في الميدان فيشهدون لها بقوة الساعة والرشاقة في الضرب والطعان .

وكان المنذر واخواه يزورون عمتهم في قصرها الخاص كما ذكرنا . ويتناولون معها الطعام . ووصائف الاميرة الثلاث . يتهادين امامهم كالسكارى اخذت برؤوسهم حميا المدام .

سليمى بنت ثعلبة أخت عاصم بن ثعلبة . وفاتنة بنت الربعي . ورضية بنت حبيب . وغيرهن من نساء العرب الحسان الوجوه . اختارتهن لخدمتها شقيقة الملك . بل هي جعلتهن نساء شرف في قصرها

الزاهر . كما كانت تفعل قبلها . جارتها الملكة العظيمة الجبارة زنوبيا ملكة تدمر اما الفتيات الثلاث . فهن بنات الامراء أصحاب الجاه في دولة الحارث . فسليمى اخت عاصم بنت رئيس عشيرة « هنب » وابوها احد رجال البلاط . والربعي ابو فاتنة ، حفيد اولئك الامراء الذين ساعدوا الغسانيين في حروبهم الاولى مع بني سليح . وابو رضية .حبيب بن اوس « من بني شبيب » احد الأبطال الذين كانوا عوناً للحارث على اعدائه .

وهن من اجمل فتيات غسان. واكملهن تربية ، واشدهن اخلاصاً للبيت المالك وكانت سليمى . اذارأت المنذر اباكرب في قصر كوكب صبغ دم الخجل خديها . وتمشت قشعريرة الحب في عروقها . فهي تحبه الى حد الجنون والمنذر لا يدري . وكيف يدري ، وسليمى نفسها تخفي حبها في اعماق صدرها وهي لا تجروء ان تحدث نفسها بهذا الحب ، بل هي لاتجروء ان توجه الى المنذر نظرة غرام، او ليس المنذر احسن امراء العرب وجهاً واعلاهم شرفاً ؟ او ليس قلب المنذر قلب ملك لا يطمع به غير الملكات ؟؟ ... وكيف تجسر ان تطارحه الحب وهي تقرأ الوقار على جبينه ، واذا ابتسم لها او لغيرها من الوصائف فانما هو يبسم ابتسامة رصانةٍ ورضى لا ابتسامة حب وهوى .

تلك كانت حال سليمى بنت ثعلبة ، حـــال فتاة يصرعها اليأس ، فيصبح القصر في نظرها ، وهو القصر الضاحك الزاهي ، سجنـاً رهيباً تكتنفه الوحشة ويسوده الظلام ، ثم تستعين بالبكاء فتبكي حتى ينضب الدمع ، ثم يجيء دور الذهول فتنزوي في غرفتها وهي كالحجر الاصم لا

تسمع ولا ترى حتى ينقضي الليل ، فاذا استفاقت ، استفاقت صفراء الوجه ذابلة العينين وتمشي النحول في جسم سليمى ، وذهب السهر بنضارة وجهها وحمرة خديها، وهوذا الربيع قد انقضى، وكاد الصيف ان ينقضي، وهي تذوب في اتون من نار الغرام ، واحست الاميرة ان داءً قتالا ينخر عظم الفتاة فدعتها الى غرفتها الخاصة في ليلة هادئة ، وقالت لها :

ان العيون تكاد ولا تعرفك يا سليمى ، فما هذا اللون الشاحب والجسد الهاوي ؟ فتصيرين الى مثل هذا الهزال والنحول وانا لا ادري؟ أم تحسبينني بلهاء الى حد اني لا اعرف السر الذي يذيب صباك، ويقودك بخطى واسعة الى القبر ؟

ولم تكن الاميرة تعلم شيئاً من امر الفتاة ، ولكنها كانت في معظم احاديثها تنهج منهاج اخيها الملك ، فتستطلع بالدهاء افكار الناس واسرار القلوب ، فجال الدمع في عيني سليمى ولم تجب .

وسكتت كوكب عن الكلام فلم تسمع غير الزفرات ،

فتبادر الى ذهنها ان سليمى تحب فتىً من فتيان قصر الملك، والخجل يمنعها من ان تبوح لها بهذا الحب ،

فوضعت يدها على رأسها وقالت :

اني لا أريد يابنتي ان انتزع سرك انتزاعاً، ولكني أحب ان تعتقدي اني جديرة بكتمانه ، ومن حقي ان اطلع على أسرار وصائفي اللواتي يعشن في قصري وتحت حمايتي ،

ولكن سليمى بقيت ساكتة وهي تشهق بالبكاء ،

فامتعضت الاميرة من هذا السكوت وقالت متهكمة ،

لم يبق علي الا ان اجثوا على قدميك كما تجثو الرعية امام الملك ...
فتمتمت سليمي تقول : عفواً يا مولاتي ، اني ...
فقاطعتها الاميرة قائلة : انك تحبين ،
: نعم ،
ـ : ومن يكون هذا الحبيب ؟
ـ : اسألك يا مولاتي ان تعفيني من الجواب ،

فايقنت الاميرة عندئذٍ ، عند سماعها هذا الرجاء ، ان سليمى تحب المنذر او جبلة « لان الحارث كان صغيراً » فقالت لها مازحة :

أتحبين المنذر ام جبلة ؟
فغطت الفتاة وجهها بيدها وهي تقول :
المنذر يا مولاتي ... أحب المنذر
فرددت الأميرة وهي ذاهلة اسم المنذر ، كأنها لم تصدق ما سمعت ، ثم قالت بصوت مرتجف هادىء
أصحيح ما تقولين ؟

ـ : اجل يا مولاتي ان شقائي في هذا الحب صحيح لا ريب فيه ، فبدت على ثغر الاميرة ابتسامة صفراء ، وخافت ان يكون المنذروهو الامير العصامي نصب لهذه المنكودة الحظ شركاً فعلقت فيه،واكبرت ان يستهوي ابن اخيها احدى وصائفها ، وهي بنت أمير من الخاصة له في البلاط الكلمة المسموعة فقالت لسليمى وشفتاها ترتجفان

قصّي علي يا سليمى حكاية هذا الغرام ،
فآنست الفتاة في اميرتها اشفاقاً فمسحت دموعها وقالت :

كلما رأيت الامير في هذا القصر. اختلجت في الصدر عاطفة لا احسبها الا عاطفة احترام لمقامه الملكي . ولكنها عاطفة قوية تملك علي جميع مشاعري . ففي اول هذا الربيع ، ان كنت تذكرين ، ليلة كان الملك وانجاله الامراء ورجال البلاط يتناولون هنا طعــــام العشاء . امر الملك بالشراب فأحضر . فلما لعبت الخمر بالرؤوس . خيل الي اني اسمع المنذر يقول : اسقيني يا سليمى . فناولته الـكـأس . فاذا شفتاه تنفرجان عن ابتسامة خلابة نفذت الى هذا القلب ، واذا انا صريعة الهوى

: وبعد ذلك ؟

ـ : بعد ذلك أمسيت شقية في غرامي ، يروح الامير ويجيء فلا يبتسم لي الا كما يبتسم لسواي . فكأن تلك الابتسامة الساحرة التي أسر بها قلبي قد طلقت ثغره . فلا أرى فيه الا ذلك الامير الذي يحوطه الجلال لا ذلك العاشق تلمع الصبابة والغرام في مقلتيه .

فتنفست الاميرة الصعداء . عندما عرفت ان ابا كرب بريء من هذا الغرام فقالت لسليمى وهي تبتسم :

اهذه هي كل الحكاية يا سليمى؟

ـ : نعم يا مولاتي . هذه هي حكاية شقائي . وانا اعلم ان غرامي خطر لا أمل فيه . ولكن لا حيلة لي ، فهو أول حبٍ خفق له قلبي ، وسيظل يخفق عليه حتى يذوب .

قالت هذا وعادت الى البكاء

فاستعظمت كوكب أمر هذا الحب تبعثه الى صدر سليمي ابتسامة

واحدة من شفتي المنذر . وكيف لا تستعظمه وهو حب خادمة لسيدها او حب رعية لملكها . ومـــاذا تفعل وهي ترى تلك الفتاة الطروب ، خيـالاً ناحلاً لا يلبث حتى يبتلعه الفنـاء ؟ فاطرقت تفكر وهي تلعب بطغائر شعرها المرسل على كتفيها ...

ثم رفعت رأسها بعد هنيهة وقالت لسليمى حازمة :

أذن تصبحين بعد ان تتزوجي المنذر اميرة غسان . وتصبح بنـات الاشراف جواري في قصرك الملوكي .. أجل .لقد حذرت. انـــك لا تحبين الامير ولكنك تطمعين بان تصيري ملكة ...

فحسبت سليمى ان الاميرة تتهمها بغرامها ، فهـاجت كبرياؤهـــا ورفعت عينها بانكسار وذل قائلة :

نعم يا مولاتي ، اني فتـاة طـامعة ، ولكن لهذا الطمع حد هو أن اصير عبدة في قصر لا ملكة على عرش ، فلا تهزأي يا سيدتي بشفـائي، بل اسمحي لي بالتحجب عن الناس ، فابكي املي الضائع وشبابي الزائل .

قالت هذا وحاولت النهوض .

ولكن الاميرة امرتها بالبقاء . فعادت الى الجلوس .

وارادت كوكب ان تعيد الامل الى صدر سليمى ، ثم تنصرف بنفسهـا بعد حين الى النظر في امرها . وكانت تعتقد من جهة اخرى ان هذا الحب الفجائي عارض لا يلبث حتى يزول اثره ، فقالت لها :

والآن فسنتحدث بجد ، فقولي لي : اتظنين ان في صدر المنذر حبا يحاول ان يخفيه ؟

– وكيف اظن ذلك يا مولاتي ، وانا احاول ان انتزع النظرة من عينيه انتزاعاً فلا اظفر بها .

– : اذن لا تعلمين من أمر هذا الغرام الا انك عاشقة ؟

– : اجل يا مولاتي ، اني لم اكن اعرف ما هو الحب ، بل لم اكن اعرف ان ابتسامة المنذر ستكلفني شبابي وحياتي ، لقد كتب لي ان احب مولاي ، فكتب لي في الوقت نفسه ان اشقى الى الابد ، فارثي لحالي يا سيدتي ، واشفقي على فتاةٍ لا راحة لها في غرامها الا بالموت ،

وكانت الاميرة تحب وصائفها لانهن نشأن في قصرها ، وكبرت في خدمتها ، فلما قصت عليها سليمى حكاية حبها ، خافت ان يستولي عليها القنوط ، فتذهب ضحية هذا الحب ، فقالت لها وقد ظهر الدمع في عينيها ،

تذرعي بالصبر يا بنية ودعي عنك ذكر الموت ، فالفتيات اللواتي يستسلمن للحب لا يستسلمن لليأس ، اني سأقرأ فكر الامير ، واقف على دخيلة نفسه فاذا آنست في صدره ميلًا اليك ، عمدت الى تحقيق املك بواسطة اخي الملك لانه لا يرد لي طلباً ، وانت على كل حـــال ، ابنة نبيل شريف وان يكن لا يضاهي المنذر نبلًا وشرفاً ، واعدك ، اني ساتذرع بكل الوسائل لحمل الامير على الرضى بالزواج ، اذا هو لا يرغب فيه الآن ، فكوني حكيمة واخلعي عنك وشاح الذهول الذي تلبسين ، فلكل علة دواء .

والآن ، فقومي الى غرفتك ، واعلمي اني لا اريـد ان تظهري في

القصر بين الوصائف والخدم ، الا فرحة ضاحكـة ، لئلا يطلع احد على سرك فيذدريك ويهزأ بك ، قومي لقد انتصف الليل .

فقبلت سليمى يد الاميرة ، وانصرفت الى غرفتها وقد عاد الى قلبها الرجاء وهكذا تعاهدت الاثنتان ، الاميرة ووصيفتها ، ان تصيدا قلب المنذر ، والمنذر لا يدري .

• • •

مضى على هذا الحديث اكـــثر من شهر ، والاميرة تراقب المنذر فلا ترى فيه الا الفتى الخلي ، الذي يقتصر حديثه عـــلى شؤون الحرب وسياسة البلاد لا يهتم لسليمى ولا يخصها بنظرة حب .

وكان ذلك قبل قدوم زهير بن جناب واولاه الى حوران .

- ٦ -

كان الليل قد مضى، عندما وصل المنذر ورجاله الى القصر الابيض، وسكان القصر الابيض نيام، وليس على ابوابه وفي ادوقته، غير الحراس والحجاب فأمر رجاله بالانصراف ، وسار هو الى غرفته فاستراح قليلاً ، ثم ساعـده خادمه الرومي « مالياني » على تغيير ثيابه وخرج يريد الملك وكان الملك يغتسل ، فانتظره الامير في قاعة الجـــلوس حتى اقبل ، فقبل يده وقال :

عدت الآن من السهل فلم اجد ما يوجب الحذر يا مولاي

قال الملك : وقد عاد ايضـاً اخوك جبلة فلم يجد على طريق الحيرة شيئاً فما رأيك بابن ماء السماء، وهو منذ تولى الملك يتحرش بنا ويهاجم حدودنا وبلادنا ويبث علينا الجواسيس فينزلون في ارضنا ، وينقلون اليه كل حركاتنا واعمالنا .

قال المنذر : ان العداء بيننا وبين هؤلاء الملوك يا مولاي ، عداء طبيعي ورثناه منذ مئتي سنة عن اجدادنا ، كما ورثه هذا الملك اللخمي عن اجداده فأما ان نصبر على اعدائه ، واما ان نفاجئه بحرب تشيب لها رؤوس الاطفال .

فابتسم الحارث وقال :

اصبت يا بني ، واما الصبر ، واما الحرب ولكن سنقابل عدونا هذه المرة ايضاً بالصبر، لئلا يقال اننا لا نحسن السياسة ولانحفظ حق الجوار، اقول لك وانا اعتقد ان الحرب بيننا امر لا بد منه ، وستكون اعظم حرب خاضها الغسانيون واللخميون منذ تحاربوا الى هذا اليوم .

اجل ان ابن ماء السماء ، ملك عظيم الاثر كثـــير الجيش ، ولكنه جربني مرتين فثبت له ان الحارث الغساني يعرف كيف يحمي قومه ، ويصون بلاده .

ومشى الحارث وولده وراءه الى شرفة الملك، يتفرجان على طوائف الغنم تملأ السهل والجبل ، وقد برزت الشمس من وراء الحراء ترسل الى حوران شعاعها الفضي .

واستيقظ النائمون ... وانصرف كل واحد في حوران الى عمـله ، هذا يقود فرسه ، والآخر يسوق ثوره ويحمل محراثه ، ورجال البلاط يستعدون لمقابلة الحارث فيفضي اليه كل أمير بما عنده من اراء وشؤون.

ودار بين الحارث والمنذر حديث طويـــل ، لم يطلع على اسراره المقربون .

• • •

وفي عصر ذلك اليوم ، أقبل الملك مع ولديه المنـــذر والحارث ، ورجال بلاطه على برج القصر الجنوبي،يجلسون امامه في دائرة من المرمر بنوها لمجلس الملك فوق السور ، تحت قبة فخمة البناء تقوم على اثني عشر عاموداً من الحجر الاسود ، وفي سقفها صور الطيور والسباع .

وكان مقعد الملك الى جهة الجنوب مطلاً على ذلك السهل المترامي الاطراف بجلس ازاءه ولي عهده واخوانه وحولهم في حلقه جميلة الشكل، مقاعد الخاصة والمقربين .

وأخذ القوم مجالسهم ، فاذا هم أمام مشهد من اعجب المشاهد عظمة وجلالاً الوفود تلي الوفود من قبائل العربان، فيها الرجال والنساء شيوخاً وكهولاً وشباباً واطفالا، وصوائف الخيل والجمال تملأ الساحة ، وجفال بن سلمة، والقائم بامر الاضياف ، يودع القوافل ويرحب بالقادمين .

وخلف جفال ، العبيد والغلمان يأخذون كل جماعة بخيلها وجمالها وعبيدها واشيائها الى حيث يعدون لها المنازل والمرابط . وفي كل يوم، بعد ان ينجز جفال مهمته ، يكتب لسيده الملك ، على رقٍ طويل ، اسماء الرؤساء والامراء والشعراء من الاضياف ، فينظر الحارث فيها ، ثم يأخذ الرق ولي عهده وخاصته فيبدي كل واحد منهم رأيه فيها يعرفه عن احوال هؤلاء النازلين، اما الرأي الاخير الذي يعول عليه الحارث، فرأي شيخ من شيوخ مضر ، اسمه قيس بن ثابت ، كان الحارث يحبه ويحترم علمه ، لانه عارف باخبار القبائل ، مطلع على روايات العرب وأنسابهم ، فاذا ذكر له فرع من فروع العرب ، نسب ذلك الفرع الى قبيلته ، وذكر اصلها وموضعها وهجرتها ، واسماء ابطالها وشعرائها لا ينسى منهم أحداً وكان ابن سلمة في ذلك اليوم ، شديد الحرص دائم الحركة ، لا تكاد تراه في طرف الساحة حتى تلمحه في الطرف الآخر ، يبسم للناس ويستنسبهم وهو ينظر من حين الى حين الى جهة البر ، ينتظر ضيوفاً ولي العهد نفسه اوصاه بانتظارهم .

وفيما هو يهم بالرجوع ، وقد كادت الشمس ان تغيب ، ابصر خيلا مقبلة ، فتبيها، فاذا هي اربعة افراس على ظهورها اربعة رجال، وراءهم عبدان يقودان الجمال .

فأرسل نظره الى برج القصر كأنه يقول للمنذر : هؤلاء ضيوفك .

ثم أومأ الى رجاله فاقبلوا عليه ، ومشى في طليعتهم يستقبل ضيوف مولاه . وكان المنذر قدرأى ضيوفه قبل ان يراهم جفال ، فاضطرب اضطراباً رآه ابوه ، فالتفت ، فابصر الخيل ، فقال للمنذر :

اهؤلاء هم الضيوف الذين تنتظر ؟

قال المنذر : نعم يا مولاي

— : وايهم زهير بن جناب ؟

- : هو في المقدمة والى جانبه سفانة :

— : اني ارى اربعة رجال لا نساء بينهم

— : نعم يا مولاي ، فسفانة لا تزال بلباس الفرسان ، والاثنان اللذان تراهما وراء زهير ، هما ولداه عامر وقيس

فابتسم الحارث وقال بصوت لا يسمعه رجال المجلس :

: وكيف قدرت ان تعرف سفانة وهي بلباس الفرسان

— : من ثيابها يا مولاي ، فهي تلبس الثوب الذي كانت تلبسه في الليل الماضي .

قال الحارث : وهناك شيء آخر على ما ارى ، يدلك على سفانةولو كانت بين العشرات من الناس ،

قال هذا وضحك ،

ثم رفع صوته وقال: أهلا باضيافك يا ابا كرب ، انهم اعزّ من نزل علينا في هذا العام .

قال المنذر ، العفو يا مولاي ، ان جميع الذين ينزلون على غسان هم اضياف الملك

فتابع الحارث حديثه قائلًا :

غداً او بعد غدٍ نأذن لزهير وبنيه في حضور مجلسنا،فنطلع على امور القوم ، ونسمع لهم ، ونختبر ادبهم ، فنفعل ما يدعونا اليه الواجب من تكريمهم والاحسان اليهم،فاذهب واوص ابن سلمة ليقوم بواجب الضيف

ثم أومأ الحارث الى رجال مجلسه يأمرهم بالانصراف ، فانصرفوا . وانصرف المنذر . ومشى الملك عائداً الى القصر

• • •

ودعا المنذر اليه أحد الحراس وقال له ، اذهب وقل لاخي جبلة ان يوافيني الى رواق القصر الكبير

فقال الحارس : ان مولانا جبلة ذهب مع فرسانه العشرة في طريق الجنوب واوصى عاصم بن ثعلبة ان ينتظر مولانا المنذر في فناء القصر الخارجي .

فأمر الحارس ان يدعو اليه عاصماً ففعل :

فقال لعاصم : اني الليلة باقٍ في القصر لشأن من شؤوني ، فاختر لك عشرة رجال وسيروا في طريق تدمر ، وكل غريب مهما يكن شأنه

فاقبض عليه، ولا تطلق سبيله الا وانت واثق،فقد يكون هذا الغريب جاسوساً للخميين علينا ، اذهب يا أخي وكن على حذر .

فامتثل عاصم امر مولاه . وسار الامير الى المنزل الذي اعده ابن سلمة لاضيافه . وقد نوى ان يطلع سفانة على حبه . فيرى اذا كانت تبادله هذا الحب . ام عالقة القلب بحب سواه

ولما وصل اليه . رأى الغلمان ينقلون الامتعة والاحمال الى الداخل . وأبصر زهيراً وولديه وابن سلمة واقفين الى جانب المنزل عند مرابط الخيل . وسفانة في الرواق تنظر الى الغلمان وهي ذاهلة .

فتظاهر انه لم يرَ ابن سلمة . فقال لاحد الغلمان : اين ابن سلمة يا غلام ؟ فاجفل الغلام عند رؤيته ولي العهد وقال : انه هنا يا مولاي . فافاقت سفانة من ذهولها عند سماعها صوت الامير ، ورفعت رأسها تريد ان تحييه ، فاذا هو منها على قيد ذراعين ، وقد مد اليها يده مسلماً متصافحاً .

وقررأي الامير ، ان يفاجئها بحديث غرامه فقال :

ـ اتقبلين زيارتنا في مثل هذه الساعة يا سفانة ؟

فقالت وصوتها يرتجف :

ـ لست مخيرة في القبول والرفض يا مولاي ، فالامر الذي يريده الامير يريديه شعبه ، وارادة الامير نافذة في رعيته على كل حال

ـ لستِ يا سفانة رعية الامير ، بل انتِ وأمنيته ...

بل انت ملاذنا وحامينـــا ، ومانحن الاخدم يهمهم رضى سيدي ولي العهد .

- : ليس لك يا سفانة سيد في غسان الا الملـــك ، فابتسمت سفانة وقالت :

وأنجال الملك ايضاً يا مولاي

فلمعت عينا المنذر ببارق غريب وقال :

دعيني من كلمة مولاي فانجال الملك اخوان لانجال زهير بن جناب، وكبر أبناء الملك الذي يحدثك الآن ، سحرته عيناك الذابلتان، فاصبح عبداً لك لا سيداً .

لقد احببتك يا سفانة ، عندما سمعت صوتك العذب ، حباً هو كالنار يحرق احشائي ، بل كالنور يشع في ظلمات نفسي ، فتحكمي في هذا القلب الذي يطرحه أمير غسان الآن على قدميك ، واعلمي ان حياة هذا الامير ، حاضرها ومستقبلها ، ملك يديك ، فقولي يا سفانة كلمتك ، قولي قبل ان يعود ابوك ، اتحبينني فاتدبر أمري ، ام انت تحبين سواي فاخنق حبي ، واكتم سري .

فبغتت سفانة لهذا الاعتراف الصريح ، وانتفض جسمهـا انتفاضاً ، لغرام يطارحها اياه ذلك الذي ملك لبها، ولم تكن تحلم قط بنيل رضاه . ولكنها أرادت ان تتصرف مبلغ حبه فقالت :

تدبر ما تقول يا مولاي ، فمن اكون أنا حتى تتنـــازل الى حبي ، وهل يجوز لفتاة مثلي ، اكرهوها على ترك بلادها فلجأت اليك ، ان

لطمع بغرامك ، وانت رجل تنحني لـــك رؤوس القوم ، وينتظرك شعبك ليلبسك يوماً تاج ملكك ويجلسك على عرش اجـدادك ؟ وهل يطيق سيدي الملك ان يشمل برضاه ، فتاة ما كادت تنزل بأرضه ، حتى عمدت الى استغواء ولي عهـده !! لا ، ان هذا فوق تصويري ، فدعني يا مولاي ، دعني في همي ، واختر لك عروساً من بنـــات القصور ، فبلاط غسان اكبر من ان تسوده فتاة بدوية عاشت بين قبائل العرب ، في بيت من صوف الغنم او وبر الجمال .

فخيل الى المنذر ، بعد الجواب الذي سمع ، ان سفانة تحب سواه ، وهي لو كانت تبادله الحب لما عمدت الى الاعتذار، فاعمى الحب بصيرته، وكبر عليه الامر ،وابت عليه عزة نفسه ان يعود الى بث غرامه ، فقال لها وصوته يرتجف من الغضب ، وقد ارتسم الحزن في كل معناه على جبينه : لم اكن اظن يا سيدتي ، ان في قبائل العرب فتاة يطرح المنذر ابن الحارث حبه بين يديها ، فترده الرد القبيح الذي رايت ، ولم يقم في دهني ان لك عاشقاً عاهدته على الوفاء ، ولو عرفت ، لخنقت حبي في صدري وكتمته حتى عن نفسي ،فاعذريني يا سيدتي ، اني حديث العهد في الحب ، ولا ذنب لي بل غرامي فعل ذلك بي حتى فضحت نفسي وانزلت كرامتي ، فتناسي يا سيدتي خفتي ، واعلمي اني اخذت درساً بليغاً في الحب ، فقد تعلمت الآن ان اكون كتوماً لهواي، صبوراً في مواقف غرامي فاسودت الدنيا في عيني سفانة ، وعز عليهـــا ان يعتقد المنذر انها ردت غرامه وهي لاتحيا بغير هذا الغرام، فحاولت انتنطرح على قدميه وتعترف له بما في صدرها من لوعـة وحب ، فلم يترك لها مجالاً

للقول . بل انثنى الى الباب يريد الخروج ، فنادته وقد أختنق صوتها في صدرها ، مولاي الامير .. سيدي المنذر ، ارجع لاعترف لك بحبي..

غير ان المنذر كان قد غادر المنزل وهو يتعثر بخيبته .

فاستندت سفانة الى جدار الرواق وهي باكية تندب سوء حظها وتقول : هذه اول نكبة من نكبات الغرام ...

وخرج الامير وهو لا يبصر طريقه ، ونار الغيرة تتأجج في صدره لان تصوره ان سفانة تحب غيره اضاع منه الرشد ، وكيف لا يضيع رشده وهو نفسه سمع سفـــانة تقول له : « دعني في همي واختر لك عروساً غيري » افلا يكون معنى هـذا القول انها لا تريده عاشقاً لان لها بين شباب قضاعه او شباب اليمن عاشقاً سواه ؟ .

وملك هذا التصور كل حواس المنذر ، فثار ثائره ، ولعن الساعة التي التقى فيها زهيراً وبنيه في ذلك الليل .

ومشى يريد القصر ، فاذا بجفال قد اقبل وخلفه رفاقه يحيون الامير ويشكرون له عنايته بالغريب .

فرد تحيتهم وهو يتظاهر بالابتسام ، وقال لزهير :

لستم يا سيدى غرباء ، بل انتم اصحاب البلاد ، وقد امر مولانا الملك ان يعد لكم ابن سلمة كل سبل الراحة ، ويمهد لكم اسبابها ، فارجو ان تحسبوا انفسكم بين قومكم في قضاعة لا تخالف لكم رغبة .

ثم التفت الى جفال وقال :

انك يا جفال احد خاصتنا الذين نحبهم ونثق بطاعتهم واخلاصهم ، فاكرم ابا عامر وبنيه واختر من تشاء من عبيد القصر وغلمانه ، ليقوموا

لخدمتكم ويقضوا حاجاتهم ، واجعل لركوبهم اربعة افراس من افراسنا فلقد تعبت خيلهم من كثرة المشي ، وليكن ابو عامر واولاده ، اعظم الاضياف منزلة واعلاهم مقاماً،ريثما ينظر الملك في امرهم ويرى فيهم رأيه.

ثم همس في اذنه يقول : انا بانتظارك في القصر الليلة بعد ان تنجز مهلق . واوماً الى القوم بالسلام وقفل راجعاً الى القصر

وسمعت سفانة صوت المنذر وهو يحادث اباها وابن سلمة ، وكانت قواها قد تلاشت من كثرة البكاء ، فقامت الى النافذة لتسمع حديث اميرها القاسي القلب ، فلم تسمع شيئـــاً ، فعادت الى تفريج كربتها بذرف الدموع .

ولكنها عادت الى نفسها بعد قليل،وخافت ان يدخل ابوها ورفاقه الى المنزل فجأة فيروها على تلك الحال فيفتضح امرها ، ولعلها رأت ان من العجز ان يستولي عليها هذا الضعف ، وهي لم تعرف الامير الا منذ ليلة ، فعمدت الى الماء فغسلت وجههـا ستراً لأمرها ، وهي لا تدري ان طابع اليأس الذي ارتسم على محياها ، لا يقدر الماء ان يمحوه .

ودخل القوم ، والليل في اوله ، يتقدمهم أحد الغلمان بيده سراج ، وجفال يدلهم على غرف المنزل وأروقته ومشارفه ودهاليزه، وهو منزل كبير فخم ، فرشه ابن سلمة بأحسن ما تفرش به منازل الاضياف في ذلك الزمان .

وظهرت سفانة أمام القوم بمظهر المطمئن الخليّ ، فاحسنت عشرتهم واخذت تمازح اخويها وتبتسم لهما ، وتتظاهر بالاصغاء الى حديث جفال الواقف بينهم كالخطيب يطلعهم على تاريخ المنزل ، وعظمـة الذين نزلوه

قبلهم من أمراء العرب ورؤساء العشائر .

وساعد الظلام سفانة ، فلم يستطع احد ان يقرأ في عينيها آثار الدمع لان النور كان خفيفاً ، لا تبين معه ملامح الوجوه واحمرار العيون وقبل ان يتم القوم دورتهم ، أخذ ابن سلمة يهنىء ابن جناب بالحصول على رضى الملك وهو يقول :

ان مولانا الملك ، لا يعد هذا المنزل لأضيافه ، الا اذا كانوا من اعاظم الرجال .

واحست سفانة بالحمى تحرق خديها ، فاستندت الى ذراع اخيها قيس وقالت له : اني تعبة يا اخي فأستأذن ابي في الرجوع .

وكان قيس قد سمع تنهدها المتقطع ، فعزا هذا التنهد الى تعب في جسمها من كثرة الركوب ، وهو لا يعلم ان شقيقته التي صرع جمالها معظم فتيان العرب في شمالي الجزيرة ، صرعها جمال المنذر أمير غسان ، وان الغرام رمى فؤادها فنفذت فيه سهامه

فقال لابيه : لقد استولى التعب على سفانـة يا أبي وهي تستأذنك في الرجوع . وكانت سفانة عزيزة على ابيهـا ، وهو يحبها حباً شديداً ، فسألها قائلا :

ــ بماذا تشعرين يا سفانة ؟

قالت بتعب خفيف لا يلبث حتى يزول

قال زهير ، وهو يكاد يذوب حباً

عودي يا ابنتي واستريحي ، فقد حملتك الايام فوق ما تستطيعين

فتناثرت الدموع من عيني الفتاة وقالت :

أجل لقد حملتني الايام فوق ما استطيع

- ٧ -

من غروب شمس ذلك اليوم الى الليل ، انتشرت في قصر الاميرة الاشاعات والاقاويل

فقالت الوصائف : ان ضيوفاً من قضاعة نزلوا حوران فاكرم الملك وفادتهم واستقبلهم كما يستقبل الامراء وقالت الجواري : سمعنـــا من الناس ان القضاعيين هم اضياف ولي العهد، وفيهم فتاة سمراء فتانة المحاسن خصها الامير بعنايته واحسانه

وقالت العبيد والغلمان : انها من فتيات اليمن جـــاءت لتزف الى المنذر ، وغير ذلك من الروايات تناقلها الحراس والخدم في قصر الملكة.

ولكن الاميرة لم تصدق . فتلك أحاديث الخدم . والخدم كثيرو الظنون .

غير ان هذا الاعتقاد ما لبث حتى تغير . فقد اقبلت سليمى تبكي وتقول : لقد قضي علي يا مولاتي . فـــالامير ابو كرب سيتزوج اليمنية الحسناء ...

فاصفر وجه الاميرة وقالت بغضب :

واي نبي اوصى اليك بذلك ؟

— : ان ابي ثعلبة سمع الملك يحدث ولي العهد همساً عن هؤلاء الاضياف

- : تلك عادة الحارث . يحدث بنيه ورجال مجلسه عن كل ضيف جديد ليس الامر كما تظنين يا مولاتي ، فبين الاضياف اليمنيين فتاة ردد الملك اسمها اكثر من مرة ، وهي تدعى سفانة

- واين جرى هذا الحديث ؟

- في القبة السوداء عند غروب الشمس ، ثم قال الملك للمنذر بصوته العادي :

« اذهب يا بني واوص ابن سلمة ليقوم بواجب اضيافك »

فاطرقت الاميرة ساعة ، ثم رفعت رأسها وقالت :

- عليّ باحد الغلمان

فاقبل عبدقصير القامةضخم الجثةوحنى رأسه منتظراً امر كوكب.

فقالت الاميرة : اذهب وقل لابن سلمة اني بحاجة اليه

قال العبد : وهل انتظر قدومه ؟

قالت : انتظره حتى الصباح ، لان حاجتي اليه في هذا الليل

- والتفتت سليمى تقول : انتظري قدوم الرجل وايدخل بدون اذن ثم خلعت رداءها الملكي ، واستلقت على وسائد الديباج وهي مضطربة البال .

• • •

عاد المنذر الى القصر فاختلى في غرفته ، واخذ يستعرض حوادث يومه ويستعيد حديثه مع سفانة

وكان قد امر ابن سلمة ، بان يوافيه الى القصر ومضت طائفة من الليل ولم يحضر ، فكثرت ظنونه ، وحسب لهذا الابطاء الف حساب .

وبينما هو يروح ويجيء وقد فرغ صبره ، سمع وقع أقدام ، فاطل على الباب فرأى في طرف الرواق رجلين عرف احدهما ، وهو جفال ، ولم يعرف الآخر .

فنادى قائلًا : ابن سلمة ؟

قال جفال : نعم يا مولاي .

اراك لا تذكر امر مولاك الا في آخر الليل .

فقال ابن سلمة : ان لتأخيري سبباً اذا عرفه مولاي عذر خادمه .

ومن هو رفيقك ؟

هو شقيق لي يا مولاي .

فاستغرب المنذر وجود هذا الشقيق في مثل هذه الساعة من الليل . فقال :

ألك شقيق يا جفال وتمنعه من خدمتنا ؟

ـ لقد جاء دور خدمته يا مولاي ، فأذن في الدخول .

فالتفت المنذر الى خادمه الرومي وقال: اذهب يا مالياني الى غرفتك فلست بحاجة اليك .

ثم اومأ الى الرجلين فدخلا .

واغلق المنذر باب الغرفة واشار بالجلوس وقال : يا جفال ، ارى اخاك مقنعاً كثير الحرص على وجهه ، افلا ترى اننا نستحق ان نرى هذا الوجه .

وكان المنذر يكره الحجاب ، ولا يريد ان يجالس احداً فتىً كان او فتاة ، الا اذ كان سافراً .

فقال جفال : ارجو من مولاي الامير ان يأذن له في ابقاء حجابه ريثما اروي له حكاية هذا الحجاب .

فقال المنذر لا بأس فليبقه ، فابدأ انت بما عندك .

فقال :

عندما تركنا الامير في اول هذا الليل ، اقبلت على المنزل أدلّ اضيافنا على مخابئه وقاعاته و ...

فقاطعه المنذر قائلًا : وهل كانت سفانة معكم ؟

فبرقت عينا جفال من الفرح وقال :

نعم يا مولاي ، واخذت أروي للقوم حكاية الاضياف الذين كانوا يقيمون فيه ، فاحست سفانة بتعب ونحن لا ندري ، حتى وصلنا الى الرواق الطويل المشرف على الفناء فاذا سفانة تسقط الى الارض من شدة الاعياء ، واذا هي غائبة عن الرشد .

فجحظت عينا المنذر وقال : ويلك يا ابن سلمة ماذا تقول ؟

ولكن ابن سلمة لم يسمع كلام الامير فتابع حديثه قائلًا :

فحملوها الى فراشها وقد صرعتها الحمى ، نعم يا مولاي ، ثم اخذت تهذي فكانت الالفاظ تخرج من شفتيها متقطعة مبتورة لا يفهمها السامع ونحن ننضح رأسها وجبينها بالخمر والماء والحمى تزداد ضرماً وسعيراً ،

مسكين ابن جناب يا مولاي ، فهو كثير الحزن دائم البكاء ، تنحدر دموعه فيكفكفها بيمينه ، ويمضح بها وجه سفانة ويقول : لعل دموع ابيك ترد عنك الموت يا بنية ، انه لمشهد تتفطر له القلوب يا مولاي ، وسفانة ، آه يا مولاي ، ان سفانة لؤلؤة العرب فلا تستحق الموت

فانتفض المنذر لذكر الموت ، وتجهم وجهه وقال وهو يكاد ينتزع الالفاظ من حلق ابن سلمة

– قل يا جفال ماذا جرى بعد ذلك ؟

فعرف ابن سلمة عندئذٍ ، ان الامير يحب سفانة ، وهذا ما أراد ان يعرفه ، ثم قال :

وباتت سفانة تهذي ، ونحن نعالجها بالخمر والماء حتى نامت

فقال الامير : ثم استفاقت وقد صحت من الحمى ، أليس كذلك ؟

– لا يا مولاي ، بل عادت الى الهذيان ، ولكن هذيانها هذه المرة كان مقتصراً على كلمة واحدة ، تتردد في حلقها ، ثم تمضغها ، ثم تقذفها من فمها قذفاً فتبدو على شفتيها اسماً عذباً يردده كل فتى في غسان هو اسم المنذر يا مولاي ...

فبغت الامير ، ثم ملك نفسه وقال : انه هذيان محموم ،

وهل انت واثق ؟

لقد رأت عيني ، وسمعت اذني ، فعزا القوم هذا الهزيان الى فعل الحمى ، اما انا فقد رأيت غير ذلك

– وماذا رأيت ؟

– رأيت يا مولاي، ان حباً تغلغل في صدر سفانه فارادت كتمانه ، فباحت به الحمى وهي لا تدري ولا تريد ، قتل الله الحمى يا مولاي انها فضاحة الاسرار

فابتسم المنذر وقال : لقد اصبح ابن سلمة نبياً يفسر الاحلام

لا يا مولاي ، لست بنبي ، ولكني رأيت سفانة ، وهي في ذلك الاتون الحامي ، تلفظ شفتاها اسم المنذر وهما تبتسمان ، فعرفت ان هذا الابتسام ، ابتسام قلب لا ابتسام شفتين

فاراد المنذر ان يضع حداً لتصور ابن سلمة وفلسفته ، وكان قلبه يخفق من الفرح والخوف، فقال : أراك تلقي عليّ درساً في الغرام وهذا ما لا اريده ، اريد ان تعجل في حكايتك ولا تنهج معي نهج الشعراء فخاف جفال ان يثير غضب الامير ، فاختصر خطابه وقال :

غادرت القوم وسفانة فاقدة الصواب ، وجئت أقترح على مولاي اقتراحاً :

– وما هو هذا الاقتراح ؟

– هو ان تبعث الى القوم بفتاة تحسن تمريض سفانة وتعتني بها قبل ان يستفحل الداء

– انه لرأي لا بأس به ، ولكن ، هل تجد بين جواري القصر من تصلح لهذه الخدمة ؟

ان الفتاة التي اخترتها هي بين يديك يا مولاي

واوماً الى رفيقه المحجّب ، فسفر ، فاذا هو فتاة حسناء فمن تكون؟

قال جفال : ليلى بنت سلمة يا مولاي

- أشقيقتك هي يا جفال ؟

- نعم يا مولاي ، وقد احضرتها معي في مثل هذه الساعة لنستأذن الامير فتنصرف هي الى خدمته في تمريض الضيفة الحسناء

فقال المنذر لليلى : أتعرفين يا ليلى ان الامر الذي تنصرفين اليه امر مزعج خطر تكون فيه حياة الفتاة المريضة بين يديك ؟

قالت ليلى : اعرف هذا يا مولاي ، والاتكال على الله

فوقف الامير وقال: انه لاخلاص لا أنساه، قوماً ، فانا ذاهب ايضاً

واستأذنت ليلى ، فسدلت حجابها لئلا يشتبه بها الحراس وسار الثلاثة الى منازل الاضياف

• • •

قرع جفال باب المنزل ففتح له جندل أحد العبدين ، فقال له :

قل لمولاك ان الامير المنذر يريد ان يراه

فغاب العبد لحظة، ثم أقبل زهير وولداه يستقبلون الاميرفقال المنذر:

أخبرنا جفال ان سفانة اصابتها الحمى، فانشغل بالنا ، وجئنا لعيادتها، افتسمحون لنا بذلك ؟

فقال زهير :

ان المنازل واصحابها في غسان ملك الامير ، أفيريد مولاي ان يستأذن عبيده في الدخول الى منزله ؟

قال المنذر : اذن ندخل مع ليلى بنت سلمة ، التي ارادت ان تعالج سفانة وتعتني بها ، فكيف حال سفانة الآن ؟

— : انها احسن حالا يا مولاي ، ثم قال ، ومن اكون انا ومن هي سفانة ، حتى يأتي مولانا الامير لعيادتها في مثل هذه الساعة ؟

هذا واجب الامير تجاه أضيافه

ثم دخل وتبعه القوم

وكانت سفانة نائمة ، وقد بل العرق ثيابها وفراشها ، فجلست ليلى عند رأسها تتفرس في جمالها الساحر وعينيها المغمضتين والسكون مخيم على القوم لا يسمع في تلك الغرفة غير تنفس سفانة الهادىء وتنهدها من حين الى حين

وكأنها كانت تحلم حلماً متقطعاً ، فكانت الابتسامة تظهر على ثغرها ثم تختفي

ثم فتحت عينيها فجأة ، فرأت ليلى ، فتمتمت تقول بصوت ضعيف :

أين انا . . .

فاقبل ابن جناب والدمع يجول في عينيه ، ووضع يده على جبينها وقال :

انك في حوران يا سفانة ، في المنزل الذي اعده الامير لنزولنا ، وهذا مولانا المنذر جاء في هذا الليل يسأل عنك وقدمت معه ليلى بنت سلمة للعناية بك والسهر عليك

فرددت سفانة كالولد الصغير ، مولانا المنذر ، مولانا المنذر

ثم قالت : ومن نقل اليه اني مريضة ؟

: ان ابن سلمة هو صاحب الفضل في ذلك

فتململت سفانة في فراشها – وارسلت نظرها تتبين الحاضرين فرأت المنذر جالساً في صدر القاعة ، والى جانبه جفال واخواها عامر وقيس

فتنهدت تنهداً طويلاً ، ورفعت رأسها بتعب وقالت :

اجل انه مولانا الامير ...

فاضطرب الامير، واشتد خفقان قلبه، واقبل نحوها وقال : مرحباً يا سفانة ، كيف انت ، انه عارض ويزول انشاء الله

فقالت : نعم يا مولاي ، انه عارض ... ولكنه مؤلم شديد ...

فعرف المنذر انها تعرّض بحادثته معها ، فقال :

لا بأس يا سيدي ، كان مؤلماً شديداً وقد زال ...

قالت : ان العناية التي يحوطني بها مولاي الامـــير ، تقودني الى العافية فالشكر لك يا مولاي ، انها عناية أطبعها في قلبي ولن أنساها ..

وهكذا تفاهم العاشقان ...

ومدت سفانة يدها الى ليلى وقالت : اسأل مولاي الامير ان يكافئك عني ، فانا عاجزة غريبة لا املك من وسائل المكافأة غير العواطف

فقال المنذر : ان العواطف اثمن من الذهب ... وقالت ليلى ، نحن فداك يا سفانة ، وحسبنا رضى الامير

وقبل ان يبزغ الفجر ، عاد المنذر وابن سلمة الى القصر

ونامت سفانة ملء جفنيها وليلى الى جانبها وقد تعاهدا على الاخلاص والوفـــاء .

• • •

وكان جفال خفيف الروح ، وفيه دعابة ومجون

فلما وصل الى غرفته ، رأى عبداً ضخم الجثة واقفاً على عتبة الباب ، ويكاد لضخامته يحجب الناس عن العيون

فقال في نفسه : هنيئاً لك يا ابن سلمـة ، فقد اصبحت ملكاً تحرس العبيد في الليل غرفة نومك

ثم صاح بالعبد قائلًا : ماذا تفعل هنا ايها العبد

فتقدم العبد وقد احمرت عيناه من النعاس وقـال : انتظر قـدوم جفال بن سلمة

انا هو ابن سلمة فمن انت ؟

— : رسول الاميرة اليك

— : شقيقة مولانا الملك ؟

— : نعم يا سيدي ، وهل في غسان اميرات غير شقيقة الملك وبنت الملـــك ؟

فقال جفال : صدقت ايها العبد انك لمتوقد الذهن قوي الذاكرة ثم تمتم قائلًا : أجل ان في غسان اليوم اميرة اعظم من شقيقة الملك وبنت الملـــك

ثم قال : وماذا تريد الاميرة ؟

ـ : لا ادري ، فهي تريد ان تسير اليها في هذا الليل

ـ : في هذا الليل وقد بزغ الفجر ؟

: نعم وها انا بانتظارك

فهز جفال رأسه وقال : ومن يدري ، فلعل مولاتنا الاميرة لا يغمض لها جفن حتى تراني

• • •

وبينما جفال ينتظر الاذن في الدخول ، اقبلت سليمى بنت ثعلبة وقالت له : اهلاً بابن سلمة ، ان الاميرة لم تنم بعد .

قال جفال : ليتها نامت يا سيدتي ولم تبعث الي بعبدها العريض الكتفين يمنعني من الدخول الى غرفتي ... اتراها بعثت تدعوني في هذا الليل الى مجلس الشراب ؟ ...

فضحكت الفتاة وقالت : لا بأس يا جفال ، فهي كلمة تقولها لك ثم تعود .

قال : كنت احسب انها تقولها ثم انام ...

فارتفع صوت سليمى بالضحك ، وسارت امام ابن سلمة الى قاعة الجلوس ودخل الاثنان ...

وكانت رائحة المسك والطيب تملاء القاعة ، فتنبهت اعصاب جفال وانحنى امام تلك اللبوءة الفتانة وقال :

هذا هو ابن سلمة بعينه يا مولاتي ، فماذا تريدين ؟

فافتر ثغر الاميرة عن ابتسامة خلابة وقالت :

لاجلك يا بن سلمة احيينا الليل كله ، فكيف انت ، وكيف حال اضيافك ؟

قال : وما ذنب الشقي ابن سلمة اذا كانت مولاتنا الاميرة لا تطيق النوم قبل ان تراه ؟ ، واما حالي ، فحال رجل يشقى في نهاره ، وتمنعه العبيد في الدخول الى منزله ...

واما الاضياف ، قتل الله الاضياف يا مولاتي ما اكثرهم ...

من نجد ، والبحرين ، والحجاز ، وتهامه وفلسطين ولبنان ، فيهم عشر نساء معظمهن عجائز ... هذه في الخمسين والاخرى في الستين ، وليس فيهن غير فتاة وجهها مثل قلب الصباح ،

قالت : اهي ليلى بنت حارثة ؟

فردّد ابن سلمة ، ليلى بنت حارثة .. ليلى حارثة .. ثم وقف .

فضحكت الاميرة وقالت :

مسكين ابن سلمة ، فقد أصيب بالخرف .

قال : اجل يا مولاتي ، تلك آخرة رجل يقف من طلوع الشمس الى بزوغ الفجر ، ثم يجرونه جراً الى قصر الاميرة فلا يؤذن له في الجلوس .

فاستلقت الاميرة من الضحك ، وهي تعيد كلمتها الاولى : مسكين فقد أصيب بالخرف .

ثم استوت جالسة وقالت : اجلس فقد اذنّا لك ، وهذه وسادة من ديباج فيها رطل من ريش النعام تجلس عليها ثم نحسن بها اليك .

فاخذ ابن سلمة الوسادة فجعلها بين يديه وبقي واقفاً ،
فقالت : ناذن لك في الجلوس على وسادةٍ من ديباج فلا تفعل ،
أفليس عملك هذا من دلائل الخرف ؟
قال : احلف اني لا اجلس عليها الا في مجالس الشراب ،
قالت يا سليمى ، قولي لاحد العبيد ان يسقيه ،
قالت : بئس الشراب من يدي عبدٍ كبير البطن غليظ الشفتين .
قالت يا سليمى اسقيه .
قال : انه لصباح مبارك ان شاء الله ، الا تعلمين يا مولاتي ، ان الخمر تقوي الجنان وتحل عقدة اللسان وتمنع الخرف والنسيان ؟
ثم أخذ يشرب ، فقالت ،
اذاكر انت الآن اسماء اضيافك ؟
ـ : نعم يا مولاتي
ـ : اذن نعود الى حديثنا الاول ، فمن هي الفتاة ؟
ـ : انها فتاة من قضاعة لا تتجاوز السادسة عشرة من العمر واسمها سلامة
ومن هم رفاقها
: ابوها واخواها ومعهم عبدان
ـ : اراك عدت الى ذكر العبيد ،
ـ : نعم ، ولكنها من جنس آخر ، من جنس آخر ...
ـ : امن البدو هي ام من الحضر ،

: والله يا مولاتي أكاد اقول لك انها من الفردوس ،

فتأججت نار الغيرة في صدر سليمى وقالت :

ألى هذا الحد يا جفال ؟

قال : بل ليس في الجنة من يماثلها في الجمال ،

فاومأت كوكب الى سليمى تأمرها بالسكوت، ثم قالت : واين تقيم ؟

ــ : في المنزل الكبير الخاص برؤساء العشائر والامراء ،

ــ : اذن فالقضاعيون متمعون برضى الملك قبل ان يقابلوه .

ــ : لا اعلم يا مولاتي فا-ألي الملك .

ــ : وكيف لاتعلم وانت قائم بامر الاضياف ؟

ــ : ليس من شأني ان اجادل الملك في افكاره هو أراد ان يشرف القضاعيين برضاه ففعل ،

وتناول كأسه فجرع جرعتين وهو يقول :

لقد ثقل رأسي يا مولاتي فلا ادري ايعاودني الخرف ام هو النعاس يدب الى جفني .

فقالت الاميرة في نفسها : لقد بدأ بالهذيان ، اسقيه يا سليمى اسقيه .

فملأت سليمى الكأس ابن سلمة يبتسم ابتسام السكارى .

ثم قالت سليمى : اي شيء احب اليك يا جفال ، الفتاة القضاعية ام الخمر .

قال : ان جمال سفانة يفعل في النفس ما لا تفعله الخمر ، عيناها تخدران الاعصاب ، وجمالها يخلب الألباب ، وحديثها الذ من الشراب ،

اعطيه يا سليمى ... فابن سلمة يحب الجمال ، كما يحب وسائد الديباج مشلوعة بقبضتين من المال ...

فقال الامير : اعطيه يا سليمى قبضتين ، واعلم يا ابن سلمة ، انه لو كان لنا من المال ما لاخينا الملك ، لملأنا لك هذه الوسادة درّاً وذهباً ، ومع ذلك فاذا كان احساننا اليك قليلًا فحبنا ليس بالقليل قل يا جفال متى يأذن الملك لاضيافك القضاعيين في المثول بين يدية ؟

قال : ذلك امر لا اعرفة يا مولاتي فسلي ولي العهد .

— : وأي شأن لولي العهد باضياف الملك

— : ان القضاعيين هم اضياف ولي العهد لا اضياف ابيه

= : وكيف قلت انهم اضياف الحارث ؟

— : معنى ذلك ان ولي العهد هو الذي نقل الي امر الملك .

فبدرت من سليمى بادرة حدة ، فقال وهمست في اذن الاميرة للول : لقد صحت الاشاعة يا مولاتي

وكان همسها عالياً فسمعه جفال ، فقال في نفسه : لاثنتين غرض واحد تدوران حوله ، فشقيقة الملك تشتغل لحساب الوصيفة والوصيفة عاشقة فهنيئاً لك يا سيدتي الامير ، انك تجرع الغرام كما يجرع ابن سلمة الخمر ، فاشرب يا ابن سلمة ، ان الخمر تذهب بالعقل ولكنها لا تذهب بالسمع

ثم جرع جرعةً اخرى وقال : ان ساعة واحدة من النوم الآن ، ابيعها بروحي ، نعم يا مولاتي الاميرة ، ابيعها بروحي .

فظنت الاميرة ان ابن سلمى صرعه السكر فقالت : وهل رأى ولي العهد اضيافه القضاعيين ؟

ـ : نعم يا مولاتي وهو يعرفهم من قبل

ـ : كيف تقول ذلك والمنذر لا يعرف ارض نجد

ـ : رآهم في السهــــل قبل ان تطأ اقدامهم ارض حوران فوقع في الشرك ...

ـ : اي انه أحب سفانة

: ليس ذلك حباً يا مولاتي بل عبادة

ـ : ارآك يا ابن سلمة مطلعاً على أسرار ولي العهد

ـ : نعم قولي العهد لا يحسن الكتمان ، اي ان عينيه تبوحان بالحب قبل ان يبوح به اللسان ..

فملأت الغيرة قلب سليمى وطفحت عيناها بالدموع

ثم فكرت الاميرة قليلاً وقالت : انصرف يا ابن سلمة فقد اتعبناك ولم تكن ليلى بنت حارثة بين الاضياف

فنهض جفال وهو يتمايل من السكر ويقول، اذا اشتد عـــلي « الخرف » جعلت وسادتي تحت رأسي ونمت في الرواق

ولما وصل الى الرواق الطويل المؤدي الى القصر الابيض ، خلع وشاح السكر وقال :

ان الاميرة ناعمة داهية ، ولكن ابن سلمة أشدها ، فلتشتغل لحساب سليمى وانا اشتغل لحساب المنذر ، ثم نرى لمن يكون الفوز

وعندما طلعت الشمس، مشت كوكب الى القصر الابيض، ومشت خلفها وصائفها يمسكن أذيال روائها الملكي

وقالت احدى الوصائف لحاجب الحارث ، ان مولاتنا الاميرة تريد ان ترى الملك

فقال : ان شقيقة مولانا الملك لا تستأذن

ثم تنحى عن الباب وفتحه وقال :

ادخلي ايتها الاميرة

فدخلت كوكب وانصرفت الوصائف الى قاعة الانتظار

وكان الملك يتمشى في قاعة الجلوس، وقد بدا الهم على وجهه ، وبين يديه ثلاثة من قواد الجيش

فلما رأى اخته ، أومأ بجدة الى قواده فخرجوا ، ثم قال :

ان اختنا لا تزورنا في مثل هذه الساعة الا لامر خطير، فماذا جرى؟

قالت : ليس الامر خطيراً يامولاي ولكني أردت ان اسألك سؤالاً

— : قولي

— : سمعت ان الملك يريد ان يزوج ولي العهد

فقهقه الحارث ضاحكاً وقال : النساء دائماً نساء .. افلا تعلمين يا كوكب من قبل اني اريد ان ازوج ولي العهد واخاه جبلة ؟

قالت : اعرف ذلك ولكن الامر اليوم غيره من قبل ، فقد قيل لي ان الملك اختار للمنذر عروسه

قال : صدقيني يا اختي ان الفرق بين النساء والرجال قليل ، الرجال

يهتمون للحرب والنســـاء تشغلن امور الزواج ، ومن هي الفتاة التي اختارها الملك ؟

ـ : فتاة قضاعية قدمت جوران امس

ـ : اراك تشيرين الى سفانة بنت زهير بن جناب

ـ : نعم هي التي أردت

ـ : اني لم أرَ بعد هؤلاء القضاعيين

ولكن المنذر رآهم واستقبلهم كما تستقبلون الامراء

ـ : افلا يحق للمنذر ـ وهو الملك بعد ابيه ـ ان يستقبل الاضياف النازلين علينا بما يستحقون ؟

ـ : قد أحب سفانة حباً يتحدث به رجاله

ـ : كذلك يستطيع المنذر ان يحب من يشاء

ـ : أيريد الملك ان يقول ان ولي عهده حر في اختيار زوجته ؟

ـ : ان ولي العهد حر في حبه ، ولـــكنه لا يتزوج الا برضاي ، ومعنى ذلك ان المنـــذر بصفته فتىً في الثانية والعشرين من عمره ، يستطيع ان يحب الفتاة التي يريـد ولكنه لا يستطيع بصفته ولي عهد الملك ، ان يتخذ زوجةً له الا الفتاة التي يريدها ابوه

: هب ان المنذر احب سفانة وارادها زوجة له ، فماهو رأي الملك؟

ـ : عندما يسألنا المنذر رأينا في زواجه ، نستشـير شقيقتنا صاحبة الرأي الطادق ، فافترضي يا كوكب ان المنذر اراد القضاعية زوجة له ، فما يكون رأيك انت في هذا الزواج ؟

— : انصح له بالعدول عن عزمه

— : ولماذا ؟

— : لانه لا يعرفها من قبل ، ولأنهـــا غريبة عنا تجهل اخلاقنا وعادات شعبنا

اجل ان العرب جميعاً متشابهون في العادات ، ولكن القضاعيين قوم اجلاف كما يعلم الملك ، ومن الخطأ في الرأي ، ان تكون الملكة غريبة عن غسان

فابتسم الحارث ابتسامة دهاء وقال :

ان امنا يا كوكب ، من بني سعد ، وليست من الغسانيين

— نعم ، غير ان بني سعد كانوا عوناً لأبينا جبلة في حروبه

— : هذه آراء ضعيفة لا تقنع العاشقين ، فقولي لي الآن ، من هي الفتاة التي تليق بولي العهد ؟

— لا اعلم

— كيف لا تعلمين وانت قادمة لهذا الغرض ؟ اني احب الصراحـة ايتها الاميرة واكره الجدال ، فاذكري اسم الفتـــاة التي تحبينها والتي تريدينها زوجةً للمنذر

قالت : ان الملك ادرى بالفتاة التي تليق بولي العهد

— بل ان الملك ادرى بخاصته واهل بيته ، فهو يعلم ان شقيقته لا تقدم عليه في مثل هذه الساعة الا لغرضٍ ارادت كتمانه ففضحه الحارث

— : ما هو هذا الغرض يا مولاي ؟

ـ : هو أن تمنعي المنذر من ان يتزوج سفانة

ـ : ولماذا؟

ـ : لانك تريدين ان تزوجيه احدى الوصائف

فاحمر وجه الاميرة من الخجل ولم تجب

واستطرد الحارث فقال :

فلنتكلم بالصراحة الآن ، فمن هي الوصيفـــة التي تصلح في نظرك لتكون ملكة

فترددت قليلاً ، ولكنها لم ترى بداً من الجواب فقالت : اصغرهن سناً واطيبهن قلباً ، سليمى بن ثعلبة

ـ : ومن قال لك ان المنذر يحب القضاعية ؟

ـ : سمعت عبيد القصر يتحدثون بذلك

ـ : بل قولي رجال القصر فهم كالغلمان ينقلون الكلام .. ومع ذلك ، اتظنين ان سليمى افضل من سفانة .

ـ : لا ادري يا مولاي لاني لا اعرف هذه الفتاة ، ولكن سليمى حسنة الشمائل ، وبنت امير يمشي في ركابك الى ساحات القتال

فهز الملك رأسه وقال : وزهير بن جناب اتعرفينه ؟

ـ : لا يا مولاي

ـ : انه سيد من سادات قضاعة ، عرف بشدة بأسه ولقبوه بالكاهن لجودة رأيه[1] وقد كان عاملاً لملوك اليمن على شمالي الجزيرة

---

(١) العرب قبل الاسلام

ـ : وانت هل تعرفه يا مولاي ؟

ـ : لا ، ولكن تقدمته شهرته الى حوران ، ونقـــل اليّ الرواة والشعراء وما يعرفونه عنه

ـ : اراك تميل يا مولاي الى القضاعيين وانت لا تعرفهم

ـ : كما يميل الناس الى مشاهير الرجال ، ولكني لا اعلم الآن ، اذا كانت اخلاقهم تقوي فيّ هذا الميل ام يكذب الخبر الخبر

ـ : ومتى يأذن الملك لهم ؟

ـ : غداً ، واعلمي ان للملك نظراً سياسياً لا تدركه عقول النساء فهو يرغب اولاً في ان تكون زوجة ولي العهـــد غريبة عن غسان ، العلمين لماذا ؟

فبذلت الاميرة جهداً عنيفاً فيخبط عواطفها وقالت : لا يامولاي ،

ـ : كان يجب عليك وانت الاميرة في اسرة الملك، ان تعلمي لماذا،

ـ : انه لتوبيخ يا مولاي

ـ : نعم ، فلا تدعي الملك يتجاوزه الى اللوم

فـامتقع لون الاميرة ، وخافت ان تملك الحدة الملك فتسوء العاقبة فقالت وعيناها دامعتان : اني لا افهم ما تقول يا مولاي

وهذا ما يدعوني الى التوبيخ الذي تسمعين

ثم خطـا الملك خطوتين ، فجلس في صدر القاعة على سرير ملكه ، وأومأ اليها بالجلوس الى جانبه وقال وقد برقت عيناه

الا تعلمين يا كوكب ان الرئاسات في العشائر كانت بالوراثة ؟

: نعم اعلم ذلك

— : وان اباك الملك ولىّ رجـــاله بعض هذه الرئاسات فـأغضب أصحاب الحق

— : نعم

وان اخاك الحارث الذي يحدثك الآن ، خـالف اباه في الرأي فرد هذه الحقوق الى أصحابها ؟

— : نعم

— : أتعلمين الان لماذا فعلت ذلك ؟

— : رأيتهم يا مولاي اهلًا لتولي الرئاسات فوليتهم

فضحك الملك وقال :

انك خبيرة بفنون القتال والدلال ، ولكنك لا تعلمين شيئــاً من سياسة الملك ، اسمعي لماذا

عندما كثر الغسانيون بتوالي الايام ، وبعد صيتهم وانتشر نفوذهم لجأت الى ملوكهم قبائل كثيرة يرث الابن فيها حق ابية في الامـارة ، وتخضع كلهــا ، مع بطون الغسانيين ، لملك واحد من سلالة جدنا الاول جفنة بن عمرو ، وتجتمع في الحرب تحت لوائه

وكانت القبيلة منهــا ، على عادة العرب في الغزو ، تغزو الاحياء وتهاجم الاعداء ، فتقتل الرجـال وتسبي النساء وليس للملـك في ذلك رأي او علم حق ان الاسلاب كانت ملكاً للغازي فلا يدفع لبيت المال الا الخراج وهو قليل

فقويت شوكة العشائر ، وطمحت نفوس رؤسائها الى مراتب الدولة فولاهم اجدادنا اعمالهم ، وجعلوهم اخص رجال البلاط ، يشاركون الملك في الرأي وقد يخالفونه فيه ، وخلف كل رئيس عشيرته وقومه ينتصرون له عند الحاجة بقوة السيف

فنشأ بين الفريقين نزاع تنشره الحوادث وتطويه ، حتى تولى ابونا جبلة فقوى ضعفائهم ، واضعف اقويائهم ، وساعدته حوادث ايامه فبدّل ما بدل من حقوقهم وعاداتهم

غير انه لم يحسن التدبير ، فان النزاع اشتد ، والرؤساء الذين اضعفهم لعزهم الموروث ، فنهضوا يطالبون بالحق الذي سلبهم اياه

فـلان لهم الملك ، واعاد بعضهم الى بلاطه ، والبعض الآخر الى قيادة العشائر

قالت الامير : اتأذن لي في كلمة يا مولاي ؟

قولي ماتشائين

– تقول ان ابانا الملك اخطأ في تدبيره فمن اي وجهٍ كان هذا الخطأ؟

قال: ان الامارة في عشائر العرب تنتقل بالوراثة كما ذكرت، فكأن ابي عندما أبطل حق الوارث في العشيرة ، ابطل في الوقت نفسه حق سلالته في الملك ، وكما انه جعل الرئاسات مشاعاً للناس ، كذلك جعل العرش مطمحاً للطامعين

وماذا افادنا استبدال الامراء بافرادٍ من العامة ؟ انه اوجد نزاعاً مزدوجاً بين العشائر ، وخلق للعرش اعداءاً يفضي لغضبهم بضعة عشر الفاً من الرجال ،

ثم ظهر الغضب على وجه الملك ، وضرب بيده على السرير وقال انظري كوكب الى هذا السرير ، فلولاي لسقطت قوائمه . وهوى الملك الجالس فوقه يتعثر بالفشل والذل

لقد كثرت حولنا اصحاب الحقوق يا كوكب . الرؤساء اصحاب حق والضعيف ابطرته نعمة الملك فادعى ان الرئاسة من حقه . فاصبح الملك بين فئتين قويتين . تتنازعان المراتب والرئاسات . وكاد يفضي تنازعهما اكثر من مرة الى تحطيم عرش الغسانيين

ثم ماتت جبلة، فرأى ولي عهده . وهو في الثلاثين من عمره . ان رؤساء العشائر والامراء الذين حوله . اكثر نفوذاً منه . وأبعد اثراً واوسع سلطاناً . لهم القوة والمال والمراتب والجيش. وله البلاط والخدم والخيل والعبيد . فدعاهم اليه في وضح النهار الى القاعة التي نحن فيها الآن وقال :

يا معشر الامراء والرؤساء . لقد توليت الملك بعد ابي ، وانا اعلم ان لي الامر وعليكم الطاعة . قالوا نعم . قال : ولا اريد ان اعرف ان في غسان اميراً او رئيساً الا الذي يوليه الملك من جديد . فنظر بعضهم الى البعض الآخر وساد السكوت . فقال : فمن سمع لنا فله علينا العهد والحماية . ومن لم يسمع فليس بيننا وبينه الا الحرب . ثم قال : الغريب في حوران . له من الحق ما للغسانيين انفسهم . وليس عند الملك كبير وصغير فالكل في جانب الحق سواء . والويل لغني يستبد بفقير وقوي يستأثر برزق الضعيف . ان الملك في غسان فوق الجميع . لا يجرد سيف

من غمده الا باذنـــه . ولا يسرج فرس لغزوِ الا بامره . وكل غنائم الحرب والاسلاب تحفظ في بيت الملك والملك يعطيها من يشاء .

ايها الامراء ، ليس فيكم من هو افضـــل من الآخر الا بالطاعة . فكونوا للملك اولاداً يكن لكم اباً . واعلموا ان الاعمـال تحتاج الى الرجال . فسأختار منكم اصحاب البأس أصحاب الرأي فاجعلهم عمـالاً وقواداً ورجال مشورة يخدمون الملك . ويقودون رجال العشائر الى السكينة والسلام . فمن اطاع فليبق ومن لم يطـع فقد امهلته ثلاثة ايام ليرحل . والا فبتربة جبلة لآخذون حقي بحد السيف فانا قـــد خلقت الحرب قبل ان اخلق للعرش . قوموا الآن فانصرفوا .

فخرجوا وقد ملأ قلوبهم الخوف

أفلا تعلمين يا كوكب اي ملك من الغسانيين فعل هذا ؟

هو انت يا مولاي

أجل . فأعدت الوراث الى الرئاسات . وجعلت رجـــال العشائر والغسانيين جيشاً واحداً يسوده في الحرب نظـــام واحد . ونظمت مراتب القيادة . وحكمت السيف في رقاب الطامعين . فثبت العرش ، واستقـــامت امور الملك . واختفت اصوات المتذمرين . اتسمعين يا كوكب ؟

ـ نعم يا مولاي

قالت ذلك وهي لا تعلم ماذا يريد الملك من قص حكايته

ثم قال . فلمـا وطد الملك دعـائم عرشه ، انبرى واحد من صلب جبلة يريد ان يزعزع اركان هذا العرش

فبغتت الاميرة وقالت . ومن هو يا مولاي ؟

هو الاميرة الغسانية كوكب اخت الملك

فاصفر وجه الاميرة وتراجعت الى الوراء وهي تقول .

انا أزعزع اركان عرشك، وكيف ذلك ؟

قال : ان سليمى التي تريدينها زوجة للمنذر هي بنت ثعلبة ، وثعلبة رئيس عشيرة هنب اقوى العشائر واشدها، فأذا اصبحت سليمى ملكة، تسابق بنو هنبٍ الى البلاط واستولوا على المراتب ، فتعود العشائر الى النزاع ، ويدب الضعف من جديد الى الملك وقد يسقط عن العرش

فتجلى للاميرة عندئذٍ دهاء الملك ، وايقنت ان املها قد خاب ، وان سليمى لن تتزوج ولي العهد ، فتظاهرت بعدم الاهتمام وقالت .

ولكن المنذر قوي الأرادة يا مولاي فلا تضعف له عزيمة ولا يلين لرجال البلاط

ـ انه لكذلك ، ولكنه اصدق عزيمة من ابيه ، فقد تعبت كثيراً ، وتذرعت بالدهاء والحيلة كما تعلمين ، حتى أرضيت اخوالي بني سعد وابعدتهم عن العرش ، انهم كانوا حول اختهم الملكة ، كما سيكون بنو هنب حول سليمى اذا هي أضحت ملكة الغسانيين

ـ وكيف تكون الحال يا مولاي اذا تزوج المنذر بنت زهير ؟

ـ ان القضاعيين ثلاثة اشخاص ، ليس لهم في حوران عشيرة وليس عندهم قوة ، فاذا تزوج المنذر سفانة ، كان الثلاثة بحكم الاضطرار عوناً

الملك لا يطمعون بالدولة ولا يخشاهم الملك على عرشه ؟ أفهمت الآن لماذا لا يريد الملك ان يتزوج ولي العهد فتاةً من غسان ؟

— . واذا كانت القضاعية لا تصلح لولي العهد ؟

— . منعنا المنذر من ان يتخذها زوجةً له

— . سترى يا مولاي انها بدوية لا تصلح للقصور. نعم اني أتصورها جميلة الوجه ، والجمال يخلب لب الفتيان . ولكني اعتقد من جهة أخرى. انها مثل اولئك البدويات اللواتي نراهن في حوران والبلقاء يركض وراء النوق

— . ليس لنا ان نقول في ذلك كلمة قبل ان نراها . وعلى كل حال دعينا من سليمى فلا حظ لها عندنا . ولا أريد ان اسمع شيئاً من هذا بعد الآن . اجل انها من بنات الامراء . ولكنها تستطيع ان تحب غير المنذر فارادة الملك في ذلك لا تتغير . فعودي الى قصرك الآن . ولا تجعلي للطامعين من وراء الغرام ، سبيلًا الى العرش . قومي وافعلي كما تفعل بنت اخيك حليمه فهي تقيم في قصر الملك لاتهتم لمثل هذه الشؤون، ولا تخرج منه الا للصيد او للسباق، ومع ذلك، فاذا رأيت ان تحضري غداً مجلس الملك مع الاضياف فانا اسمح لك

— : انا لا أهتم لجميع الاضياف يا مولاي . ولكني أحب ان أرى هؤلاء القضاعيين

— . اذن تحضرين مجلسنا غداً بعد الظهر

ثم نهض فنادى حاجبه وقال .

قل للقواد ان يدخلوا

وخرجت الاميرة الى الرواق . فاذا الوصائف ينتظرنها فيه . فمشت بينهن الى قصرها وهي تفكر بسياسة الملك ودهائه

• • •

ولما وصلت الى القصر صرفت وصيفاتها وقالت لسليمى :

افتحي قاعة الجلوس يا سليمى وأعدّي فيها المسك والطيب ثم خلعت رداءها وقالت :

- حاولت ان آخذ رأي الملك في الامر فأسمعني ما لا أحب

- : وهل ذكرت له كل شيء يا مولاتي ؟

- : نعم وكأني لم اذكر شيئاً لانه لا يحب ان يسمع فتساقطت دموع سليمى وقالت :

- اجـــل ، انه لا يحب ان يسمع ان فتاةً في قصره تطمع بحب ولي عهده

ان الملك لم يقل شيئاً من ذلـك . ولكنه لم يرد ان نحدثه بامر الزواج في زمن يستعد فيه للحرب . فلما ابديت له رأيي قال. ليس من شأن الملك أن يرغم ولي عهده عـلى الحب ، ولكنه ينصح له ان يختار الفتاة التي تليق بالعرش . فاذا احسن الاختيار رضي الملك والا رفض .

- : اذن فقد انقضى الامر يا مولاتي . لان ولي العهد اختار سفانة

- : من يعلم فلعلها اشاعة كاذبة . ومع ذلك فاذا اختارها ولي العهد فقد بقي رضى الملك . وليس رضاه بالامر الهين . ان الحـــارث كثير

الدهاء قوي الحجة . فاذا حدث احداً وبدا له عجزه . انف منه وحول وجهه الى سواه . وكثيراً ما كان يطرد محدثيه من اعيـــان العرب والامراء لهذا السبب . لقد قـال لي انه سيقابل اضيافه غداً بعد الظهر فيسمع لهم وينظر في حـــاجاتهم ، افتظنين انهم يحسنون القول بين يدي الملك

— : لا اعلم يا مولاتي لاني لم احضر مجلس الحارث

— : انـــه لموقف كثير الخطر يا سليمى ، يرى المرء نفسه في قاعة فسيحة الجوانب بين امراء البلاط ورؤساء العشائر وقـــواد الجيش ، والملك على سريره تحفه العظمة والجلال ، فتملأ الهيبة قلبه ويتلعثم لسانه. اني بنت الملك واخت الملك ولكني عندما اقابـل الحارث في مجلسه ، يرتجف صوتي وتملـك الروعة نفسي ، فمن اين لسفانة البدوية ان ترضي الحارث في خشونة البداوة وغرابة الاخلاق ؟

— : ومن ينقل الينا موقف القضاعيين في مجلس الملك ؟

— : انا ، لان الملك اذن لي في الحضور ، وهي اول مرة يأذن فيها الملك للنساء في حضور مجلسه

— : واين تجلسين ؟

— : لا اعلم الآن ، ولكني افضل الجلوس وراء ستر في زاوية من زوايا القاعة ، فأرى الجميع واسمع كل ما يقال

— : وهل يحضر الامير مجلس ابيه ؟

— : اجل ، فيجلس عن يمينه ، ويجلس جبلة عن شمـــاله مع اخيه الحارث وفي الجانبين الامراء والخاصة والقواد

ـ : ولكن الملك قد ينفرد بالقضاعيين فلا يكون في مجلسه احد .

ـ : قد يكون ذلك ، ولكنه لا ينفرد بهم الا بعد ان يقابلهم مع الاضياف مجتمعين .

ـ : وهل يقابل الرجال والنساء في وقت واحد ؟

ـ : لا شأن للنساء مع الملك فهو يقابل الرجال وحدهم ، ولكنه سيقابل سفانة لان المنذر نقل اليه شيئاً عنها على ما اظن . هذا ما ظهر من حديث الملك ولو لم يرد ان يأذن لسفانة ، لما اذن لي في الحضور ، فاذا كان المنذر احب سفانة فكيف يستطيع الملك ان يختبر علمها وادبها اذا هو لم يقابلها ؟ ومن اين له ان يعلم اذا كان ولي العهد احسن الاختيار ام اخطأ اذا هو لم يلمس الامر بيده ، آه لو تعلمين يا سليمى ما اصعب مراس الحارث وما ابعد نظره ، فهو الملك لا يجاريه احد في الغضب والحلم واللين والدهاء واني لا اتصور سفانة ، متلجلجة اللسان بحضرة الحارث تفتح فمها لتجيب فيختنق صوتها وتعلق الالفاظ في حلقها فيحتدم الملك غيظاً فيطردها من امامه ويأمر حجابه باخراجها من القصر ، ثم يدعو ولي العهد فيقول له ، ان الفتاة التي تحبها يا بني لم تعجب الملك وقد امرنا لأبيها بمالٍ فلينصرف عنا .. هذا ما اتصور حدوثه غداً يا سليمى ، فيعود القضاعيون الى بلادهم وينسى المنذر غرامه ويسلوه فعاد الرجاء الى قلب سليمى ، وانصرفت الى غرفتها وقد احمرت عيناها من البكاء .

- ٨

مجلس الملك

وعند الظهر دعا الحارث ولي عهده وقال له :

سنقابل اضيافك غداً عند العصر ، فقل لابن سلمة ان يدعوهم الينا .

قال المنذر : ايقابلهم مولاي مقابلة خاصة ام في مجلس الملك ؟

— : في المجلس اولاً مع جميع الاضياف ثم نرى بعد ذلك

— : ان سفانة مريضة يا مولاي فلا اظنها تستطيع المثول غداً بين يديك فابتسم الحارث وقال :

ندعو لها بالشفاء يا بني . وما هو مرضها ؟

— : احسّت بتعب ثم اصابتها حمى .

— :سنقابلها اذاً بعد ان تشفى ، اما زهير وولداه فنقابلهم غداً كما قلت

فانصرف المنذر لتنفيذ امر الملك

ثم اقبل ، جفال ، فسأله المنذر عن سفانة فقال :

غادرتها الحمىّ يا مولاي فهي على احسن حال ، وقد طلبت الي ان

أنقل اليك شكرهـــا وامتنانها ، ولولا الحياء ، لسألتني ان انقل اليك حبها وغرامها

فضحك المنذر وقال :

هنيئاً لك يا ابن سلمة فانت مطمئن القلب خليّ البال

ـ : نعم ، وقصير اللسان

فقطب المنذرحاجبيه وقال : وما معنى ذلك ايها الخبيث

ـ : معنى ذلك ، اني استقبل في النهـار اضياف الغسانيين ، واخدم في الليل مصلحة الامراء العاشقين ، واسمع عند الفجر حديث المتـآمرين ، ثم اصبح في اليوم الثاني ، من طول السهر وشرب الخمر مثل المجانين :

فهز المنذر رأسه وقال : اجل : هذه هي لغة الجنون

ـ : انهـا لغة من يخرف عند الفجر ، ثم يصحو بعد طـلوع الشمس يا مولاي

ـ : ومتى فاجئك الخرف ؟

صباح اليوم يا مولاي بعد رجوعنا من الاضياف .

ـ : وكيف ذلك ؟

ـ : عبق قصر الاميرة بالمسك والطيب . فهجرها النوم .

فاوفدت عبدها المشوق القوام تدعوني اليها : وهناك فاجئني الخرف

ـ : اخت الملك ام بنته ؟

ـ : الاميرة كوكب شقيقة مولانا الملك . فذهبت الى القصر فاذا

هي تنظر قدومي مع فتاة بارعة الجمال . كثيرة الدلال . فبت انادمها وانا اجرع الخمر حتى الصباح

ــ : انه كلام غير معقول يا جفال فما هو غرض الاميرة ؟

: غرضها ان تدخلني في المؤامرة

ــ : وعلى من تتآمر اخت الملك ؟

ان الاميرة وفتاتها الحسناء تتآمران عليك ، فجعلتني الاقدار احد المتآمرين = ولكنها مؤامرة على القلوب يا مولاي

ــ : ومن هي الفتاة الحسناء

ــ : هي سليمى بنت ثعلبة احدى الوصائف

ففكر المنذر قليلاً ثم قال : لقد عرفت الآن فقص علي ما جرى .

فأخذ جفال يروي للامير رواية خرفه والامير يضحك

ثم تجهّم وجهه وقال : وأي دخل لسفانة في الامر ؟

ــ : ان سفانة بيت القصيد يا مولاي ، فسليمى عاشقة تكاد تقرأ الغيرة في عينيها ، والاميرة تشتغل لحسابها كما قلت ، فاعذرني يا مولاي اذا قلت لك اني أخشى على سفانة من الاثنتين

فابتسم الامير ابتسامة استخفاف وقال : لا تخف يا جفال ، فان عيني لا تنام ، وغداً يجعل الملك سفانة في حمايته ، ويفعل الله ما يشاء ، فارجع الى القوم ، وقل لهم ان الملك سيقابلهم في مجلسه غداً عند العصر ، وأوص ليلى ان تلازم سفانة ريثما تشفى فتقابل الملك ، اذهب وكن رفيقهم غداً عندما يجيئون

فانصرف جفال وهو يقول في نفسه :

ستمسي سفانة بعد قليل أميرة الغسانيين ، فواعجباً لهذا الحب ما أنفذ سهامه ..

• • •

وفي اليوم الثاني ، استعد زهير وولداه لمقابلة الملك ، فلبسوا افخر ما عندهم من ثياب ، واقبلوا على القصر عند العصر ، وابن سلمة معهم ينتظرون ان يلتئم مجلس الحارث

وكان الحراس ، في اثناء التئام المجلس لا يمنعون احداً من الدخول الى القصر

فلما وصلوا الى الباب الخارجي ، تقدمهم جفال الى بهو واسع رحب ، وضعت في زاوية من زواياه المساند للجلوس ، يأخذ منها الاضياف مساندهم فيجعلونها على مقاعد حجرية لاصقة بالجدران ، ويجلسون عليها منتظرين الاذن في الدخول

وكانت الوفود تملأ ذلك البهو ، بينهم الشيخ والفتى ، والرئيس والامير ، جاءوا بأمرٍ من الحارث يحضرون مجلسه ، فيرى فيهم رأيه ، ويغدق عليهم احسانه

فطاف ابن سلمة بالقوم ، يتبين وجوههم ، ويراجع اسماءهم ، وبيده ذلك الرق الطويل كتبت عليه تلك الاسماء ، والى جانب كل اسم منها ، عدد الاشخاص الذين يرافقون صاحب ذلك الاسم ، لاجئين الى بلاد الحارث ، من نساء واولاد وعبيد وجوار

وكتابة اسماء الاضياف ، طريقة جديدة اوجدها الحارث في بلاده ، ولم يتخذها احد قبله من ملوك العرب ،

ومرّت ساعة والناس ينتظرون ساكتين، واذا تكلموا همساً وتخاطبوا بالعيون

ثم فتح باب البهو الداخلي ، ووقف على عتبته حاجب الملك وقال :
ان مولانا الملك يأذن لابن سلمة في الدخول مع الاضياف
فقال ابن سلمة : أيريد مولانا الملك ان يدخلوا جماعات ام افراداً ؟
فغاب الحاجب قليلاً ثم رجع فقال :
يدخلون جماعات

فمشى جفال ومشت تلك الوفود خلفه ، فاجتازوا الاروقة والحجرات، بين صفوف الغلمان والحراس، حتى وصلوا الى قاعة المجلس، فتنحىّ الحراس عن الباب ، وتدافعت تلك الوفود تتزاحم في الدخول ، فخرج ابن جناب وولداه من الصف ، ووقفوا وحدهم ينتظرون دخول القوم

وكان الحارث جالساً على سريره، وفي يده اليمنى درة قصيرة يضرب بها ركبته ، والى يمينه المنذر ولي العهد وجبلة عن شماله ، والى الجانبين ، عظماء الدولة ورجال بلاطه وندمائه ، وفي زاوية القاعة ستر شفاف جلست كوكب من ورائه ، فوقفت الوفود صفين متقابلين ، وانحنوا أمام الملك ، مادين ايديهم اليمنى الى الامام ، وفاقاً للعادة في بلاط ملوك الروم ، وكان الحارث قد تشبه بهم

ثم تراجع القوم الى الرواق ، ولم يبق بالباب غير ابن سلمة

فقال الحارث :

اقرأ يا ابن سلمة

فاخذ جفال يقرأ اسماء اضيافه ، فيتقدم صاحب الاسم فينتسب ، فيسأله الملك عن قومه وبلاده، وسبب قدومه وحاجته، وقيس بن ثابت. ذلك الشيخ الابيض اللحية والرأس ، يصادق على صحة الانتساب او يكذبه بهز رأسه صعوداً ونزولاً

ثم يسأله الملك ، أمقيم انت او راحل ، فاذا ارتاح الحارث الى حكايته ، امر له بعطاء والا قال : نحوّه فسننظر في امره ،

وبذل الحارث في ذلك اليوم ما بذل من المال لاضيافه ،

ثم قرأ ابن سلمة : زهير بن جناب ،

فتقدم زهير وولداه ،

فقال الملك :

اجلس يا ابن جناب ،

فجلس زهير وبقي ولداه واقفين

وكان زهير في الثمانين من عمره . له قوة الفتيان ، وعليه بردة سوداء من ابراد اليمن ، يلتحف بها حتى قدميه ، وهو طويل القامة ابيض اللون ، كساه الشيب حلةً جذابة من الهيبة والوقار

فارتاح الحارث الى قيافته وقال :

ما الذي دعاك الى ترك بلادك يا ابن جناب وانت شيخ كبير ؟

قال : جار الزمان ، وتغير الاخوان ، فلجـــأت الى العدل السائد في حوران ،

قال الملك : أمقيم انت بيننا ام راحل ؟

قال : انـّا مقيمون حتى يشأ الملك ان نرحل

— : واذا امرناكم بالرحيل فماذا تفعلون ؟

— نطرق باب غيركم من ملوك العرب حتى اذا أوصدوا ابوابهم في وجوهنا ، عدنا الى بلادنا نصارع الحياة حتى نموت ،

— : ألم تكن عاملاً لليمن على نجد ؟

— : بلى يا مولاي ، وذلك من زمان طويل

— : وكيف حال دولة الحبشان في اليمن وملكهم ابرهة بن الصباح

— : حال دولة ظافرة تتمتع بثمار الفتح

وكانت اخبار الفتح قد بلغت حوران متناقضة مضطربة ، فقال الملـــك : أتعرف أسباب الفتح يا ابن جناب ؟

— : نعم يا مولاي

فقال الملك لابن سلمة

ليدخل من بقي من الضيوف

فقال : لم يبق بالباب احد يا مولاي

فأشار الملك الى عامر وقيس بالجلوس وقال لزهير :

قصّ علينا اذن يا ابن جناب ، ما تعلم عن فتح وطننا القديم ،

قال : في اوائل هذا الجيل ، « الجيل السادس » أفضت حكومة اليمن، الى ملكٍ من ملوك حِمير، اسمه ذونواس(١) واظنكم تعرفونه يا مولاي

— : نسمع به ولم نكن نحب ان نعرفه ، اليس هو ذلك اليهودي الذي قتل في البحر ؟ (٢)

— : نعم يا مولاي ، وكان شديد التعصب ليهوديته ، يقتل نصارى اليمن وهم رعيته ، ويعمل على نشر اليهودية بالسيف

وتعلمون يا مولاي ، ان في نجران وعدن كثيراً من النصارى ، لهم اديارهم وكنائسهم ورهبانهم ، فأمر ذونواس نصارى نجران بان يتهودوا فأبوا ، ففاجأهم بالجيش يريد ان يجعلهم يهوداً بقوة السيف ، غير انهم قابلوه بالرفض وتحصنوا في الكنائس والاديار يطاولون ذلك الملك السفاح من وراء الاسوار .

وفي اليمن يا مولاي ، يبنون اسوارهم ، قبل ان يبنوا مدنهم وقصورهم ومدينة نجران ، مثل معظم مدن اليمن ، يحوطها سور ضخم عرضه عشرة اقدام، وحول كل كنيسة ودير سورٌ مثله ، ولكن الملك الغازي شدّد الحصار فسقطت المدينة، وسقطت بعدها الكنائس والاديار.

وكان الملك وكل من في المجلس ، يصغون الى زهير ، وقد اعجبهم قوله وطلاقة لسانه

---

(١) ويسميه الروم دميانوس

(٢) سنة ٥٢٥ مسيحية

قال :

فدخل ذونواس المدينة ، دخول عاتٍ جبار ، يسبق سيفه قوله ، ويستحل دماء الابرياء

وأمر فحفرت الحفائر ،فقال للنصارى : اتريدون ان تصيروا يهوداً؟ قالوا لا ، فألقاهم في الحفائر جماعات جماعات ، بعضهم فوق البعض الاخر ، وأضرم النار ، فامسوا بعد ساعتين اكواماً من رماد ، ثم انثنى بعد ذلك الى الكنائس فهدمها ، والاناجيل فحرقها ، وانصرف الى اليمن

فأفلت من نجران رجل ، ومضى الى قيصر الروم يستعين به على ذي‌نواس فأعتذر القيصر ببعد اليمن ، ولكنه كتب الى ملك الحبشة ، والملكان مسيحيان ان ينتصر للرجال، ويبعث بالجيش الى اليمن، فتعود من جديد الى حوزة الحبشان

فأستحسن ملك الحبشة رأي القيصر ، وجند سبعين الفاً من الرجال على رأسهم قائد جنده « ارباط » وقائد آخر اسمه ابرهة بن الصباح ، وكتب الملك لقائده عهداً جاء فيه : « اذا دخلت اليمن ، فاقتل ثلث رجالها ، وخرب ثلث بلادها ، وابعث الي بثلث نسائها » فاجتاز البحر ارباط وجيشه حتى قدموا اليمن، فقام ارباط في الجيش خطيباً وقال : « يا معشر الحبشة ، انكم لن ترجعوا الى بلادكم ابداً ، هذا البحر بين ايديكم ، ان دخلتموه غرقتم ، وان سلكتم البر هلكتم ،واتخذتكم العرب عبيداً ، فليس لكم الا الصبر حتى تموتوا او تقتلوا عدوكم[1]

(١) تواريخ العرب بالاجمال

فقاطعه الملك قائلاً :

ولكنهم قالوا ان للحرب سبباً غير هذا

— : نعم يا مولاي ، قالوا ان بضعة وثلاثين رجلاً من تجار الروم قتلوا في بلاد اليمن ، بين خليج العجم والبحر الاحمر في اثناء رجوعهم من الهند الى الجبشة ثم الى مصر ، فثار غضب صديقكم يا مولاي ، يوستنيان القيصر العظيم وبعث الى الحبشان ، وهم حلفاؤه ، ان يثأروا لدم رجاله المسفوك ، بفتح بلاد اليمن

ولكنها رواية غير صحيحة يا مولاي ، اجل ان اليمنيين — باغراء من ملك الفرس — قتلوا رجال الروم العائدين من الهند ، ولكن هذا القتل لم يكن سبب الفتح الاخير ،

ففكر الحارث قليلاً ، ثم هزَّ رأسه وقال :

ان الفرس آفة العرب ،هم يثيرون الحرب بين القبائل وهم يستغلون، أليسوا هم الذين بعثوا النعمان بن امرىء القيس الاعور ملك العراق ، فغزا الشام اكثر من مرة منذ اكثر من مئة سنة وانزل المصائب في اهل هذه البلاد ؟؟ أليسوا هم الذين سلحوا المنذر بن النعمان وارسلوه الى سوريا غازياً فقتل وسبى وخرب وهدم ، ثم سلحوا الاسود ابنه ، وأمه غسانية فحارب جدنا الحارث الرابع ، وكان والدنا جبلة ولي عهد ، وأسر ملوكنا وامراءنا ثم ذبحم وهم في بلاده ؟؟

أوليس المنذر بن امرىء القيس ، بن ماء السماء ، ملك العراق اليوم وهو اعظم ملوك العراق شأناً وأبعدهم نفوذاً ، يحاربنا بسيوف الفرس

وأموالهم ويهاجمنا بجنودهم وأفيالهم بعد ان خلعوه عن العرش ثم ردوه.

اجل هو حليف الفرس ، كما نحن حلفاء الروم ، ولكننا في حروبنا معه لا نقاتله الا بجندنا العربي، لا كما يفعل هو يجيء الينا كل مرة باولئك الاعجام الآجلاف . ذلك شأن العاجز الضعيف. يستعين بسيوف حلفائه ليهاجم العدو القوي .

نحن نعترف لابن ماء السماء بالقوة . ولكنها قوة محدودة . لا يبرز فيها الى القتال الا وقد حماها بقوة غيره

واني لا الوم الفرس . ولا الوم هذا الملك اللخمي . بل الوم الروم حلفائي انفسهم . الوم قائدهم الاكبر . بليزاريوس . الذي لولاه . لكنت نزعت التاج عن رأس كسرى . ووضعته بيدي على رأس القيصر يوستنيان

ونهض الحارث وقد احمرّت عيناه من الغضب . واخذ يضرب ركبته بالدرة التي في يده ويقول :

سيكون لي ولك شأن يا ابن ماء السماء

وكان رجال الحارث يعلمون . انه ما من شيء يثير غضب الملك . مثل ذكر اللخميين ملوك العراق . فهم أعداءوه واعداء اجداده . وله عند المنذر ثأر وحساب .

فحبس القوم انفاسهم وساد السكوت .

ثم ملك الحارث نفسه وعاد الى سريره وقال : عد الى حديثك يا ابن جناب ؟

قال زهير : فطاف ذونواس بيلاد اليمن وجمع علي شاطيء البحر جموعه وهو يسوق الناس بالسوط الى الحرب

وتلاقى الجيشان . فاقتتلا قتالاً شديداً افضى الى تضعضع الجيش اليمني . ثم الى هزيمته وفوز ارباط . فقال ذونواس لمن حوله « الموت في البحر احسن من الاسر وأقحم فرسه لجة البحر فمضى به فرسه وكان آخر العهد به »

ثم برز للحبشة ذوجدني الهمدان في قومه ، وهو من سلالة الملوك فغلبوه وفرّ اصحابه، فساق فرسه الى البحر كما فعل ذو نواس وغرق فيه

هذا ماعرفه من اسباب الفتح يا مولاي، نقله الي ، وانا في البحرين، احد الرجال اليمنيين الذين حاصروا نجران وحاربوا في صفوف «ذي نواس» وهو يعرف الرجل الذي فرّ من نجران مستغيثاً بالقيصر . واسمه « دوس ذو ثعلبان »

فدخل ارباط اليمن . فقتل ثلث الرجال . وخرّب ثلث البلاد . وبعث الى سيده بثلث ما سباه([1]) ثم انصرف الى ادارة الشؤون كالملك المطلق النافذ السلطان

فاستأذن ولي العهد اباه وقال لزهير :

وكيف اصبح أبرهة بن الصباح سيّد اليمن وامر اليمن في يد ارباط ؟

قال : ان ذلك حديثاً طويلاً يا مولاي ، أيأذن لي مولاي الملك في القول ؟

قال الملك : قل . ان حديثك لا بأس به يا ابا عامر

فردّ زهير اذيال بردته الى ركبتيه وقال :

(١) تاريخ الامم والملوك والعرب قبل الاسلام

تولى ارباط أمر اليمن مستقلاً . وجعل اصحابه على الجند وفضلهم على ابرهة واصحابه في الغنائم والعطاء . وكان ابرهة كثير الدهاء يطمح ببصره الى القيادة العامة فلا يجد اليها سبيلاً . فلما فضل ارباط اصحابه . نقم عليه ابرهة ورفاقه هذا التفضيل وبثوا في الجند روح الشر والتفريق . فانقسم الجند الى فئتين هذه تناصر « ارباط » والاخرى تناصر ابرهة حتى لم يبق غير الحرب فاستعد الجيشان . ولما تقاربا . ارسل ابرهة الى ارباط يقول : ان الحرب بيننا تفني الحبشان في اليمن. فهل لك في البراز فمن قتل صاحبه انصرف اليه الجند ؟ فقال ارباط نعم . فخرج الاثنان وخلف ابرهة رابية فيها غلامٌ له يقال له عتودة . فرفع ارباط الحربة وضرب بها رأس ابرهة . فوقعت على جبهته فشرمت حاجبه وعينه وانفه وشفته فسمي ابرهة الاشرم . فوثب الغلام من خلف ابرهة على ارباط فطعنه فقتله . فخضع له الجند واصبح منذ ذلك الحين سيد اليمن وملكها .

قال الملك : ذلك غدرٌ لا نحبه

وقال المنذر مستغرباً : وكيف يرضى ملك الحبشة ان يُقتل فاتح اليمن وهو قائد جنده ؟

قال زهير : ان الملك عندما بلغه خبر القتل تميز من الغضب وقال : أيقتل ابن الصباح امير اليمن بدون اذني ؟ والله لا ادعه حتى اطأ بلاده واجز ناصيته . فلما عرف ذلك ابرهة . حلق رأسه وملأ جراباً من تراب اليمن وبعث بذلك الى الملك وكتب اليه يقول : « ايها الملك انما كان ارباط عبدك وانا عبدك . فاختلفنا في امرك وكل طاعته لك الا اني

كنت اقوى منه على امر الحبشة واضبط لها . وقد حلقت رأسي كله
حين بلغني قسم الملك وبعثت اليه بجراب من تراب اليمن ليضعه تحت
قدميه فيبرّ في يمينه » فلما انتهى الكتاب الى الملك . رضي عن الرجل
وكتب اليه ان يثبت على عمله في اليمن حتى يأتيه أمره

وهو يقيم الآن في مدينة صنعاء في اعظم قصر بناه ملوك اليمن ، هو
قصر غمدان

وقد قيل لي يا مولاي ، انه بنى في صنعاء كنيسة كبيرة سماها
« القليس » نقشها بالذهب والفضة والزجاج والفسيفساء والوان الاصباغ
وصنوف الجواهر ، وجعل فيها خشباً له رؤوس كرؤوس الناس ،
وكتب على بابها بالحرف المسند « بنيت هذا لك من مالك ليذكر فيه
اسمك وانا عبدك » (١)

قال الملك : لقد ارسلنا الى هذا الملك رسلاً تحمل اليه بعض المال
والحبوب ، ينفقها على القبائل التي اشتغلت بترميم السدّ ، ولكن هؤلاء
الرسل لم ينقلوا الينا من اخبار اليمن ما نستفيد منه(٢)

---

(١) الطبري ، العرب قبل الاسلام ، ياقوت

(٢) كلما تهدم سد العرم ، عمدت ملوك اليمن الى ترميمه ، حتى تهدم قبل الاسلام فاهملوه

وقد اكتشف « غلازر » في اثناء درسه انقاض ذلك السدّ في الجيل الماضي أثرين عليهما كتابة تتعلق بتهدم السد بعد انتصار الحبشة على اليمن ، أحدهما مؤرخ سنة ٥٣٩ والآخر سنة ٥٦٥ المسيح ، والاثران هما من أهم ما وقفوا عليه من آثار دولة الحبشة في اليمن لما فيها من الاشارات التاريخية والاجتماعية والعلائق السياسية أحدهما كتبه أبرهة الاشرم وهذه خلاصته كما وردت في كتاب « العرب قبل الاسلام »

ثم قال : وهل فكرّ ابرهة في بسط نفوذه على جميع الجزيرة ؟

— : لم أسمع شيئاً من هذا يا مولاي ، فلعله رضي بما تمّ له من النصر فلم يفكر في التوسع ، وهب انه حاول ان يبسط نفوذه على القبائل ، أتظن ان هذه القبائل تثبت سنةً واحدةً على الولاء ؟

وكان الحارث يطمع بالتوسع ، وقد وضع نصب عينيه منذ تولىّ

«بنعمة الرحمن الرحيم ومسيحه والروح القدس ان أبرهة عزيز الحبشان الاكسوميين، ملك سبا وذوريدان وحضرموت الى آخره ، وقد نقش هذا الاثر تذكاراً لتغلبه على يزيد بن كبشة عامله الذي كان قد ولاه « كندة وديء » وعينه قائداً ... فأنفذ الملك اليه ، الجراح ذا زنبور ، فقتله يزيد وهدم قصر كدار ، وجند من اطاعه من كندة وحريب وحضرموت ، وبلغ الملك الاستصراخ فنهض بجنده الحبشان والحميريين الوفاً في شهر ذو القياط من سنة ٦٥٧ « من تاريـــخ اليمن » فنزل أودية سبا ... فجاء يزيد وبايع وخضع للملـــك بين يدي القواد ، وهم في ذلك جاءهم النبأ بتهدم السدّ والحائط والمصرف في شهر ذو المدرح سنة ٦٥٧ فأمر بالعفو ... وبعث الى القبائل بانفاذ الحجارة للاساس والحجر الخام والاخشاب ورصاص الصب ... لترميم السدّ في مأرب .. فتوجه أولاً الى مأرب صلىّ في كنيستها ثم عمد الى الترميم فنبشوا الانقاض حتى وصلوا الى الصخر وبنوا عليه ، وعلم وهو في ذلك ان القبائل تضايقت من العمل ورأى اعدامهم يعود بالضرر فعفا عنهم وأذن بانصرافهم ... ورجع الملك الى مأرب بعد ان عقد تحالفاً مع لاقيال الآتي ذكرهم «والاقيال امراء في اليمن» اكسوم ذومعاهر ابن الملك ومرجزف ذو ذرناح ، وعادل ذو فائش الخ ... وجاء اليه وفد النجاشي ووفد ملك الروم ورسول من المنذر ، بن ماء السماء ، وآخر من الحارث بن جبلة وآخرون جاءوا بعون الرحمن يخطبون مودته .. وبعثوا اليه من غلة أراضيهم لترميم ما انصدع من البناء فرمموه ووسعوه حتى بلغ الطول ٤٥ ذراعـــاً والارتفاع ٣٥ ذراعاً ، واستغرق العمل في ذلك ٥٨ يوماً و١١ شهراً وكان الفراغ منه في شهر ذو معان سنة ٦٥٨ « من تاريخ اليمن التي هي سنة ٥٤٣ من تاريخ الميلاد »

الملك ، ان يخضع نجداً لحكمه ، ويجعل القبائل المنتشرة فيها من رعيته ، وكان يقول :

لو كانت هذه القبائل جنوداً لي ، لنشرت اعلام ملكي من اقصى الشرق الى اقصاه

غير ان هذا الحلم الذهبي لم يصدق ، لان خصومه اللخميين ملوك العراق كانوا أسبق منه في التوسيع فنفذت كلمتهم في معظم القسم الشمالي من جزيرة العرب ، وفي بعض القسم الجنوبي منهـا على قدر ما كانت تسمح الحرية والبداوة لتلك القبائل بالخضوع والاستسلام، ولأن عيون الفرس وجواسيسهم من جهة اخرى . كانوا يملأون بلاد العرب يحصون على ملوكها حركاتهم وأنفاسهم

فقال لزهير

وأي القبائل اعظم شأناً يا ابن جناب ؟

— : ربيعة ومضر يا مولاي وهما اقوى شعوب عدنان

— : واين تقيم هذه القبائل ؟

— تتنقل يا مولاي في نجد واليمامة والحجاز وتعيش بالغزو والحرب. وتخيّم مضر اليوم بين اليمامة وهجر . اما ربيعة ففي مكان يقال له النباج يقع شمالي اليمامة

لقد قيل ان بعض هذه القبائل تخضع لسلطان ابن ماء السماء

فقال ابن جناب في نفسه : لقد عاد الملك الى ذكر عدوه

ثم قال : سمعت يا مولاي ان ابن ماء السماء يستعد لغزو بعض هذه

القبائل ولا ادري اذا كان ما سمعته صحيحاً

فقال الملك يحدث رجال المجلس :

لقد ارسلنـــا الى الحيرة والى بلاد نجد . عتبة ويزيد ولم يرجعا . ارسلناهما منذ شهرين ليتعرفا اخبار القبائل . وينقلا الينا ما يسمعان عن علاقة العربان بابن ماء السماء . فماذا تقولون ؟

فلم يجروء احد منهم ان يبدي للملك رأياً

فقال : ما رأيك في هذا التأخير يا ابن جناب ؟

قال : ما صفة هذين الرجلين يا مولاي ؟

— : من احسن الرجال رأياً واعلاهم همة

— وهل يعرفان بلاد العرب ؟

اجل . ولهما خبرة بعادات القبائل واحوالها الخاصة

— : والذي بعثته الى الحيره أيعرف الملك اللخمي ؟

— : يعرفه كما يعرف مولاه فقد شهد الحرب الاخيرة بينى وبينه وارسلته الى الحيرة اكثر من مرة يتجسس اموره وهو في كل ادواره الخادم الصادق يستطلع بذكائه خفايا الامور

— : ليس التنقل بين قبائل العرب سهـــلًا يا مولاي . فالعربي في قبيلته كثير الحذر كثير الانتباه اذا رأى غريباً في قومه اشتد حذره وتفحص عن امره حتى يعرفه . يفعلون ذلك يامولاي خوفاً من الحرب ومفاجآت الغزو الا اذا كان لهذا الغريب اصحاب في القبيلة يثقون به . انهم لا ينامون يا مولاي. فئة توقد في الليل النيران وفئة تقوم على الحراثة

بالسلاح . وكلاهم . ان كلاهم اكثر حرصاً من الرجال فأذا خدم الغريب الحارس فهي لا تنخدع ولا تلين . واعتقد يا مولاي . ان مهمه الرجلين لا تنقضي بستين يوماً لان قبيلتي تغلب وبكر في نزاعٍ دائم . ولأن عيون للخميين وانصارهم لا تنام . فاذا كان لمولاي الملك همٌ من هذهالجهة فليبعث برجـــل او رجلين آخرين يتبعان اثر عتبة ويزيد . وينقلان اليه في الوقت نفسة اخبار ابن ماء السماء

ـ : انه لراي حسن ، ولكنه في غير اوانه . فماذا نستفيد اذا بعثنا رجلين آخرين ثم عـاد يزيد وعتبة من طريق آخر ؟ ولكن نصبر حتى نقطع الامل ثم نرى بعد ذلك

والتفت الى خاصته وقال :

ومن نبعث هذه المرة من الرجال ؟

فقال المنذر : يذهب من يختاره الملك

قال عاصم بن ثعلبة : انا لها يا مولاي

قال : اتعرف الحيرة ؟

ـ : لا يا مولاي

ـ : واذا قبضوا عليك وسألوك من انت فماذا تقول :

ـ اقول : انا عاصم بن ثعلبة خادم الحارث بن جبلة

ـ : فضحك الملك وقال :

ـ : وهل نبعث برجلٍ لا يعرف الحيرة واذا سألوه عن اسمه فضحنا وفضح نفسه ؟! انك يا عاصم فتىً ثابت الجنان ولكن لا رأي لك

فقـــال لبيد بن عمر الغـاني : أجعلني انا ذلك الرسول يا مولاي «ولبيد من فرسان غسان وأمرائهم»

قال : أنت لا غنى لنا عنك

فقالت الاميرة وقد رفعت الستر : لو كنت أنا الملك لبعثت «جفال بن سلمة »

فقال جفال في نفسه : تريد الاميرة ان تبعدني ليخلو لها الجو . والله لا ذهبت أبداً

فنظر اليه الملك وقال : أتذهب يا ابن سلمة ؟

قال : أيسألني الملك رأيي ام يأمرني بالذهاب ؟

قال : بل نسألك وأيك

قال : اذن لا أذهب يا مولاي

ولماذا ؟

— : لاني لا احب الكذب فاذا سألوني من انت اقـــول : انا جاسوس الملك

قال : انك لا تصلح يا ابن سلمة : الا لاستقبال الاضياف

وكان زهير وولداه يتهامسون . فقال عامر للملك : أتبعث رجلًا ام رجلين يا مولاي ؟

قال : نفتش الان عن رجل فاذا وجدناه فتشنا عن الآخر

قال : انا هو يا مولاي ذلك الرجل

فاتجهت انظار القوم الى عامر ، غير ان الملك هزّ راسه استخفافاً وقال : أانت عامر ام قيس

– : عامر يا مولاي

: اتعرف الحيرة ؟

– : لا يا مولاي لا اعرف الحيرة ولا المنذر ، ولكنني اعرف نفسي اني فتىً جاوزت سن الغرور

فأحاطه القوم بنطاق من العيون وخرجت الاميرة من وراء الستر لترى وجه هذا الضيف البدوي وتسمع حديثه

فقال الملك : واذا سألوك عن قومك فماذا تقول ؟

لا تسألني يا مولاي ، فاني أعرف اذا قبضوا عليّ ماذا اقول ؟

فرقص قلب المنذر فرحاً لمروءة اضيافه ، وتغير ظن الاميرة بالقوم وكبروا في عينيها .

فقال الملك . أيأذن لك ابوك وانت قادم من سفر ؟

قال زهير : بل نأذن للاثنين يا مولاي، فاذا عادا فقد قضيا ما عليهما، واذا قتلا ففي طاعة مولانا الملك ، اما انا فيجعلني الملك رهينة عنده حتى يعود الاثنان ولو استطعت لكنت اسبق منهما الى خدمته .

– . وهل يعرف قيس قبائل نجد ؟

فوقف قيس وقال : اعرف بعضها يا مولاي

فقال زهير : ولكن عامراً يعرفها كلها يا مولاي وله في تميم وبكر بن وائل وبني اسد اصحاب كثيرون .

قال ذلك وقد اصفر جبينه من خوفه على ولديه

فقال الملك : ولكن القبائل في حرب كما تقولون

قال عامر : أعرف ذلك يا مولاي

فارتاح الحارث الى حديث القوم وقال :

انا اذا ارسلنا رجالنـا الى الحيرة ونجد ، فلكي نعرف أسباب هذه الحروب المستمرة لنرى اذا كان لابن ماء السماء يد فيها ، ان هذا الملك قبل ان يخلعوه عن العرش اتانا بجيشه غازياً ولكنه لم يفلح ، ثم لما اعاده كسرى الى عرشه أمره ، من وراء الستار ، ان يحاربنا ويوغل في سوريا غزواً ونهباً ، ففعل فانتصر له كسرى ونشبت الحرب ، ولكنها حرب كثرت فيها الحيلة ولم يكن لها نظام فانتهت لا علينا ولا لنا ، فعاد الى بلاده يطارد الحارث بن عمرو مزاحمه على عرش لعراق

قال قيس : ولماذا يلقبون المنذر بابن ماء السماء يا مولاي ؟

ـ : ماء السماء اسم امه وهي مـــارية بنت عوف من بني النمر بن قاسط ، ويقال له ايضا ذو القرنين لضفيرتين من شعره يرسلها الى جانبي رأسه .

ان المنذر جميل الوجه ولكنه ظالم خدّاع فقد نقل اليّ عتبة بن هند، في العام الماضي ، انه يفسد قلوب القبائل ، فيغري الاخ على قتل اخيه ، والجار على قتل جاره ، حتى تشتعـل نار الحرب ، فتضعف قوى القوم فيستولي هو على بلادهم بحد السيف

اما الآن فلنصبر ، نصبر شهراً آخر لان الستين يومـاً ، كما قال ابو عامر ، لا تكفي لمثل مهمة عتبة ويزيد

قال عامر : أيأذن لنا الملك ان نسأل ، كيف خلعوا ابن ماء السماء
عن عرشه ثم اعادوه اليه

قال : لذلك قصة سنرويها لكم في وقت آخر

ثم قال لزهير : وكيف حال سفانة يا ابن جناب ؟

— : سفانة مريضة يامولاي، وستعود اليها العافيةبعناية مولانا الملك

قال : شفاها الله ، وسنقابلهـا ان شاء الله في مجلسنا الخاص ، اليست
سفانة عزيزة عليك يا ابا عامر ؟

فسقطت دمعة على خد الشيخ وقال :

انها بنت شيخوختي يا مولاي وسلواي في كبري وهمي

وقبل ان ينصرف الملك . أومأ الى الاميرة ان تتبعه وخرج

فمشت الاميرة خلف الملك تنحني لها الرؤوس اجلالاً واحتراماً

فأقبل عامر على المنذر وقال : من هي المرأة التي تتبع الملك يا
مولاي ؟

قال المنذر : هي الاميرة كوكب . بنت جبلة اخت الملك

- ٩ -

وأصبحت سفانة في اليوم الثاني ، قريرة العين مسرورة القلب ، فقد عاد الى ذلك القلب الرجاء بعد ان قطعت الامل من حب المنذر

فلما انصرف ابوهـــا واخواها لمقابلة الملك ، نهضت من فراشها ، وجلست مع ليلى قرب النافذة ، وليلى تحدثها عن الغسانيين ، وعن سخاء الحارث واحسانه ،

وليلى مثل أخيها جفال ، صادقة القول طيبة القلب ، اراد اخوهـا ان تحب سفانة فأحبتها ، وأمرها المنذر بأن تخدمها فخدمتها ، فكانت الصاحبة الوفية والخادمة النصوح

واخذت ليلى تقول :

ان المنذر يا سفانة من احسن الناس ، امير الرجال ، وامير الجمال ، وهو يحب الغريب اللاجيء الى قومه كما يحب فرسه ، غير ان حبه اليوم ، غير حبه بالامس ، فهو يكاد يذوب شوقاً وغراماً ... ولي يا سفانة رأي في المنذر أتريدين ان تسمعيه ؟

— : نعم ،

— : ان زهير بن جناب ، سيمسي بفضل المنذر اقرب الندماء الى الملك ، واعظم رجال دولته ،

فتنهدت سفانة وقالت : اراك يا ليلى تعرفين اسرار البلاط

ــ : لا . ولكني اعرف اسرار الامير ، فجفـال يعلم من احوال المنذر ما لا يعرفه الحارث نفسه ، لقد قال لي جفال ان الامير عاشق وان تلك التي يعشقها ليست من قومه بل غريبة عن بلاده. وهي غاية في الجمال وكريمة النسب ، وسيجعل اباها نديم ابيه ... وسمعت أخي يقول انها تدعى سفانة بنت زهير بن جناب ...

وكانت سفانة تظن ان حب المنذر لم يتجاوز صدره ، فاذا هو على السنة الخاصة ولا يلبث حتى يصبح بعد قليل حديث القوم في غسان ، فقالت لليلى

يظهر ان الوحي نزل على اخيك ابن سلمة ، قبل ان تجيء سفانة الى حوران ، ومن يصدق يا ليلى ان المنذر يتنازل الى حبي وانا فتـاة من البادية لا أليق به بل لا اصلح لان اكون احدى جواريه ؟؟ ان سفانة لا تطمع بحب الامير يا ليلى ، ولكنها تطلب رضـاه ورضى ابيه ، فيستظل زهير بن جناب في آخر ايامه ، بظل ملكٍ كبير مثل الحارث بن جبلة يرد عنه كيد اعدائه

ان مثل هذا الحديث يقتلني يا ليلى ، فأنا اخشى ان اصدقه ، واذا صدقته قضت عليّ بعدئذٍ خيبة الامل .. ثم غيرت الحديث وقالت

لقد عاد معظم الاضياف من عند الملك ولم يعد بنو جناب ، فأخشى ان يسيء الملك الظن بقدومهم فيموت ابي من قهره

فهمّت ليلى بالجواب ، فاذا بزهير وولديه قـد اقبلوا ، وابن سلمه

يمازحهم ويضاحكهم وهم مشرقو الوجوه

فخرجت سفانة لاستقبالهم فضمها أبوها الى صدره وقال :

طيبي نفساً يا ابنتي ، فقد أحسن الملك استقبالنا وغمرنا بفضله ، واذن لك في استقباله عند ما تشفين

فبكت سفانة من الفرح وقبلت رأس ابيها وقالت :

حفظ الله الملك

قال ابن سلمة : أراكم لا تذكرون المنذر وهو صاحب الفضل .

فدعا الجميع لولي العهد

ثم خرجوا الى فناء المنزل يتنزهون وليلى تهمس في سفانة لقد صحت نبوءتي وستصبحين سيدة هذه البلاد

• • •

ولما خلت الاميرة بالملك قالت له :

ألم تومىء اليّ يا مولاي بأن أتبعك ؟

: بلى وذلك لارى رأيك من جديد في أضيافنا القضاعيين

ففهمت الاميرة مغزى هذا الكلام وقالت :

لقد كذب تصوري يامولاي ، انهم لقوم متحضرون نبلاء ، تبدو على وجوههم دلائل الكرامة ، وتتجلى في احاديثهم فصاحة اللهجة وادب اللسان

— : ان الملك لا يهتم لفصاحة اللسان ، بل يهتم للرجـــال في قلوبهم

القوة وفي صدورهم الجرأة والاخلاص ، ولكن اذا كانت سفانة مثلهم فصاحةً فهل تصلح للملك ؟

فعرفت الاميرة ان الملك يعود الى التوبيخ فقالت : اذا كان القضاعيون فصحاء الكلام يا مولاي ، فمن يضمن لنا انهم مخلصو القلب ؟ ان الفصاحة والادب يعرفان بالقول ، ولكن الاخلاص لا يعرف الا بالاختبار ، فهب ان سفانة افصح من الرجال فكيف تثق باخلاصها للغسانيين وانت لا تعرف اخلاقها بل لا تعرف عنها شيئاً ؟ افلا يجوز ان يكون هؤلاء الاضياف خصوماً جاؤوا الينا من قلب الجزيرة ، والجزيرة بؤرة الفساد ، يسلبون اموالنا ، ثم يعودون الى من ارسلهم وقد ملأوا جعبتهم من اسرار الجيش واحوال البلاد ؟؟

— فضحك الملك وقال : ان الحارث بن جبلة يعرف من احوال الناس ما لا تعرفه اخته ، فاسمعي يا كوكب :

كان ابن جناب اميراً على نجد يوم كانت دولة اليمن صاحبة الكلمة في الجزيرة ، فلما ضعفت هذه الدولة خرجت الامارة من يده وانتقلت الى سواه فلجأ الى البحرين ، والبحرين ملجأ القضاعيين القديم نزحوا اليها من تهامة في الجيل الاول لميلاد المسيح فراراً من جند الروم ، فأقام هناك زماناً طويلاً هادئاً ساكتاً لا يهتم بالامارة ولا يعبأ بامر نجد ، حتى اشتعلت في الجزيرة نار الحرب وتنازع امراؤها سيادة العشائر ، ثم امتدت النار الى البحرين وهو لا مصلحة له في الحرب ولا يقدر ان يسترجع الامارة ، فانتقل الى نجد ، ثم لجأ أخيراً الينا يقضي ما بقي له من الايام

لقد كان ابن جناب يستطيع أن يلجأ الى بني تغلب فهم اقرب اليه منا، ولكنهم خصومه وقد حاولوا قتله غدراً في خبائه، ثم هو لا يستعين بملوك كندة لان دولتهم في دور النزاع ، أمـــا عدوه الاكبر ، العدو الذي يحـاول اخضاع الجزيرة لسلطانه ، ويفسد بين القبائل ليجعلها في طاعته ، فهو المنذر ابن ماء السماء الذي لا قبل له به ولا هو يطيق حربه

اجل ان هؤلاء القضاعيين لم يكونوا مخلصين لنا وهم في البحرين ، ولم يرغبوا في خدمتنا عندما قدموا حوران ، بل هم يطمعون باحسانا ، ولكنهم ذوو اباء وشرف ، فاذا اراد الملك ان يجعـــل الابي الشريف مخلصاً لدولته بل عبداً لارادته ، فليحسن اليه وليكرم وفادته ، هكذا سنفعل نحن ، نحسن الى ابن جناب ونقربه الينـــا ، يصبح لنا مخلصاً ولارادتنا عبداً

لقد عرفنا بقدوم هؤلاء الاضياف منـذ شهرين ، ونقل الينا الرواة أخبارهم قبل ان يغادروا ارض نجد ، اذن فنحن نعـلم من امرهم ما لا تعلمين ، فلا يجوز بعد هذا ان تحسبيهم عيوناً على الملك لان العدو الذي يكيد لنا ونحاذره هم اعداؤه

ثم ان الملك ، من وجه آخر ، يعرف ان يحتاط لنفسه ، فسيرسل عامراً الى الحيرة والجزيرة ليدرس احوال المنذر ، وينقل الينـا اخبار القبائل ،وفي مثل هذه البعثة الخطرة،يتضح للملك اخلاص هؤلاءالقضاعيين

اما زهير بن جناب ، فنجعله نديم الملك ، ولـكنه في الواقع رهينة عندنا حتى يعود ولداه

فقالت الاميرة : وماذا تفعل به يا مولاي بعد عودتها ؟

: ان ابن جناب يا كوكب ، شيخ حكيم بعيد النظر ، يقلّ في شيوخ العرب وجود من يماثله في سعة الاطلاع ، فاذا صدق في خدمتنا وكان صريحاً، ابقيناه للمنادمة وانتفعنا بخبرته وبما يعلم عن قبائل العربان، والا فليس له شأن معنا ونحن بغنىً عن خدمته ، ان الرجل معروف امره ، ولكن الملك لا يكفيه قول الرواة ، فسنعمد الى الاختبار ، نجرّب علم الوالد ونمتحن حب سفانة ، ونختبر اخلاص الولدين

يجب ، في مثل هذا الموقف ، ان اعترف لك بكل شيء ، فاعلمي يا اختي ان ولي العهد أحب سفانة ، أحبها حتى ليشعر انه لا يعيش بغير هذا الحب ، فافهمته كما افهمتك سابقاً ، انه حرّ في حبه ولكنه مقيّد في في زواجه حتى يرى الملك رأيه فيمن احبّ ، فرضي بذلك وهو ينتظر الساعة التي يقابل فيها الملك سفانة بنت جناب

واني لاخشى كما تخشين ، ان لا تكون الفتاة اهلًا للمنذر ، فامنعه من الزواج . فيتهدم اول امل له من آمال الصبابة والشباب

وعلى كل حال ، لا اريد ان اتصور ، ان الاميرة كوكب تعود الى ذكر سليمى بنت « هنب » سواء أكانت سفانة اهلا للمنذر ام غير اهل

- : وهل تأذن لي ان اسمع حديث سفانة مع الملك
- : اما هذه المرة فلا
- : ولماذا يا مولاي ؟

ان الملك لا يقال له لماذا ، قلت اني لا اسمح لك بالحضور وكفى فخرجت الاميرة من عند الملك وهي تقول :

ان الملك يحسبني عدوةً لهؤلاء القضاعيين وانا قد تغيرت

- ١٠ -

عندما خرجت كوكب من لدن الحارث. دعا اليه ولي عهده وقال:

لقد احسنًا استقبال اضيافك يابني . ولكننا لم نحسن اليهم خوفاً من ان يكونوا خصوماً يلبسون لباس الاصحاب

— : ومتى يعرف الملك انهم اصحابه ؟

— : لقد كنا نستطيع يا بني ان نحسن اليهم ونصرفهم كما نفعل مع الاضياف ولكن اردنا ان ندرس اخلاقهم حتى اذا وثق الملك باخلاصهم غمرهم بانعامه

ثم قال : واي شيء اعز عليك يا بني ، مصلحة عرشك، أم مصلحة قلبك ؟

فقال : الاثنتان يا مولاي ، ولكن العرش اولاً

— : اذن كان عليك وانت ولي العهد ، ان لا تسترسل في هواك قبل ان يرى الملك رأيه في الفتاة التي تختار ، وكيف احببت بنت جناب وقد لا تكون اهلاً للعرش ؟ بل كيف يقدم ولي العهد على حب غريبةٍ قد لا تملك من المحاسن غير جمال الوجه ؟؟

فقال المنذر في نفسه :

هذه روح الاميرة في لهجة الملك ، ثم رفع رأسه وقال :

احببتها وانا لا ادري ما هو الحب يا مولاي ، ولم اكن في تلك الليلة التي عرفت فيها بني جناب ، ذلك الرجل المجرّب الذي خبر الحب ووقف مواقف الغرام ، بل لم اكن طالب زواج تعرض عليه الحسان ليختار منهنّ عروساً ، انما كنت يا مولاي، ذلك الجندي الامين الذي يطوف في السهل كل ليلة، ساهراً على مصلحة دولته، مقيماً على عهد مليكه ، لم يعرف الغرام قلبه ، ولم تصافح يده غير سيفه ، فعرضت لي في ذلك الليل ، فتاة تلبس ثوب رجل، فعشقت صوتها ، ثم رأيت وجهها فاذا هي آلهة الجمال ، واذا انا عبد جمالها واسير هواها ،

هذا ما اعرفه عن حبي يا مولاي ، احببتها كما أحب ابي ومليكي ، وكما احب دولتي وجندي ، بل احبها كما احب نفسي ، فامتحن يا ابي واختبر ، فاذا رأيتها اهلا لوي عهدك ، فلا اكثر من ان تقول لي : رضيتها زوجةً لك، والا فانا العاشق الذي يكتم هواه، ويصبر على بلواه،

— : اراك يا بني كالشعراء تحسن وصف الحب والجمال ! ،

— : لقد عودني الملك ان اقول الحق ولكن ، ما هو شأن الاميرة بغرام ولي العهد ؟

فاظهر الحارث الاستغراب وقال : واي شأن لها ؟

— : لا ادري يا مولاي ، فهي تحيي الليل كله تتحدث عن هذا الغرام . . .

— : لقد خرجت الاميرة من عندنا الآن ولم تقل لنا شيئاً من هذا، اتراها تغار عليك يا بني ... ؟

— : نعم يا مولاي ، انها تريد ان تنتزع من صدري حب سفانة لتجلس على العرش سليمى بنت ثعلبة ،

— : سليمى بنت ثعلبة ؟ انها فتاة حسناء يا منذر ،

— : والله لو خفق لها هذا القلب لنزعته من صدري ،

— : ولماذا ؟

— : كي لا احكمّ بني « هنب » في عرش الغسانيين ، وافضل لولي العهد ان يتزوج بنت خصمه ملك العراق ، ولا يتزوج فتاةً من قومه،

فظهر البشر على وجه الملك وقال :

انك تستطيع كما قلت لك ان تحب من تشاء ، ولكن ولي العهد لا يتزوج الا برضايَ ،

— : نعم يا مولاي ، المنذر بن الحارث لا يتزوج الا برضى ابيه ،

— اتعاهدني على ذلك ؟

: اقسم برأس الملك اني لا اتزوج الا سفانة ولكن لن اتزوجها الا اذا رضيت ،

— : واذا لم يرضى الملك بهذه الفتاة ؟؟

— : يستغني ولي العهد عن النساء

فعرف الحارث ان المنذر صادق في قسمه فلم يشأ ان يجادله في غرامه او يبدي رأيه في الامر قبل ان يرى بنت زهير ، فقال للمنذر :

وهل تبادلك سفانة هذا الحب ؟

فكبر على المنذر ان يكذب ، فقال :

والله لا اعلم يا مولاي ، ولكن ... اظن ..

فقال الملك وقد ظهرت في عينيه عاطفة الوالد ، اما الملك فسيعلم . فعد الان الى غرفتك وكن صبوراً . واعلم ان همَ الملوك اكبر من همَ العامة ولكنهم يملكون انفسهم ويصبرون ، اذهب . وقل لابن سلمة ان يصحب سفانة غـدا قبل الظهر الى القصر . ثم يجيء بعد الظهر ابوهـــا وولداه .

وفتح باباً يؤدي الى غرفة أخرى . فيهـــا رقٌ كبير كتبت عليه اسماء القبائل وانسابها فأخذ يقرأ فيه .

اما المنذر . فبدلاً من ان يذهب الى حجرته . اتجـــه الى جناح في القصر وراء الجناح المختص بالملك . وهناك ، في آخر الجنـاح . حجرات واسعة أمامها رواق صغير له بابان تحرسها العبيد والغلمان

فلما وصـل المنذر الى هذا الرواق . وقف الحراس اجلالاً وحنوا رؤوسهم ينتظرون أمره

فقال لأحدهم : اين هي حليمة ؟

— : هي في قاعة الجلوس يا مولاي وعندها الاميرة شقيقة الملك

فتمتم الامير قائلًا : شقيقة الملك في كل مكان ؟ قال بصوت عال : قل لاختي اني اريد ان أراها

فسمعت الاميرتان صوت المنذر : فخرجتا لاستقباله وحليمة تقول كنت أحسب ان ولي العهد نسي اخته

وقالت كوكب : كما نسي عمته

فعانقها الامير ومشى امامها الى قاعة الجلوس وقال :

ان الانقطاع عن الزيارة يومين لايسمونه نسياناً . ومع ذلك فانا أعتذر وان اكن بريئاً

قالت حليمة : وكيف تكون بريئاً وانت تعترف بانقطاعك عنا يومين ؟

— : ذلك لاني عاشق والعاشقون ابرياء ...

فضحكت حليمة وقالت : عرفت ذلك فلم اصدّق

ومتى عرفت ؟

— : في هذه الساعة

قال أجل . فليس في القصر من هو اسرع من اخت الملك في نقل أخبار الغرام ، لقد حدثت ابن سلمة بغرامي ، ثم سبقتني الى هنا تنقل اليكِ البشري . انها لعاطفة صادقة تظهرها شقيقة الملك لابن اخيها الذي تحبه .

فهاجت كبرياء الاميرة للهجة المنذر . فقالت :

لم اكن اعلم يا ابن اخي . ان غرام ولي العهد غرام مقدس لا يجوز لاخت الملك ان تتحدث عنه . بل كنت اعتقد ان كوكب بنت جبلة . التي مات والدها وهي طفلة . وماتت امها وهي بنت سنة . فنشأت في حضن اخيها الحارس تأكل من يده وتنام على صدره ، كنت اعتقد انها في نظر الملك ونظر ولي عهده افضل من فتاة غريبة قدمت حوران منذ يومين. وانها تستحق ان تسمع من وليّ العهد كلمةَ واحدة

يطلعها بها على غرامه !! لقد كان للحارث ثلاثة اولاد ماتوا قبل ان تولد يا ولي العهد . فلما برزت للوجود . كنت . وانا في الثامنة من العمر آخذك من بين يدي امك ومرضعك . واطوف بك القصر وحجراته وشرفاته وانا اشعر اني احمل فتىً سيكون عوناً لعمته ومرجعاً لها بعد اخيها عندما يصير رجلًا .

اجـــل . لقد نشأتم يا أنجال الملك . بعد موت الملكة ، في حضن كوكب واحب شيءٍ اليهـــا ان تراكم رجالاً يتبعون أثر الاجداد ، وينهجون مناهج الحكمة والصواب ، فلما أصبح ولي العهد في الثـانية والعشرين ، احب فتاة ابوهـا نبذته عشيرته فجاء يطلب احسان الملك ، وانكر على عمته ان تلفظ اسم هذه الفتاة او تتحدث عن هذا الحب

على اني لم أحدث احداً بهذا الغرام ، ولكني سألت ابن سلمة سؤالا عن اضيافه ، ثم جئت الى الملك اسأله السؤال نفسه ، ولا غرض لي غير اختيار الزوجة الصالحة لولي عهد الغسانيين

فاسمعني المـلـك ما لا احب ، ثم امرني بالصبر فصبرت ، ثم رأيت القضاعيين في مجلس المـلـك فاعجبني منظرهم وفصاحت لهجتهم ، فغيرت رأيي في القوم ، وكنت احبهم من قبل انهم من اجلاف العربان

اما الفتاة فلا أعرفها ، وقد قال لي جفال بن سلمة انها اميرة الجمـال فأتيت حليمة اسألها عنها فاذا هي لا تعرفها ، ولم تسمع بهذا الحب

هذه حكاية اخت الملك التي تنقل اخبار الغرام ... وهي لم تنقلها الا لابيك واختك كما رايت ، فاذا كان امر وليّ العهد لا يعنيني ، فانا قد

اخطأت وتعجلت فيه ، وليس عليك الا ان تصفح عني يا ابن اخي فان ذنبي كبير ،

قالت ذلك وخنقتها العبرات ،

وكان المنذر يعلم ان عمته كثيرة التقلب ، وهو بالرغم من ذلك كما قلنا ، يحبها ويحترمها ولا يجرؤ على اغضابها لئلا يغضب الملك

فضمتها حليمة الى صدرها واقبل هو يطيب خاطرها ويمازحها حتى عاد الى وجهها البشر ، فقال :

اتريدين ان نتحدث الان بجلاء ،

فابتسمت له وقالت : نعم فقل ما تشاء ،

قـــال : فاجأني حب سفانة وانا في السهل ، كما تفاجىء العاصفة في الليل تائهاً في الصحراء ، فعدت الى القصر واخبرت الملك ، ثم اردت في اليوم نفسه ان اطلعك واطلع حليمة على امري ، فقيل لي انك تسعين سفانة لدى الملك وتحاولين اقناعه لتكون سليمى بنت ثعلبة زوجة لي ، وانا يا سيدتي لا احب سليمي ولا أستطيع ان اجعلهـــا ولية العهد ، فقلت في نفسي ،احفظ الان سري ريثما يقول الملك كلمته في هذا الحب وانت ترين يا سيدتي انك كنت اسبق مني الى شقيقتي التي جئت استشيرها في الامر قبـــل ان يصدر الملك حكمه ، فكيف يجوز للاميرة ، ان تسعى لدى الملـك بضيفة لا تعرفها ؟ ... ان الملك الجالس على العرش الحارث بن جبـــلة نفسه ، لا يجوز له ان ينتقص الضيف او يطعن في كرامته قبل ان تثبت خيانته

لقد قـــالوا الك يا سيدتي ان المنذر أحب سفانة ، فبدلاً من ان

تستدعيه وتسأليه عن حبه ، دعوت أحد خاصته ابن سلمة ، فقص عليك كيف استقبل المنذر أضيافه ،وكيف أعد لهم منزلاً خاصاً يقيمون فيه، فقولي لي يا سيدتي العمة . متى كانت كوكب بنت جبلة تهتم لاضياف الملك وتنتظر الرجـــال حتى مطلع الفجر ارواء لغليل وصيفة أحبت المنذر ولا وصول لها اليه ؟؟ وكيف تقبلين يا سيدتي، ان تصبح وصيفة القصر المرأة الاولى في غسان ، وتمسي بنت الملوك وربة القصور المرأة الثانية ؟؟ ألا تعلمين ان نساء بني هنب كلهن لا يصلحن لبنت جبـــلة جواري . ففي أي وصف تصبح بنت جبلة عندمـا تصير سليمى ولية العهد ؟؟ اذكري يا سيدتي نسب اجدادك ، ولا تغرك الدموع تذرفها فتاة تطمع بالجلوس على العرش . فان الغريبة صاحبة الادب والنسب اذا هي لبست التاج حنت لك رأسها المتوّج لا تجسر ان ترفعه كبراً وتيهـــاً

عاشري سفانة يا سيدتي وامتحنيها . فاذا رأيت انها لا تصلح لي . فاطعني فيها ما شئت واشتغلي عندئذ لحساب من تريدين من بنات البلقاء وحوران ذلك أشرف لبنت الملك من حكم تصدره لهوى في الصدر وغاية في النفس

اني سأتزوج سفانة اذا رضي الملك فرضاه قبل كل شيء ،وان لم يرض فلا يحدثني احد بعد ذلك بالزواج . فقولي لسليمى يا سيدتي ان تتناسى غرامي والا فدعيني أطلعها . بجرية وجلاء على امري . لاني اريد من الان ان اضع حداً لكـــل ما يقال حول المنذر بن الحارث وسفانة بنت زهير

انا اعلم انك تحبينني كما تحبين الملك . فأسألك بحق هذا الحب ان تكوني لسفانة اماً ترد عنها سعاية المفسدين

ثم التفت الى حليمة وقال :

وانت يا اختي ماذا تقولين ؟

وكانت حليمه رصينة هادئة . وافرة الادب حسنة الرأي . تشبه عمتها في الملامح . ولها ولعلها في ركوب الخيل واقتناء السلاح ، ولكنها لا تهتمّ لمثل ما تهتمّ له كوكب من تبرجٍ ودلال

والشعب الغساني بما فيه من قبائل وعشائر ، يحب حليمه كما يحب المنذر وهي تكاد تكون المرجع الوحيد في حوران والبلقان . لكل فقير ومظلوم ، ولها الفضل الاكبر على الدولة وعلى الجيش لم يكن يمشي الى الحرب الا وحليمة بين صفوفه ، تحمل له المسك والطيب ، وتبث الحمية في صدور الرجال

وفي جناح القصر المختص بحليمه ، أكثر من مئة عبد وغلام ، يبرون السهام للجنود ، واكثر من الف رجل يحملون في الحرب هذه السهام فيوزعونها بامر حليمه على افراد الجيش

لاجل ذلك ، لم تكن كثيرة الاختلاط برجال البلاط ونسائه ، بل هي لا تعرف من احوال القصر الا ما ينقله الملك او انجاله ، او احد غلمانها من اخبار .

فلما سألها المنذر رأيها قالت :

اني قبل كل شيء ، احب ما يحب ولي العهد ، واكره ما يكره ،

واعتقد ان عمتنا الاميرة لا تريد لنا الا الخير ، فاذا كانت احبت ان تجعل سليمى زوجة لك ، فذلك لانها بنت امير من خاصة الملك لها أدب النفس والجمال ، لا لانها افضل للعرش فقضية العرش مختصة بالرجال لا بالنساء .

تقول الاميرة انها لا تعرف سفانة ، كذلك انا لا اعرفها ، فكيف نستطيع نحن الاثنتين ان نبدي لك رأياً في فتاةٍ لم يرها الملك ولم تخرج بعد من منازل الاضياف ؟

لو كلفني الملك ان اختار لك عروساً من بنات الامراء ، لفعلت كما فعلت سيدتي الاميرة ، اي لاخترت لك سليمى بنت ثعلبة لاني لا اعرف في غسان فتاة احسن منها وجهاً ، واما انك عاشق وتلك التي تعشقها آية في الجمال وهي تصلح للعرش فذلك شيء آخر ، وليس لنا ان نقول كلمة قبل ان نراها ، ومع ذلك ، فلنفرض اننا نعرفها وهي مثال المحاسن والاخلاق ، فمن يجسر قبل الملك على ابداء الرأي في قضية تختص بعرشه ؟

ان سليمى تحبك يا اخي حباً لا تعرف القلوب اصدق منه ، فلما نصحت لها الاميرة بالرجوع عن هذا الحب كانت قد استرسلت فيه ، ومنذ ذلك الحين، وهي تبكي املها الضائع، وشبابها الذي يذيبه الغرام ،

ولقد رأى كل من في القصر ، ان الملك يهمّ للقضاعيين ، ثم تهامسوا يقولون ان المنذر احب ضيفته ، ثم صار هذا الهمس اشاعة تناقلتها الافواه ،

فقالت الاميرة في نفسها ، اذا كان لا بدّ للمنذر من الزواج فليس

افضل من سليمى ، وانت ترى يا اخي انه خاطرٌ فجائي خطر للاميرة ، فراحت تسعى له عند الملك، وهي تعتقد انها، في وقت واحد ، احسنت الاختيار لولي العهد ، وعرفت كيف تكافىء وصيفتها التي اخلصت لها الخدمة والحب ومن اين للاميرة ان تعلم ، ان المنذر يمسي ، في مثل هذه السرعة ، العاشق الصب الذى لا يقبل في حبه رجاءً ولا يسمع رأياً ؟؟

اذن فالاميرة لا تستحق اللوم، لا سيا وقد غيرت رأيها وهي تنتظر مثلنا ان تقابل سفانة فتحكم لها او عليها ،

— : ولكن ذلك لا يكفي يا حليمة ، فانا لا اريد ان تطمع سليمي بحبي بعد الآن

— : ذلك من شأن الاميرة ،

قالت كوكب : لا ، بل ابعثها اليك ، وانت تنصحين لها باسلوبٍ لا يجرح قلبها الولهان ،

— : ومتى يكون ذلك ؟

— : الآن فانا ذاهبة الى القصر ،

ولما خرجت الاميرة قال المنذر لاخته :

والله لولا هذا التقلب الدائم في طباع الاميرة، لكانت احسن النساء، ومع ذلك فانا احبها

واخذ المنذر يحدث حليمة ، ويصف لها جمال حبيبته الحسناء ، حتى اقبل الحاجب يستأذن لسليمى ، فخرج من باب آخر وانصرف الى لقاء جفـــال

وأطلعت سليمى اباها واخاها على كل ما دار بينها وبين حليمة بنت الملك وهي تبكي وتصعد الزفرات

فقال عاصم : تقولين ان المنذر يعشق بنت جنـــاب ، وأنا أعلم ان المنذر متى اراد أمراً مضى في تنفيذ ذلــك الامر لا تغير له الحوادث عزماً ولا يهتم لما يقال حوله، فدعينا من هذا الحب اذن، واعلمي ان لذة العيش لا وجود لها عند أصحاب العروش ، فامير من أمراء العشائر ، خير لك من ولي العهد

فهز ثعلبة رأسه وقال :

ان المنذر الذي ارضعته امك ، وعلمنـــاه ركوب الخيل وصنوف القتال ، ودافعت عشيرتنا عن عرش اجداده اكثر من جيلين ، ان هذا الامير لا يعرفنا الا في ساحة الحرب ...

فقاطعه ابنه قائلاً: ان الحب لا يؤخذ بالسيف يا ابي ، بل هو عاطفة في القلب .

قال: اجل ، وهكذا نحب عرش الغسانيين يا ابني ونموت في سبيله، ان حبنا ايضاً عاطفة في القلب ...

واختلى ثعلبة في ذلك الليل بشيخ البــلاط ، قيس بن ثابت ، ولم يعرف احد ما دار من الاحاديث بين الرجلين

- ١١ -

وبعث المنذر الى ابن سلمة ان يحضر

فلما مثل بين يديه وقال :

تصحب سفانة غداً قبل الظهر الى مجلس الملك ، وتقف عند الباب فتسمع الحديث كله وتنقله الي كما ورد لا تنقص منه كلمة

فغمز جفال بعينيه وقال :

ولابن سلمة يا مولاي ، ذاكرة عجيبة تحفـــظ الشعر والروايات والاحاديث لا يفوتها من ذلك شيء

قال ذلك وانثنى يريد الذهاب

فاستوقفه المنذر وهو يضحك من حركاته وقال :

اتأذن لنا يا ابن سلمة ان نسألك مرة ثانية عن سفانة ؟

قال : انها صحيحة الجسم مريضة القلب

فضربه المنذر بحمالة سيفه وقال له :

قلت لك غير مرة اني لا أحب هذا المزاح

فقال جفـــال . اني لا امزح يا مولاي بل اقول الجد، واقسم لك برأس الملك ان سفانة تهواك وانت تهواها ، وابن سلمة شيطـــان يرى

صورة هذا الهوى في عينيك ، ويقرأ على جبينها سطور الغرام ... افلا تذكر يا مولاي انك بحت بهذا الحب ؟

انا ، ومتى كان ذلك ؟

اراك كثير النسيان يا مولاي ، ومع ذلك ، فما هي الغاية من هذا الكتمان وانا الخادم الامين على اسرار المحبين ؟

فابتسم المنذر لخادمه الخفيف الروح وقال :

اني لا احب كتمان حبي يا جفال ، فالحب اذا كتمته الصدور باحت به العيون ، ولكني اكره ان يتحدث الناس بهـــذا الحب ، قبل ان تعترف به سفانة اعترافها الصريح ، بل قبل ان يقول الملك كلمته ويرى رأيه فيه

لقد اطلعت الملك على غرامي ، وانا اعتقد انه سيستدرجها غداً الى الاقرار ، فتعترف له بحبي ام بحب سواي ، ان الملك ليستطيع بمـــا عنده من دهاء ، ان ينتزع سرهـا ويستطلع امرها ، فاحذر ان تقول لسفانة شيئاً من هذا لاني اريد ان يفاجئها الملك بحديث الحب فتبوح له بكل شيء ، فتسمع انت اعترافها وتنقله الي كما قلت

ـ : واذا غلب الحيـاء سفانة فلم تعترف لابيك بهواها ، افيكون حياؤها دليلاً على حبها سواك ؟

ـ : انك بسيط القلب يا ابن سلمة ، فـــالملك الذي يعرف كيف يحمل عدوه على الاعتراف له بسره ، يعرف على الاقل ان يحمل سفانة على الاقرار له بكل شيء وعلى كل حال ، ستعرف غداً اني مصيب فيما

تصورت ، فاذهب الان ، وكن عند حسن ظني بك ، فانا افضل ان تبوح بهواها للملك على ان تبوح لي

— ثم قال : قل لابن جناب وولديه ان الملك يجلس للناس غداً بعد الظهر وهو يدعوهم اليه

ثم اشار اليه بالانصراف ، واستلقى على فراشه وهو كثير الاضطراب

• • •

وباتت سفانة في ذلك الليل تتمشى مع ليلى في فنـاء المنزل ، وهما تنتظران جفال بن سلمة

واقبل جفال ، فبادرت ليلى الى سؤاله قائلة

ماذا يريد الامير يا جفال ؟

فأراد ابن سلمة ان يكتم خبر مقابلته الامير ، فقال :

ليس الامير الذي دعاني اليه بل الملك

قالت : وماذا يريد ؟

امرني بأن اصحب سفانة غدا الى مجلسه لا يكون معها احد غيري

فحدقت سفانة الى ليلى كأنها تسالها عن المنذر

فقالت ليلى لجفال :

أيكون ولي العهد مع الملك ؟

قال : لا اعلم ، ولكني ارجح ان الملك يكون وحده ، وسيقابلها في قاعة مجلسه الخاص

فاطرقت سفانة وهي تفكر في هذا الاجتماع السري الذي اراده الملك

ثم مشت الى المنزل فرأت اباها واخاها عامراً في الرواق فقالت :

ان الملك يدعوني غداً الى مجلسه الخاص ، دون ان يصحبني اليه غير ابن سلمة ودون ان يكون في مجلسه احد سواه ، افتستطيع يا ابي ان تعرف معنى هذا الاجتماع ؟

فأطرق زهير قليلاً ، ثم رفع رأسه وقال :

ومن يدري يا ابنتي ما هو فكر الملك في ذلك ؟

فقال عامر : اعتقد ان للامير ولي العهد راياً في هذا ،

قال زهير وماذا تعني ؟

قال : اعني ان المنذر يحب سفانة، وقد رايته ينظر اليها نظرات يشع فيها حبه ، ثم رايت ابن سلمة وهو يستقبل الاضياف باسم الملك ، يكاد يكون لنا عبداً في ترحيبه بنا ، واحترامه ايانا ، ورايت كل ما حولنا ينطق بعناية خاصة لا يبذلها الملك لاضيافه ، ورايت الامير يرسل ليلى وهي من بنات الاشراف ، لتخدم سفانة ، ورايت الملك نفسه ، يحسن استقبالنا ، ويأذن لنا في الجلوس ، ويسألنا راينا في شؤون دولته، وهو لا يعرف عنا الا ما يعرفه رواة العرب ، من اننا امراء خسرنا الاماره فهجرنا بلادنا نطرق ابواب المحسنين ، ثم رايت سفانة تدعى لتقابل الملك، وانا لا اعرف الملك غرضاً مع فتاة لم يرها احد قبل اليوم في حوران ، وهي ليست مغنية ولا شاعرة تتناقلت غناءها وشعرها القبائل فأراد الحارث ان يضمها اليه ، افتظن يا ابي ، ان الملك يفعل كل ذلك دفعة واحدة مع قوم غرباء لولم يكن هناك خاطر عزيز عليه يجاريه ويراعيه؟

وكان ابن جناب يحترم رأي عامر ويقدره قدره فقال

اتمنى ان تصدق ظنونك يا بني

ثم التفت الى سفانة وقد استولى عليها الحياء وقال :

وانت ماذا تقولين ؟

فرأت سفانة ان تطلع اباها على سرها فقالت :

اجل يا ابي ان المنذر يحبني وقد طارحني هذا الحب ...

ـ ومتى فعل ذلك ؟

ـ ليلة وصولنا الى هذا المنزل .

ـ وانت . اتحبينه ؟

فترددت سفانة قليلا في الجواب ثم قالت :

واي فتاة تبصر المنذر ولا تحبه ؟

فهز ابن جناب رأسه وقال :

اتعلمين يا سفانة . ان الامر خطير وان الامير الذي تحبين اوسع امراء العرب سلطاناً واعظمهم شأناً ؟ وان في اسرته وفي بلاده الغواني الحسان يبذلن ارواحهن في سبيل نظرة واحدة يرمقهن بها ولي عهد الحارث ؟

ـ اعرف ذلك يا ابي .

ـ واذا اعرض المنذر عنك بعد استرسالك في هواه ؟

ـ لقد استرسلت في هذا الهوى يا ابي ولم يبق فيه من مزيد واني لا اظن الامير يقدم على خداع فتاة تحبه حتى الموت . وهو امير في نبالته واخلاقه .

فايقن زهير عندئذ ان الجدال في هذا الحب امر لا خير فيه .
فدعا ولديه . وانفردوا في احدى الغرف يتشاورون في الامر .
قال زهير ـ اني اخشى كثيراً ان يثور لهذا الحب غضب الملك .
وقال قيس ـ واذا غضب الملك فاستعدوا للرحيل
فقـــال عامر ـ لقد نفذ السهم الان ولا حيلة لنا في رد ما وقع فلنقابل سفانة الحارث ونحن نسهر عليهـا في غرامها لئلا تحرقها نار هذا الغرام . فاذا نهاها الملك عن حب المنذر وكلنا امرها الى ليلى بنت سلمى لتقنعها بالعدول عنه . وان رضي فليس لنا ان نطمع في غسـان . باكثر من ان نصاهر الحارث بن جبلة .

ويخيل الي ان ولي العهد اطلع اباه على امره فدعا اليه سفانة ليخبرها فيرى اذا كانت تصلح له . ثم يعمد بعد ذلك الى درس احوالنـا من وجه آخر . يبعثني انا الى الحيرة استطلع امور بني لخم . ويرسل قيساً الى قلب الجزيرة يأتيه باخبار العرب . ويجعلك انت يا ابي من رجـال مجلسه حتى نعود وانا اعتقد انه لا يفعل شيئاً من هذا قبل ان يقابل سفانة . فهي الاساس التي يبني عليه حكمه وفي يدها الآن امر حبها وامر بقائنا في حوران .

ـ قد يكون ذلك يا بني ولكني خائف
اتخاف الملك ؟

ـ نعم . اخاف الملك . واخـاف من الحيرة . ان الارض والهواء والنخيل والفضاء . كلها في الحيرة عيون لابن مـــاء السماء . فهو الملك الجبار الذي لم يتوّج في العراق ملك اعظم منه واكثر عملاً. اجل اني لا

اعرفه . ولكنه ادهى من الملك الحارث نفسه وابعد ذكراً . هكذا يقول الرواة وشيوخ العربان فاذا اشتبه فيك رجاله وقبضوا عليك فالى اي مصير تصير يا بني ؟ ان قلبي يحدثني بشر . فلنترك حوران ونرحل الى فلسطين قبل وقوع الشر الذي اخشاه

— وكيف نرحل يا ابي والملك لم يأمرنا بالرحيل ؟ لقد امسينا الآن ضيوف الملك . فعلى الملك نفسه ان يقول لنا ارحلوا . والا فهو فرار شائن لا يليق بنا ولا يقدم على مثله الامراء والاشراف . ان بقاءنا في حوران الآن امر لا بدّ منه وقد بلغ سفانة امر الملك فعليها ان تطيع وتجتمع به . وليفعل الملك بعد ذلك ما يشاء .

اما الحيرة فليس فيها ما يبعث الخوف الى القلوب كما نظن فهي عاصمة العراق يفد عليها الناس افواجاً كل يوم . كما يفدون على صنعاء عاصمة اليمن . وكما يفدون على حوران . ولست اول من يزورها من الغرباء اذا ارسلني اليها الملك كما قال .

فوافقه قيس في الرأي وقال :

ولا يجوز ان نعد الملك ونخلف الوعد . فاذا رأى الملك ان يرسلنا الى الهند فنحن اول من اطاع ولو كان في طاعتنا الموت .

ودخلت سفانة . فقال لها زهير :

كوني يا ابنتي بحضرة الملك مثالا للادب . واعلمي ان بقاءنا في حوران هو في يدك . اذا انت عرفت ان تجعلي الملك عوناً لك في الحب الذي تعانين .

وقضت سفانة ليلتها وهي تناجي طيف الحبيب .

- ١٢ -

سفانة عند الملك

وفي صباح اليوم الثاني — بينما كان بارق وجنــــدل عبدا زهير — يعلفان الخيل في منزل الاضيـــاف ابصرا غلامين يقودان فرساً ادهم . عليه سرج من جلد النمر مذهب الاطراف وفي عنقه قـــلادة من العاج تتدلى منها خيوط الذهب وعلى جبهته قطعة من نحاس بحجم الكف نقشت عليها صورة الاسد .

فدهش العبدان لمنظر الفرس واقبلا يتفرجان عليه .

فقال احد الغلامين :

اين ابن سلمة ؟

فقال جندل : هو في المنزل . فماذا تريد ؟

— قل له ان بالباب رسولا من قبل الملك .

فدخل جندل وقال لجفال : بالبـاب غلامان يقودان فرساً ادهم . وهما يقولان انهما رسولان من قبل الملك .

فخرج ابن سلمة وتبعته ليلى . ثم لحق بها زهير وبنوه

فقال ابن سلمة للغلامين

أأنتما رسولا الملك ؟

فاجاب احدهما قائلًا : نعم. وقد ارسلنا الملك اليك نقود هذا الفرس ليركبه الضيف الذي ينتظره عند الظهر . ونحن وانت نمشي بركابه حتى يصل الى القصر الابيض .

– كذبت فهذا فرس المنذر ...

– لا نعلم . فهكذا يريدون ان نقول .

– حسناً فانتظرا

وعرف القوم انه الفرس الذي كان يركبه المنـذر في ذلك السهل . فهمس عامر في اذن ابيه : انه لدليل جديد عـلى عناية الملك باضيافه ...

ثم عادوا الى المنزل . فقال عامر لجفال :

اظن ان ولي العهد يفضل هذا الفرس على جميع افراسه

فضحك ابن سلمة وقال : للمنذر وحده عشرون فرساً كلها من جياد الخيل الباز . والنعامة . والابلق . والشهباء . الى آخر مـــا هنالك من الاسماء . ولكنه يحب الخطاف « اسم الفرس الادهم » ويؤثر ركوبه ولا يأذن لاحد ان يعلو ظهره . كما ان الخطـــاف لا يأذن لفرس من الافراس ان يتقدمه في ميادين السباق . وساحات القتال .

– وكيف يأذن اليوم لسفانة ؟

ذلك سؤال لا يحسن الجواب عنه الا المنذر ..

وجلسوا يتحدثون حتى قربت ساعة المقابلة . فقال جفال لسفانة : قومي يا سيدتي فقد قرب الظهر .

فمشت سفانة الى الادهم فركبته . ومشى ابن سلمة امامها . والغلامان عن الجانبين

• • •

وتلتفت سفانة وهي تسير في اروقة القصر لعلها ترى المنذر . فلم يقع نظرها على غير الغلمان والحراس ينحنون امامها كما ينحنون لبنت الملك واخته .

وكان جفال قد عرف ان المنذر هو الذي اوعز لحراس القصر ان يستقبلوها استقبال الملكات .

فقال : انظري يا سيدتي هذه عناية المنذر في كل ما ترين . فكأنه يريد ان يجعلك ربة قصره قبل ان تجلسي على العرش ... ثم ذكر ان المنذر اوصاه بالكتمان فقال : ولكن من عادة الحراس ان يحيوا الاضياف القادمين لمقابلة الملك ...

اما سفانة فلم تسمع ما قاله ابن سلمة . انها كانت من جهة تفكر في الموقف المهيب بين يدي الملك الحارث . وهي من جهة اخرى . مضطربة القلب لتحجب المنذر . لا تعرف معنى لتحجبه غير القسوة والجفاء .

• • •

لم يطل انتظار سفانة . فقد فتح باب القاعة الكبرى من الداخل . وقال الغلام الذي فتحه :

ان مولانا الملك يأذن لضيفه في الدخول ويأمر ابن سلمة بانتظاره قال هذا ومشى امام سفانة . فمشت سفانة وراءه فاجتازا القاعة الكبرى الى رواق فيه الاعمدة السود . الى قاعة صغيرة بابها مفتوح . لا يحرسه احد من الحجاب . فقال الغلام :

ادخلي يا سيدتي .

فدخلت سفانة. فرأت في صدر القاعة رجلًا ابيض اللون كبير الوجه. شارباه صغيران وخطهما الشيب . وعيناه صغيرتان كعيني النسر ولكنهما احد . جالساً على وسادة من الخز تشبه الفراش . وعلى ركبته طائر احمر بحجم الببغاء يعبث بريشه . ويطعمه زبيب العنب من وعاء الى جانبه . والطائر يأكل ثم يضرب بمنقاده تلك الاصابع التي تطعمه .

والى جانب الرجل . فتاة مشرقة الجبين في يدها رق صغير تقرأ ما كتب فيه اما الرجل فهو الحارث العظيم . واما الفتاة في بنته حليمة

فانحنت سفانة وقد امتلأت نفسها هيبة

فحدق الملك وابنته الى هذه الفتاة التي ملكت قياد المنذر فدهشا لجمالها الملائكي وللسحر المنبعث من عينيها السوداوين

وظلت سفانة مطرقة حتى سمعت الملك يقول :

أأنت سفانة بنت جناب ؟

فرفعت رأسها وقالت : نعم يا مولاي .

فاشار اليها بالجلوس وقال :

كيف ترين هذا الطائر يا سفانة ؟

ـ انه طائر جميل يا مولاي .

قال نعم . ولكنه يجلس على ركبتنا . ويأكل من يـدنا . ثم يقابل احسانا بنقداته المؤلمة ... انه كبعض الناس خبيث النفس ناكر الجميل .

ـ اذن ليس هو بطائر عربي يا مولاي ...

فاعجبه جوابها وقال : لا انه من الهند اهداه الينا قـائد من قواد الروم . وهو كثير الغنج والدلال لا يأكل الا من يد الملك

قالت : اذن فهو يحب الملك وقد تكون نقداته يا مولاي دليلاً على الشكران

قال الملك : ولكنه شكران يجرح الاصابع ...

ـ تلك طبيعته يا مولاي . لو نطق لحدّث الناس بجود الملك

فهز الملك رأسه وقال :

كثيرون الذين يتحدثون بجودنا وليس عنـدهم وفاء ... وكم عمرك يا سفانـة ؟

ـ يقولون اني في السادسة عشرة يا مولاي

ـ واين نشأت . افي نجد ام في البحرين ؟

ـ ولدت في البحرين . ثم لما عاد ابي الى اليمن ونجد عدت معه .

ـ وهل تذكرين شيئاً من حروب ابيك في نجد ؟

ـ لا يا مولاي فقد كانت تلك الحروب قبل ان اولد . ولكني شهدت واقعة واحدة بين تغلب وبكر .

– لقد كثرت الوقائع بين القبيلتين وطال امر الحرب بينهما . فقولي لي اتحسنين ركوب الخيل ؟

– نعم يا مولاي كما يحسن الناس المشي على الاقدام

– واين اقمتم في اليمن ونجد بعد عودتكم من البحرين ؟

– كان لابي في ايام عزه اصحاب كثيرون يا مولاي يسفكون دمهم في سبيله . فلما طلقه العز واصبح شيخاً لا قوة له . قلّ هؤلاء الاصحاب ولم يبق منهم الا ثلاثة شيوخ اوفياء نزلنا عليهم في نجد . اما اليمن فليس لنافيها اعداء ولكن ابي لا تطيب له الاقامة في بلاد خرجت من يد العرب . وكنت اسمعه يقول : ما اكثر الاصحاب في ايام الرخاء واقلهم عند زوال النعم .

– اذن فليقابل ابوك احساننا اليه بالاخلاص والوفاء

قالت : نحن فطرنا على الاخلاص يا مولاي . وليس لنا في حوران الا ارواحنا نبذلها في سبيل عرشك .

فاختفت فجأة ابتسامة الحارث وقال :

اني يا سفانة لا احب الاطراء والرياء . فدعي بذل الارواح للرجال فالنساء لا يعرفن ان يبذلن الا الحب

وتلك عادة الحارث كما قلنا اذا اراد الاطلاع على سر زائره سحره بابتسامته . ثم ذكّره نعمته حتى اذا طـــاب له الحديث بغته بتقطيب حاجبيه وانتقل به الى الموضوع الذي يريد دون استعداد ودون تمهيد . فهو ينصب في ذلك شركاً لا يلبث حتى يصيد به زائريه .

ولكن سفانة لم تضطرب بل اجابت بصوت هادىء :

اذا كنا نحن النساء نعرف ان نبذل الحب يامولاي. فبذل الارواح عادةً لا يطيب الا للمحبين

قال : تقولين انك في السادسة عشرة من العمر واراك خبيرةً بشؤون الغرام !

ـ لست خبيرةً بشؤون الغرام يا مولاي ولكني سمعت ... ان العاشقين يستصغرون نفوسهم ان لم يبذلوها في سبيل من يحبون ...

ـ هكذا يقولون . ولكنه قول لا يعترف بصحته الا العشاق . فهل انت عاشقة ؟

فارتجفت شفتاها ولم تجب

فقال : لا ترددي بالجواب . فالملك يريد ان يعرف كل شيء

فامتقع لون سفانة وخافت ان تبوح للملك فيثور غضبه . فقالت :

ولكني اخاف يا مولاي

ـ وممن تخافين

ـ اخاف . اذا بحت بحبي ان يغضب الملك .

فرمى الملك الطائر من حجره وقال : اذن لقد اعترفت. فمن تحبين؟

فلم تجد سفانة بداً من الجواب فقالت :

اقول وانا آمنة يا مولاي ؟

قال : لا تشترطي على الملك فقولي من تحبين ؟

– احب فتى لا اطمع بالوصول اليه يا مولاي . كما يحب المرء قمر السماء او كوكباً سياراً في الفضاء

– اذن ليس لك من وراء هذا الحب الا الجنون والشقاء

– ولكن الملك يبعث اليه الامل والرجاء ...

فاظهر الملك استغرابه وقال :

انا ؟

– نعم يا مولاي

واي شأن للملك بهذا الغرام ؟

فاطرقت سفانة وقالت :

ان للملك كلمته النافذة فيه

– اذن فانت تحبين فتى من غسان ؟

– نعم يا مولاي وهو امير الفتيان وصاحب القول المسموع في هذا القصر .

فنظر الحارث الى حليمة وقال : اراها تعني رجلا من الخاصة ولعله لبيد بن عمرو .

فقالت سفانة : اني لا اعرف هذا الرجل يا مولاي . كما اني لا اعرف احداً من رجال البلاط . ولكني اعلم ان الذي احبه هو اعظم رجال الدولة واحبهم الى الملك .

فاتم الحارث تمثيل دوره وقال :

لم يبق امامنا اذن الا جبلة او ولي العهد !..

— نعم يا مولاي ان القضاء اراد تشريفي فاحببت ولي عهدك

فبان الغضب في وجه الملك ورمق سفانة بنظرة اخترقت فؤادها وقال: اعيدي قولك يا ابنة جناب .

فقوى الحب جنان سفانة وقالت وهي لاتبالي : اعيد قولي يامولاي ان الفتاة الغريبة التي جاءت تطلب الاحسان في حوران تحب المحسن اليها ... اي ان سفانة بنت زهير تعشق المنذر بن الحارث .

فقهقه الملك ضاحكاً وقال متهكماً :

وقد نزّل الله عليك هذا الحب وانت في الجزيرة ؟

— لا يا مولاي . بل نزل عليّ وحيه من سماء حوران

— اذن حوران بلد العجائب ونحن لا نعلم

— اجل . وانه لامر عجيب ان تعشق العبدة مولاها ...

قال : وان تجرؤ بنت صعلوك من صعاليك العرب على حب المنذر امير الغسانيين !! لا . ان هذا الحب لا يكون ولا نأذن فيه . اتسمعي ان الملك لا يسمح لك بان تحبي ولي عهده

ثم التفت الى حليمة وقال :

هنيئاً لاخيك المنذر بالعروس التي ترين ...

اما حليمة فلم تقل شيئاً . ولكن عينيها ظهرت فيهما الدموع

فغضبت سفانة لابيها الشيخ وقد جعله الملك صعلوكاً من صعاليك العرب فقالت ان ابي يا مولاي اشهر من تولى الامارة في شمالي الجزيرة واشد رجل يحمل السيف في بلاد نجد . ولو كان صعلوكاً . لما جعله ملك

اليمن الرجل الاول في القبائل . ولما قدر ان يضبط امور البـدو بضع عشرة سنة بدرايته وعدله. بل لو كان صعلوكاً لما استقبله مولاي الملك في مجلسه . ولما اذن لابنته الآن في المثول بين يديه. واما انك لا تسمح لي يامولاي بحب ولي العهد فذلك امر لا تستطيعه الملوك . لان سلطانهم يتناول الاجساد فهم يقدرون ان يطردوا من بـلادهم من ارادوا من الناس وان يسجنوا ويعذبوا ويقتلوا من يشاؤون . ولكن ليس لهم ان يمنعوا القلوب من ان تخفق للحب

نعم يا مولاي. رأيت ولي عهدك ساعة فاحببته حباً نفذ الى عظامي. وانا اعلم ان الوصول الى النجوم اهون من الوصول اليه . فهو وريث تاج وانا طريدة حرب . ولكن الحب يا مولاي لا يعترف بالمراتب والالقاب بل يساوي بين اصحاب العروش والضعفاء من الناس ...

لقد كان ابي يا مولاي كبير قومه فلما جار الزمان واثقلته السنون. وضاقت بنا نجد والبحرين . جرّ شيخوخته جراً ولجأ اليك فامنع عنه احسانك ان شئت يا مولاي ولـكن احفظ للشيخ في آخر عمره ما بقي له من الكرامة ...

فقاطعها الملك قائلاً :

وكيف نحفظ له هذه الكرامة وهو نفسه قصر عن حفظها في بلاده. ومع ذلك فقد فضلناكم على جميع اضيـافنا واذنا لكم في حضور مجلسنا وسنعطيكم من المال ما يعيدكم الى ابعد من اليمن . فلا تسألونا اكثر مما نستطيع ولا تتظاهروا بحبنا والاخلاص لنا فقد عرفنا الغاية التي جئتم من اجلها الى حوران

فتراجعت سفانة مذعورة الى الوراء وقالت :

ـ وما هي غايتنا يا مولاي ؟

ـ غايتكم ان تستعيدوا في دولتنا ما خسرتموه من العز والمـــال في
دولة اليمن . فـــلا تحسبي ان الزخرف في القول يغير رأي الملك . اذا
خدعت المنذر فانخدع وهو يجهل انك الفتاة التي تتظـاهر بحبه لينال بنو
جناب عطف الملك ورضـاه . فاذهبي من امامي الآن وقولي لابيك ان
يعدّ غداً معدات الرحيل فان الملك لا يطيق ان يرى في قومـه الكذبة
المـاكرين

قال الحارث ذلك وهمّ بالانصراف

فقام في ذهن سفانة ان الامر قد انقضى ولا بـــد لهم من الرحيل
فتساقطت دموعها وانطرحت على قدمي الملك وامسكت بردائه وقالت

اضرب يا مولاي عنقي بسيفك فاني اؤثر ان يحمـــلوني الى ابي جثة
مضرجة بالدم من ان اعود اليـــه فتاة تحمل ذل الاهانة ولعنة الملك
اضرب فبنت الامراء لا تذل . والا فاقسم برأس المنذر اني اطعن قلبي
بيدي واتركه لـكم يا بني غسان اثراً ناطقاً بحبي واخلاصي

ثم رفعت رأسها وقالت لحليمة :

لقد عرفت الآن يا سيدتي انك اخت المنذر . فاسألك بحبك اياه ان
ترثي لغريبة ليس لها في حوران نصير ولا تعرف لها ملجأ الا الملك . و...
ان الملك يطردها ويطرد اباها من بلاده . واي ذنب جناه بنو جناب
سيدتي حتى استحقوا الطرد ؟ الا انهم وثقوا بعدل الحارث بن جبلة فاتوا

بلاده واقسموا منذ حضروا مجلسه ان يكونوا اعواناً لعرشه . ام لاني احببت المنذر وانا لا اعرف من هو ؟ ... فـــاذا كان الحب ذنباً فانا ساكفر عن هذا الذنب بان اقتل نفسي فيستريح الملك وولي عهده . وليبق ابي في حوران فهو شيخ كبير السن طاهر الخلق لم يوص بنيه بعد قدومه حوران الا بطاعة الملك والاخلاص لتاجه ...

لقد كذب الذي قال لك يا مولاي اننا مـــاكرون . فنحن قوم شيمتهم الصدق والوفاء . وليس في جزيرة العرب . حيث تكثر الاعداء والخصوم من يتهم ابن جناب بصدقه في الثمانين سنة التي عاشها بينهم

انك تحكم يا مولاي بنفسين بريئتين من حيث لا تريد . فابن جناب عندما يبلغه امر الرحيل يموت من قهره وسفانة المنطرحة على قدميك لا تخرج من هذا القصر الا الى القبر . فارجع عن امرك يا مولاي واستبق ابي لمجلسك فهو رجل الرأي واخوي لعدوك فهما رجلا الحرب . واجعل سفانة لخدمتك فقد لا تجـد يا مولاي بين نساء قومك من تبذل نفسها مثلي في سبيل عرشك . ولا تخشى ان تزلزل الارض زلزالها من وجودنا في حوران ...

وكان صوت سفانة المتقطع يفعل كالسحر في قلب حليمـة فتناثرت دموعها وحدقت الى ابيها تنتظر جوابه

وكان الملك في اثناء ذلك واضعاً يدية وراء ظهره وهو واقف كالصنم يصغي الى الفتاة .

فايقن بعد سماعه رجاءها ان اخلاصها لا ينطبق صـــدر على اصدق منه . فقال في نفسه ان المنذر لا يتزوج افضل من هذه .

ولكنه عاد الى التجاهل فقال لحليمة :

ومن يضمن لنا انها صادقة فيما تقول ؟

فمسحت حليمة دموعها وقالت : انا يا مولاي

قال – احذري يا ابنتي فالامر اعظم مما تظنين

قالت – مهما تكن عظيماً فقد رضيت بالضمان

قال – بقي علينا ان نسأل المنذر رأيه

– ان المنذر يوافق على كل ما يأمر به الملك

– ومن قال لك ذلك ؟

– المنذر نفسه يا مولاي . واعترف لي بانه عاشق

فبدت على وجه الحارث دلائل الاستغراب وقال لسفانة :

وانت . هل اعترف لك المنذر بشيء ؟

– نعم يا مولاي ولكني لم اجسر انا الاعتراف له بحبي قبل ان يصرح الملك برضاه

فوضع الملك يديه على رأسها وقال :

انهضي اذن فقد رضي الملك ...

فجثت سفانة على ركبتيها واخذت تقبل رداء الحارث وهي تبكي وتصعد الزفرات .

ولكن قلبها كان يرقص في صدرها من شدة الفرح

ثم انثنت الى حليمة لتشكرها . فضمتها حليمة الى صدرها وقالت :

لقد احببتها يا ابي كما احب المنذر .

فتحول ذلك الملك الحديدي الغضوب الى رجل طلق المحيا باسم الثغر وقال ولكنك جاوزت الحد في الحب . ومع ذلك فنحن نحبها اكثر مما تستحق ... قومي يا سفانة .

فنهضت سفانة وهي لا تبصر احداً من كثرة الدموع

ثم قال : انك كريمة الاصل يا سفانة تستحقين عطف الملك وحب المنذر . فعودي الآن الى ابيك وقولي له ان يحضر مجلسنا اليوم فنحن بحاجة اليه ولكن احذري ان تبوحي له او لاحد من الناس بما جرى بينك وبين الملك فللملك الآن غاية في الكتمان . ومن الآن الى ان يقضي الله امره تقيمين مع حليمة في هذا القصر . وتكونين لها اختاً . اذهبي وعندما يجيء ابوك الى القصر ترجعين معه بحجة انك ستقابلين بنت الملك

فدعت سفانة للحارث وقالت : واذا رأيت المنذر يا مولاي فماذا اقول له ؟

قال : قولي للمنذر ما تشائين فلا تكتم عن مثله الاسرار ...

ولما خرجت سفانة قال الحارث لبنته :

امكثي في غرفتك حتى تجيء اليك اختنا كوكب فسندعوها لترى سفانة ثم نسمع رأيها فيها بعد ذلك

• • •

اما جفال فلم يسمع شيئاً . وكيف يسمع وقد امره الملك بالبقاء في الرواق وبينه وبين سفانة القاعات والجدران

ولكنه لم يتضجر فقد ظل في الرواق يمازح الحراس ويضاحكهم حتى اقبلت عاشقة الامير

ففاجأها بقوله : لقد حسبت يا مولاتي انك صرت ملكة

فضحكت سفانة وقالت : ليس في بلاد ابن جبلة ملكات

قال : ولكنك تملكين قلوب الملوك ...

فسكتت لانها لم تشأ ان تتمادى في الحديث . اما جفال فلم يسكت بل قال :

وكيف رأيت الملك ؟

ـ انه ملك النبالة والاخلاق

وهل قابلت ربة القصر

قابلت بنت الملك . افهي التي تدعونها ربة القصر ؟

لا . فالاميرة حليمة ربة الكمال والجمال . ولكن كوكب اخت الملك هي سيدة قصره وصاحبة المكر والدهاء .

فبرز رجل من وراء احد الاعمدة وقال :

اما انت فطويل اللسان وكثير الكلام ..

فبغت الاثنان لان الرجل كان المنذر ...

ولو لم تستند سفانة الى الجدار لوقعت على الارض ...

فاقبل المنذر يصافحها وهو يقول :

لقد كتب لي ياسفانة ان احبك فلا يفصلني عنك الا الموت . افلا تعترفين الآن بانك تحبين المنذر ؟

فنظرت اليه بعينين يتلألأ فيهما الحب وقالت همساً :

وما قيمة الحياة اذا كان المنذر بعيداً عني ؟ ...

ومشى الثلاثة . وعيون الحبيبين تنطق بالحب الكامن في صدريهما
ثم التفت الامير الى جفال وقال :

اما انت ايها الخبيث فسنكرهك على السكوت .

قال : باي شيء يا مولاي

قال بان نضعك في غرفة ضيقة مظلمة لا ترى منها احداً ولا تسمع شيئاً

فقال ابن سلمة : حبذا الوحدة يا مولاي فانا اعمد فيها الى الغناء فيزداد لساني طولاً ... ولكن اذا اراد الامير فليفعل كما فعلت الاميرة ... اي فليشتر لساني بوسادة من ديباج

قال : لا تفعل في هذا اللسان وسائد الديباج والذهب الوهاج .

ولما وصلوا الى الباب الخارجي . رأوا « الخطاف » والى جانبه فرس آخر اشهب يبرق الذهب في جبهته وسرجه

فاشارت سفانة الى الادهم وقالت : هذا فرسي واما الآخر ...

فقال المنذر : « والنعامة » لي فانا حارس الشرف الذي يرافقك الى المنزل وحاول ان يساعدها على الركوب فاذا هي على ظهر الجواد . فامتطى المنذر فرسه وتقدمها ابن سلمة والغلمان . والناس من الجهتين يتفرجون على الاثنين وقصت سفانة على الامير حكايتها مع الملك وهو منصت الى حديثها يكاد يذوب هوىً وغراماً

- ١٣ -

هم الملك

الاجتماع السري الخطير

وعندما خرجت حليمة من عند الملك . مشى الى حجرتـه الصغيرة واخذ يراجع ما كتب في ذلك الرق الكبير من اسماء القبائل وقد بدا الهم على وجهـــه .

واستمر ساعة من الزمن وهو يفـــكر في امر الجزيرة . ثم نادى حاجبه فلم يجبه احد . فصبر قليلًا ثم اعاد النداء ولكن الحاجب لم يسمع فقد كان مختلياً بثعلبة والد سليمى وشيخ القصر قيس بن ثابت ينقل اليهما حديث الملك مع سفانة لا ينسى منه حرفاً .

ولما رجع الى موقفه كان الملك يتمشى في غرفة نومه وهو مفكر مضطرب . وقد نسي انه نادى حاجبه مرتين وهو بحاجة اليه

ثم وقف الملك فجأة وقال : من بالباب من الحجاب ؟

فاقبل ذلك الخائن وقال : انا يا مولاي .

قال : اني بحاجة الى ولي العهد في هذه الساعة .

فخرج الحاجب وما كاد يجتاز القصر حتى عرف من الحراس ان المنذر في منزل الاضياف. فسار اليه ولما بلغ المنذر امر ابيه قفل راجعاً الى القصر وقد استغرب هذا الطلب الفجائي .

فقال له الملك : أرأيت سفانة يا ابا كرب ؟

نعم يا مولاي ونقلت الي عطف الملك

قال : لقد انتهينا من امر سفانة فلنهتم لما هو اعظم فائدة . لقد ثبت لنا ان نفوذ ابن ماء السماء يمتد اليوم الى نجد

قال : ان هذا النفوذ بسطه اجداده يا مولاي والقبائل لا يطول خضوعها لاحد

– نعم غير ان المنذر توسع في هذا النفوذ حتى اصبحت القبائل من اتباعه هكذا اثبتوا لي اليوم

ثم اشار الى موضع في الرق وقال :

هذه قبائل مضر وربيعة كتبها قيس بن ثابت انظر انها اكثر من ثلاثين قبيلة يسود معظمها المنذر اللخمي وفيها الرجال كرمل البحر يحاربون تحت لوائه وكلهم اشداء . فهب ان المنذر فاجأنا بهؤلاء الرجال فكيف يرد قومنا هجومهم بل كيف نستطيع ان ندافع عن بلادنا ونحن لا نبلغ الاربعين الفاً في حين ان رجال القبائل وحدهم يجاوزن المائتي الف . افلا ترى يا بني ان واقعة واحدة تهدم هذا الملك الذي بنيناه وتقضي على بني غسان ؟

ففكر المنذر قليلاً وقال : وكيف يرضى ابن ماء السماء ان تتحارب هذه القبائل الخاضعة لنفوذه ويفني بعضها البعض الآخر ولا يستعمل هو هذا النفوذ لاطفاء نار الحرب ؟

فهز الملك رأسه وقال : وكيف يطفىء هذه النار وقد يكون هو موقدها ؟ ومع ذلك فاذا لم تكن خاضعة له خضوع الرعية للملك فهي تشهر السيف في وجه اعدائه وفي ذلك ما يكفيه

- تريد ان تقول يا مولاي انهم متحالفون

- اجل . وهذه المحالفة هي التي تستوجب النظر .

قال المنذر اما حلفاؤنا فاعظم نفوذاً واكثر عدداً

- قال : ومن هم ؟

قال : الروم يا مولاي . نستعين بهم على المنذر اذا هو استعان بالقبائل

قال : ولكنك نسيت اننا لا نريد ان نستعين بالروم في حروبنا مع العربان . نعم نحن حلفاؤهم ولكن لاجل ان يستعينوا بنا على الفرس وعلى من يتمرد من العمال . ومع ذلك فاذا اكرهتنا الحرب على الالتجاء اليهم فكيف يبعثون الينا جنودهم وهؤلاء الجنود منتشرون في السهل والجبل وعلى شواطىء البحر من ضواحي انطاكية الى فلسطين . وقوادهم يشغلهم الفتح وحماية الحدود والثغور وكسرى اعظم انصار ابن ماء السماء يفاجئهم بجيشه من حين الى حين ؟ ولولا كسرى . لو لم يكن هذا الملك الواسع السلطان نصير للمنذر . لما كنا نحن الغسانيين عمالاً للروم . ولكن اللخميين لجأوا من قديم الزمان الى دولة الفرس

وامسوا لهم عمالاً . فلجأ الغسانيون الى الروم بحكم الاضطرار لتكون من خلفهم دولة كبرى تقف في وجه الاعجام . على اني لا اهتم لجنود الفرس بعدما خبرت حربهم وشهدت قتالهم . ولكن همي . الهم الذي يكاد يقتلني. هو ان ارى معظم القبائل في نجد. وعهدي انها قبائل مستقلة لا تخضع لملك اجنبي. تمسي عوناً لابن ماء السماء وتنضم الى جيشه العراقي في ميادين القتال . نعم ان ملك العراق لا يقدر ان يتخذ القبائل جميعها عوناً له في ميادين القتال . نعم ان ملك العراق لا يقدر ان يتخذ القبائل جميعها عوناً له في حروبه . ولكن يكفيه انتكون قبيلتا تغلب والنمر ابن قاسط مواليتين له فيصبح بعد قليل . بفضل هاتين القبيلتين . وبالدسائس التي يدسها اعوانه . سيد القبائل جميعهافي نجد فيطوق الجزيرة بجنوده ويخضع بالسيف ملوك كندة وكل امير لا يعترف بسلطانه . ومن يدري فقد يخلع الملك الحبشي عن عرش اليمن ويعيد اليه ملكاً من حمير يجعله آلة في يده . انها الحالة كثيرة الخطر يا ابا كرب ولا ادري اذا كانت هذه الاخبار أخباراً صادقة ام هي اشاعات لا وجود لها الا في مخيلة الرواة الذين نقلوها. كما اني لا اعلم شيئاً ثابتاً عن حالة القبائل وعن مبلغ خصومتها او خضوعها للمنذر اللخمي. اجل ان قيس بن ثابت يعرف اصول هذه القبائل وفروعها ولكنه لا يستطيع ان يعلم استعدادها واحوالها الخاصة بعد الحروب التي نشبت بينها وغيرت ما غيرت من نفسيتها واخلاقها . وعلى كل حال . لا يكون عرشنا ثابتاً قوي الدعائم الا في واحد من امرين . اما ان تكون القبائل على الحياد واما ان تنقسم فئتين . فئة لنا وفئة للمنذر وفي غير هذا لا تسلم غسان

— و من يملي على القبائل هذا الرأي يا مولاي ؟

- يمليه فتى فصيح اللسان ثابت الجنان له في القبائل الرفاق والاصحاب
فقال المنذر : تلك صفات عامر بن زهير

قال : نعم وهو الذي نبعثه الى الحيرة ثم يذهب منها الى نجد .

- واخوه قيس ؟

- يبقى عندنا مع أبيه وسفانة ومنحسن اليهم .

- ومتى ترسل عامراً يا مولاي ؟

لا اعلم الآن . فقد دعوت القوم لاجتمع بهم بعد الظهر فيطلعني ابو عامر على ما يعرف من امور نجد . وقوة القبائل . وعلاقات بعضها مع البعض الآخر ثم نعين بعد ذلك موعد السفر .

- وهل يحضر مجلس الملك جميع الخاصة ورجال البلاط ؟

- لا . ان اجتماعاً خطيراً مثل هذا لا تباح اسراره الا لاصحاب الشأن في قصرنا ورجال الرأي مثل لبيد بن عمرو . وثعلبة ابي عاصم وقيس بن ثابت . وبني جناب . والملك وولي العهد . واخويه جبلة والحارث

واصدر الملك امره لهؤلاء الرجال بالاجتماع في قاعة المجلس بعد الغذاء

• • •

قالت سفانة ان الملك امرني يا ابي بالرجوع الى القصر الابيض لاقابل ابنته الاميرة حليمة

قال : اذن تذهبين معنا الآن وتمكثين عندها حتى يأذن الملك في الانصراف فنعود .

قال عامر : يخيل اليّ ان الملك يدعونا اليه ليباحثنا في امر يهمه

ـ وانا ارى رأيك يا بني فماذا تظن ؟

ـ اظن ان الحارث يطمع بنجد ويحاول ان يسبق ابن ماء السماء في بسط نفوذه على الجزيرة كلها . وهو يقول في نفسه الآن . ليس في البلقاء وحوران من يطلعني على شوون العربان . مثل زهير بن جناب الذي عاش بينهم وخبر امورهم . وعرف ساداتهم وعبيدهم . ودرس عاداتهم وميولهم . افلم تسمعه يتحدث عن المنذر والشرر يتطاير من عينيه وكلما ذكر نجداً بدا الطمع باجلى المظاهر على جبينه ؟

ـ اجل : وهذا هو رأي ابيك يا عامر

ـ وبعد ذلك . يبعث الملك بالرجال الى نجد يـــدعون القبائل الى طاعته . ويعملون على نشر نفوذه .

فقال زهير : ولكنها مطامع لا تصدق .

قال . احذر ان تنصح للملك بالعدول عن رأيه فنحن ضيوف ولسنا اصحاب الرأي

• • •

عندما وصل بنو جناب الى القصر الابيض . ادخلهم الحجـاب الى القاعة الكبرى واخذوا سفانة الى ذلك الجناح الذي تقيم حليمة في حجراته

وكانت حليمة بانتظارها وعندها كوكب شقيقة الملك

فلما دخلت سفانة . مدت حليمة يدها فصافحتها وقالت لكوكب : هذه بنت زهير بن جناب يا سيدتي الاميرة . ثم قالت لسفانة : وهذه الاميرة كوكب بنت الملك جبلة واخت الحارث

فذكرت الفتاة عندئذ قول ابن سلمة « انها صاحبة المكر والدهاء » ولكنها لم تتردد في موقفهـــا . فتقدمت ولثمت يدها وتراجعت تنتظر الاذن في الجلوس

ومن حق حليمة ان تأذن للفتاة في الجلوس . ولكن عمتها سبقتها الى ذلك وقالت :

كيف رأيت حوران يا سفانة ؟

فقالت ولم تتلعثم : ان بلداً يسوده ملك مثل الحـارث بن جبلة لهو احسن بلاد الناس .

قالت : وماذا لقيت عند الغسانيين ؟

ــ رأيت وجوهـاً تضحك للضيف . وقصوراً تعد لنزوله . ورأيت الملك يعطف على الغرباء ويبذل لهم امواله

ــ افلم تري غير الملك ؟

فعرفت سفانة ان الاميرة تستدرجها الاقرار فقالت : رأيت ولي عهده والاميرتين بنته واخته

ــ لقد قيل لي انك عرفت ولى العهد قبل ان تعرفي الملك

ــ بل عرفته يا سيدتي قبل ان اعرف احداً في حوران

ــ وتعاهدتما منذ ذلك الحين على الحب أليس كذلك ؟

ــ فاحمر وجه سفانه وقالت : لم يخاطب احدنا الآخر ولكن تعاهد القلبان

ــ ثم باح لك المنذر بما في صدره ؟

ـ اجل يا سيدتي وانا الان اسيرة غرامه .

اذن فانت تحبينه حباً صحيحاً لا رياء فيه

فقالت سفانه في نفسها : اراها تعمد معي الى التحقيق الدقيق كما فعل الملك ثم قالت :

نعم يا مولاتي . واحب سماء حوران التي تنبسط فوقه والارض التي تدوسها قدماه . والملك لانه ابوه . وجميع سكان البلقاء وحوران لانهم شعبه . بل احب الطير اذا صفق بجناحيه فوق قصره . والهواء اذا مر بفضاء بلاده . واحبك انت يا سيدتي لانك شقيقة ابيه .. اما الرياء فلا اعرفه . واني لانطق بالحق ولو عرضني قول الحق للموت

فابتسمت الاميرة وقالت :

وماذا قال لك الملك ؟

ـ ليس يا سيدتي ان ابوح بما قيل في مجلس الملك فالحق في ذلك للملك وحده .

ـ ولكن الملك لا يكتمني شيئاً يا سفانة

ـ اعرف ذلك يا سيدتي ولكني لست الملك .

فهمست حليمة تقول لعمتها : لا تتعبي نفسك فسفانة لا تبوح بشيء

وارتاحت الاميرة الى حديث الفتاة ولكنها لم تظهر هذا الارتياح . فقالت :

الا تعلمين يا ابنتي ان الفتاة التي تعشق الملوك تستهدف للمخاطر ؟

ـ وما حيلتها اذا هي وقعت في شرك الغرام ؟

ـ خير دواء لها ان تنسحب بنظام

ـ ولكن الانسحاب صعب يا سيدتي وخير لهـــا ان تعالج امرها بالتؤدة والصبر .

ـ واذا خدعوها ؟

ـ لا اعتقد ان ملكاً يخادع فتاة تهواه . واذا فعـل فليس هو اول الخادعين .

قالت حليمة : ولكن ملوك غسان ارفع من ذلك

فقالت كوكب : هنيئاً لك يا ابنتي على كل حال فقد خدمك الحظ ثم همت بالانصراف . فتقدمت منها حليمـــة وقالت : أراضية انت الآن ؟

قالت كل الرضى فهي احسن من سليمى بل هي اميرة الحسان

ثم خرجت تريد قصرها وهي تتمتم قائلة :

ان الحب لغة لا افهمها . ولم ترد ان تمر بالرواق الكبير كي لا ترى ثعلبة بن هنب لان تلك الاميرة الكثيرة التقلب لم تكن تريد في تلك الساعة ان تراه ..

• • •

لم يكن في مجلس الملك غير من ذكرنا . وغير رئيسين من رؤساء العشائر فلما اقبل الحارث . امر الحجـــاب فاغلقوا الابواب . ووقفوا يمنعون رجال القصر من الدخول

وتحدث معظم رجال القصر فقالوا انه اجتماع لحرب . وقال الآخرون .

لو كان اجتماعاً لحرب لدعا الملك قـادة الجيش وجميع رؤساء العشائر . ولكنه اجتماع سياسي يحضره هذا الشيخ القضاعي الذي قدم حوران منـــذ ايام .

وكانت دلائل الهم ظاهرة على جبين الحارث . فلما جلس على سريره لم يلتفت الى من حضر من الرجال بل فاجأ ابن جناب بقوله :

ايكون اللخميون ملوك العراق قضـاعيين . اي انسباء لك يا ابن جناب ونحن لا ندري ؟

فبغت زهير لهذه المفاجأة وقال متلعثماً : لقد اخطأ الذي روى لك ذلك يا مولاي .

فانبرى له ثعلبة بن هنب وقال :

ابن جناب يقول ان الملك مخطىء ..

فاسكته الملك بنظرة حادة . وحدجه بنو جناب بابصارهم ..

ثم قال الملك : وكيف يكون مخطئاً ونحن نعـــلم ان دولة الحيرة انشأها القضاعيون في اواسط الجيل الثالث؟أليس جذيمة الابرش القضاعي اول ملك على العراق ؟

فقال قيس بن ثابت : نعم يا مولاي ان جذيمة اول ملوك العراق هو من قضـاعة . .

فعرف ابن جنـاب ان ثعلبة وقيساً . وهو لا يعرفهما . يكيدان له عند الملك فاجاب وهو هادىء :

اذا كان جذيمة قضاعياً يا مولاي فخلفاؤه اللخميون ليسوا قضاعيون

فاظهر رجال المجلس الاستغراب

اما الملك فقال . وكيف ذلك ؟

قال ان جذيمة قتل يا مولاي . فانتقل الملك بعد موته الى عمرو بن عدي وعمرو هذا ليس قضاعياً بل هو من لخم . وملوك العراق يعرفون بالملوك اللخميين نسبة اليه .

فتاقت نفوس القوم الى الاطلاع على حادث القتل وقد مضى عليه ثلاثة اجيال . فقال المنذر :

ان لجذيمة حكاية مع فتاة تدعى « الزباء [1] » فهل تعرفها ؟

قال نعم . وهي توضح سبب قتل جذيمة وانتقال الملك الى سواه .

فاضطرب ثعلبة وقيس . وهمس عامر في اذن ابيه وقال : ان الملك يعرف نسب اللخميين اكثر مما تعرفه . ولكنه يستدرجك الى البحث عن قبائل تهامة ونجد .

قال المنذر : اذا اراد الملك فليأمر ابا عامر بقص حكايته

فقال : قص علينا حكاية اصحابك يا ابن جناب

قال : اذا كان اللخميون اصحاب الملك فهم اصحابي يا مولاي .

قال : الا تعرف احداً من هؤلاء الملوك ؟

ــ لا اعرف احداً منهم يا مولاي

ــ وكيف اثبتوا لنا انك صنيعتهم ؟

ــ ذلك قول كذوب نمام

---

(١) الازب الكثير الشعر والزباء مؤنث ازب

قال ثعلبة: انه لا يعرفهم يامولاي ولكنه يعرف اخبارهم وحكاياتهم..

فقال زهير : اجل كما يعرف الرواة اخبار العربان

قال الملك : ومن اطلعك على حكايات اللخميين يا زهير

حدثني بها عن ابيه شيخ من شيوخ بني اسد

اذن ماهي حكاية الزباء

فمد القوم اعناقهم ليسمعوا الحديث . الا ثعلبة وقيس فقد قدحت عيونهما شرر الحسد والبغضاء

قال زهير : كان جذيمة الابرش. ابن مالك بن فهم القضاعي[1] اول اول ملك على العراق . واول من غزا بالجيوش فشن الغارات على قبائل العرب واستولى على الحيرة والانبار والرقة وعين التمر والقطقطانة وسائر القرى التي تجاور بادية العراق[2] وكان يـــا مولاي من افضل ملوك العرب رأياً وابعدهم مغاراً واشدهم نكاية . وكان به برص . فهابت العرب ان تسميه به فقالوا : جذيمة الوضاح . وجذيمة الابرش

قال الملك : ألم يتخذ جذيمة الاصنام يستنصر بها على عدوه ؟

– كان له صنمان يا مولاي يقال لهما « الضيزنان » وموضعهما بالحيرة. فلما وثق امور ملكه . ضم اليه رجلاً من بني لخم اسمه عدي بن نصر . فاصطنعه وولاه شرابه . فابصرته رقاش اخت جذيمة فعشقته وراسلته ثم قالت له : يا عدي اخطبني الى الملك فان لك حسباً وموضعاً . قال : لا اجرؤ على ذلك قالت : اذا جلس على شرابه وحضر ندمـــاؤه . فاسقه

---

(١) المسعودي .　　　(٢) تاريخ الامم والملوك للطبري

صرفاً واسق القوم مزاجاً «اي خمراً ممزوجة بالماء» فاذا اخذت فيه الخ
فاخطبني اليه فانه لا يردك . فاذا رضي فاشهد عليه القوم . ففعل عدي
امرته به . فلما سكر جذيمة . خطبها اليه . فقال له الملك قد زوجتك
وامست رقاش منذ ذلك الحين زوجة عدي .

وفي صباح اليوم الثاني رأى الملك عدياً مضرجا بالخلوق (والخلوق
نوع من الطيب اعظم اجزائه من الزعفران كان العروسان يتطيبان به
فانكر جذيمة ما رأى وقال : ما هذه الآثار يا عدي ؟ قال آثار العرس.
قال اي عرس هذا ؟ قال عرس رقاش . قال من زوجكها ؟ زوجنيه
الملك . فضرب جذيمة بيده على جبهته واكب على الارض ندامة

قال المنذر : وما فعل عدي ؟

خرج على وجهه هارباً فلم يرَ له اثر بعد ذلك ويقولون يا مولاي
ان فتى من بني لهب قتله بين جبلين . اما رقاش فارسل اليها جذيمة
يقول شعراً :

حدثيني وانت لاتكذبيني	ابحر زنيت ام بهجين
أم بعبد فانت اهل لعبد	امبدون فانت اهل لدون

فقالت : بل انت زوجتني حراً عربياً معروفاً . فكف عنها وهو
يعلم انه المخطيء

وولدت رقاش غلاماً فدعته عمراً واحسنت تهذيبه . حتى اذا ترعرع
عطرته والبسته وبعثته الى خاله جذيمة فاعجب به وضمه اليه . ثم امر
فالبسوه طوقاً من فضة فكان اول عربي البس طوقاً

وكان ابن جناب يقص قصته وقد استلذ القوم حديثه واسلوبه . غير ان قيساً وثعلبة كانا يظهران الاستخفاف

قال : وشب عمرو بن عدي في قصر جذيمة . فبينما هو على احسن حاله . اذ استهوته الجن . فهام على وجهه في البراري والجبال . فارسل جذيمة الرسل يفتشون عنه . ويجوبون البلاد زماناً طويلًا فلم يعثروا عليه . واتفق ان رجلين من اليمن كانا يطلبانه . جلسا في بعض الطريق يأكلان ومعهما امرأة تسقيهما الخمر . فاقبل عليهم رجل شاحب عريان قد تلبد شعره وطالت اظافره . وساءت حاله . فجاء حتى جلس ناحية منهما ومدّ يده يريد الطعام . فناولته المرأة كراعاً فاكلها ثم سألها ان تسقيه فقالت « لا تطعم العبد الكراع فيطمع في الذراع » فذهبت كلمتها مثلًا (١) ثم ناولت الرجلين من شراب كان معها ولم تسقي عمراً . فقال بيتين من الشعر لا اذكرهما . فقال له الرجلان : من انت يا فتى ؟ قال : ان تنكراني او تنكرا نسبي فانا عمرو بن عدي . فنهضا اليه فضماه وغسلا رأسه وقلما اظفاره والبساه مما كان معهما من الثياب وقالا : ما كنا لنهدي الى جذيمة هدية انفس عنده ولا احب اليه من ابن اخته قد رده الله اليه . فخرجا به حتى اقبلا على باب جذيمة بالحيرة فبشراه . فسر بذلك سروراً شديداً . ولكنه انكره عندما رآه لتغير حاله . فقال الرجلان : ابعث به الى امه . ففعل . فمكث عندها اياماً ثم اعادته الى خاله فقال : لقد رأيته يوم ذهب وعليه طوق فما ذهب عن عيني وقلبي الى هذه الساعة

فاعادوا اليه الطوق . فلما نظر اليه قال : شبّ عمرو عن الطوق

---

(١) يضرب لمن يؤذن له في القليل فيطمع بالكثير

« فارسلها مثلاً » ثم جعل الرجلين واسمها – مالك وعقيل – نديمين حتى مات (١)

وكان ملك العرب في الجزيرة يا مولاي . رجلاً من بقـــايا العماليق اسمه عمرو بن ظرب . فجمع جذيمة الجموع من العرب فغزاه . فقتل عمرو وانفضت جموعه. فملكت من بعده ابنته «الزباء» واسمها نائلة ولها اخت يقال لها زبيبة فبنت لها قصراً حصيناً على شاطىء الفرات الغربي كانت تشتو فيه عند اختها وتربع في مكان يدعى بطن المجاز(٢)

فلما استحكم لها الملك . ارادت غزو جذيمة طلباً بثأر ابيها . فقالت لها اختها وكانت ذات رأي : « يا زباء انك ان غزوت جذيمة فانما هو يوم له ما بعده . ان ظفرت اصبت ثأرك وان قتلت ذهب ملكك والحرب سجال فلا تدرين لمن تكون العاقبة » فقالت : ان الرأي ما رأيت . وانصرفت عما كانت اجمعت عليه من غزوه واتت امرها من وجوه المكر والخداع . فكتبت الى جذيمة تقول : « اني لم اجد لملكي موضعاً ولنفسي كفؤاً غيرك . فاقبـــل اليّ فاجمع ملكي الى ملكك واربط بلادي ببلادك وتقلد امري مع امرك » . فلما انتهى اليه الكتاب وهو في بقة على الشاطىء رغب فيما اطمعته فيه وجمع اليه اصحاب الرأي

---

(١) وفيهما قال ابو خراش الهذلي

ألم تعلمي ان قد تفرق قبلنا ... نديما صفاء مالك وعقيل

وقال متمم بن نويرة :

وكنا كندماني جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا

(٢) الطبري – وابن خلدون – والعرب قبل الاسلام

وثقات اصحابه : فاستشارهم في الامر . فاجمعوا على ان يسير اليها ويستولي على ملكها . وكان فيهم رجل يقال له قصير بن سعد خالفهم فيما اشاروا به . فلم يسمعوا له ونازعوه رأيه . فقال لجذيمة . اكتب اليها فان كانت صادقة فلتقبل اليك . والا فلا تمكنها من نفسك وانت قد وترتها وقتلت اباها فسد جذيمة اذنيه ودعا ابن اخته عمرو بن عدي فاستشاره فشجعه على المسير . فسار في وجوه اصحابه . واستخلف ابن اخته على ملكه . وجعل عمرو بن عبد الجني الجرمي على خيوله . فلما نزل « الفرضة » — على الجانب الغربي من الفرات — دعا قصيراً وقال له : ما الرأي ؟ فقال : ببقة تركت الرأي . « وذهبت مثلاً »

اما الزباء فقد استقبلته رسلها بالهدايا فقال : يا قصير كيف ترى ؟ قال . ستلقاك الخيل . فان سارت امامك فان الزباء صادقة . وان اخذت جنبيك واحاطت بك من خلفك فان القوم غادرون . فاركب العصا «والعصا فرس لجذيمة لا تجارى» فاني مسايرك عليها . فلقيته الخيول والكتائب فحالت بينه وبين (العصا) فركبها قصير وولى على ظهرها هارباً

وسار جذيمة وقد احاطت به الخيل حتى دخل على الزباء فقابلته وقد صفرت شعرها وقالت : لقد قيل لي يا جذيمة ان دماء الملوك شفاء من الكلب . ثم اجلسته على جلد مصبوغ وامرت بطست من ذهب فاعدته له وسقته من الخمر حتى اخذت مأخذها منه . ثم امرت براهشيه فقطعا . « اي فصدته في ذراعيه » وقدمت اليه الطست وقد قيل لها . ان قطر من دمه شيء في غير الطست طلب بدمه . وانت تعلم يا مولاي ان

الملوك لا تقتل بضرب الاعناق الا في قتال . فلما ضعفت يدا جذيمة سقطتا فقطر من دمه في غير الطست فقالت : لا تضيعوا دم الملوك فقال جذيمة « دعوا دماً ضيعه اهله » ثم مات .

قال جبلة : والى اين انتهت بقصير فرس جذيمة ؟

— الى حي هلكت فيه عند غروب الشمس . فسار حتى قدم على عمرو بن عدي وهو بالحيرة . فقال : قتلت الزباء جذيمة فتهيأ ولا تطل دم خالك . قال : وكيف لي بها « وهي امنع من عقاب الجو » قال اجدع انفي واضرب ظهري ودعني واياها . فقال عمرو ولست بفاعل فجدع قصير انفه وأثر في ظهره آثاراً فقالت العرب « لامر ما جدع قصير انفه »

وكانت الزباء قد اتخذت نفقا من مجلسها الى حصن لها داخل المدينة حتى اذا فاجأها امر دخلت النفق الى الحصن وتحصنت فيه .

فلما جدع قصير انفه واثر تلك الآثار خرج كأنه هارب واظهر ان عمرا فعل به ذلك حتى قدم على الزباء. فقيل لها ان قصيراً بالباب. فامرت به فادخل فاذا انفه قد جدع وظهره قد ضرب . فقالت : ما هذا يا قصير ؟ قال زعم عمرو بن عدي اني خدعت خاله وزينت له السير اليك ففعل بي ما ترين . فاكرمته الزباء لما رأت فيه من الحزم والمعرفة بامور الملوك . فلما رأى انها وثقت به قال لها : ان لي في بلاد العراق مالاً كثيراً فيه ثياب وعطر فابعثيني لاحمل مالي واحمل اليك من طرائف العراق وصنوف امتعته وطيبه ما تصيبين معه الغنى. فجهزته باشياء كثيرة وقالت له . انطلق الى العراق فبع بها ما جهزناك به وابتع لنا من

طرائف ثيابها ما تراه صالحاً لنا . فسار قصر حتى قدم العراق واتى الحيرة متنكراً . فدخل على عمرو واطلعه على امره وقال : جهزني بالبز والطرف والامتعة لتنخدع الزباء فيجعلها الله في يدك . فاعطاه ما طلب . وجهزه بصنوف الثياب . فعاد قصير بذلك كله فعرضه عليها فاعجبها ما رأت وازدادت بقصير ثقة . ثم جهزته مرة اخرى فحمل اليها احسن مما حمل في المرة الاولى حتى استسلمت اليه .

فقال المنذر : اذن كان قصير يحمل مال عمرو بن عدي الى الزباء ؟

قال الملك . انه صاحب رأي ودهاء تحتاج الملوك الى مثله . قل يا ابن جناب .

فعاد ابو عامر الى الحديث قال : فلما عاد قصير في المرة الثالثة قال لعمرو بن عدي . اما الان فقد تغيرت الحال . اجمع لي ثقات اصحابك وجندك فاني اريد ان احملهم في الصناديق الى مدينة الزباء . فاذا دخلوها اقمتك على باب النفق الذي تفر منه الى الحصن . ثم اخرجت الرجال فيصيحون باهل المدينة فمن قاتلهم قتلوه . وان اقبلت الزباء تريد الفرار فقابلها بالسيف . ففعل عمر ما اشار به قصير . وارسل الابل الى الزباء عليها الصناديق وفيها الرجال بالسلاح . فلما اصبحوا عند ابواب المدينة تقدمهم قصير فبشرها وسألها ان تخرج فترى قطرات تلك الابل وما عليها من احمال . فخرجت الزباء فابصرت الجمال تكاد قوائمها تسوخ في الارض وهي متثاقلة باحمالها فقالت : يا قصير

ما للجمال مشيها وئيدا اجندلاً يحملن ام حديدا

ام صرفاناً بارداً شديداً(١)

فلم يسمع قصير ..

ودخلت الابل . فلما توسطت المدينة اناخها قصير ودلّ عمراً على النفق واراه اياه. ثم خرجت الرجال من الصناديق وصاحوا باهل المد ووضعوا فيهم السيف . فاقبلت الزباء تريد النفق لتدخله . فابصرت ع قائماً وفي يده السيف . فمصت خاتمها وفيه سم وقالت « بيدي لا بيد يا عمرو » فذهبت مثلاً . ثم جلاها عمرو بالسيف فقتلها واخذ ما شاء بلادها وعاد الى العراق(٢)

هذه هي يا مولاي حكاية جذيمة والزباء .

فاصبح عمرو بن عدي ملكاً على العراق وهو اول من اتخذ الحير منزلا واول ملك من ملوك العرب بالعراق يمجده اهل الحيرة في كتب واخبارهم .

قال الملك : أتعرف ان تنسبه يا أبا عامر ؟

— : نعم يا مولاي . هو ابن عدي بن نصر بن ربيعة بن ل ويقولون انه عاش مئة وعشرين سنة . منفرداً بملكه . مستبداً بأمر يغزو المغازي ويصيب الغنائم . ونفد عليه الوفود . حتى قدم ازدش

(١) معناه : اني ارى الجمال تمشي بتأن اتراها تحمل احجارا ام حديدا ام رصاص

(٢) وفي ذلك يقول عدي بن زيد قصيدة مطلعها

أبدلت المنازل ام عفينا

ابن بابك ملك الفرس . فحـــارب العراق فدانت له . وامسى الملوك اللخميون منذ ذلك الحين عمالاً للاعجام

ـ : وماذا فعل القضاعيون الذين قدموا الحيرة مع مالك بن فهم والد جذيمة ؟

ـ : انهم أبوا يـــا مولاي ان يدينوا للفرس . فخرج بعضهم الى نواحي الشـام . وبعضهم الى البحرين وطنهم الاول . وانضم الباقون الى اخوانهم النازلين في بلاد الجزيرة

فقال قيس بن ثابت لثعلبة بن هنب :

قتله الله . انه يعرف انســـاب العرب وحكاياتهم . كما تعرف انت انساب العشائر في البلقاء

قال : اتظن ان الملك يبعث عامراً الى الحيرة كما قال ؟

ـ : يظهر لي من حديث الملك انه فاعل .

ـ : اذن كتب له ان يموت هناك من يد المنذر ابن ماء السماء .

فعض قيس على شفتيه وقال :

دع هذا الحديث الآن لئلا يسمعك احد .

قال : وسيجيء دور ابيه . هذا الشيخ الفاني . الذي يحمل ابنته الى بلاد الناس . تستغوي الامراء ...

قال هذا ولمعت عيناه ببارق غريب من الحقد .

وساد السكوت قاعة المجلس . فاتجهت انظار القوم الى الملك . فاذا هو يحدّق الى ثعلبة وقيس وقد رآهما يتهامسان .

فارتجفت اعصاب الرجلين من الخوف .

غير ان الملك كان رشيقاً في اسلوبه اذ قال :

ألم تسمعا حكاية الشيخ ؟

فقال قيس : بلى يا مولاي وكنت اقول لثعلبـــة ان الشيخ خبير بانساب اللخميين ...

فعرف الملك ان الحسد يدبّ شيئاً فشيئاً الى صدر قيس . وفاته ان والد سليمى هو الذي يوغر ذلك الصدر. وينفخ فيه روح البغض والشر

ثم وجه الملك حديثه الى ابي عامر وقال :

وفي اي بلد من الجزيرة نزلت قضاعة ؟

— : كانت مراعي انعامهم . في الزمن الاول . جـدة يا مولاي من شاطىء البحر الاحمر فما دونها شرقاً . الى منتهى ذات عرق . وهو الحد بين نجد وتهامة. « البكري . والعرب قبل الاسلام » . فلما نشب الحرب بينهم وبين ربيعة . تركوا اماكنهم ونزلوا في نجد .

— : تلك حرب قديمة جداً على ما نظن .

— : نعم يا مولاي . وقضاعة اول من نزح من قبائل معد .

واين كانت تقيم القبائل قبل تفرقها ؟

: ان القبائل المتحدرة من عدنان . « من ولد اسماعيل » . كانت بادية . تقيم في تهامة والحجاز . « الا قريشاً فقد تحضروا في مكة » وتقسم الى فرعين عظيمين يقال لهما . عكّ ومعدّ . فـنزلت « عكّ » في نواحي زبيد جنوبي تهامة . وليس لها تاريخ يذكر . واما معدّ وهو

الوبان العظيم . فانقسم ايضاً الى فرعـــين . نزار وقنص . ومن نزار . تفرعت قضاعة فحضر وربيعة واياد وانمار .

فاستوى الملك في مجلسه . وظهر الجد والاهتمام في عينيه وقال :

لأجل هذا دعوناك يا ابن جناب   ان الملك يريد ان يدرس قضية القبائل . منذ نزوحها الاول الى هذا اليوم . درساً لا كذب فيه ولا غلو . ويجب ان تعلم . اننا واثقون بقولك . وقد يبنى على هذا القول مستقبل شعوب كثيرة تملأ الجزيرة . بل قد تبنى عليه دعائم جديدة ثابتة لهذا العرش الذي تراه . فقل لنا الآن كيف تفرقت هذه الفروع. وابدأ بقضاعة .

ثم التفت الى رجال المجلس وقال :

اما انتم يا اصحابي فاصغوا الى الحديث الذي تسمعون .

فتهيب ابن جنـاب الموقف . وذكر اذ ذاك قول ولده عامر . ان الملك يطمع بالاستيلاء على نجد . فقال :

كان بنو عدنان يا مولاي . في اتفـاق كلمتهم واتحادهم في الرأي . كالقبيلة الواحدة تضمهم المجـــالس وتجمعهم المواسم . حتى كانت الفتنة بينهم فتفرقوا في البلاد . والى ذلك يشير عـدي بن ربيعة « المعروف بالمهلهل بقوله :

غنيت دارنا تهامة في الدهر   وفيها بنو معـدّ حلولا
فتساقوا كأساً امرّت عليهم   بينهم يقتل العزيز الذليلا

وكانت قضاعة كما قلت يا مولاي . اول من نزح منهم

ـ : اذكر السبب .

ـ : ان حرباً نشبت بينها وبين ربيعة . بسبب فتاة ربيعية عشقها رجل قضاعي من بني نهـد . فانتصرت مضر واياد وانمار لربيعة . وانتصرت علكّ لقضاعة . ففازت ربيعة . فهجر القضاعيون مراعي انعامهم في جوار جدة . وانتشروا جماعات وبطوناً . في بلاد نجد والبحرين . وضواحي فلسطين والشام . فأنشأ بعضهم دولا عرفها العرب . منها دولة بني سليح الضجاعمة التي دكّ اجدادك الغسانيون عرشها بجد السيف . ووطدوا على انقاضه . دعائم هذا العرش الفخور بمولانا الحارث بن جبلة

: اجل . ان دولتنا بُنيت على انقاض دولة الضجاعم . ولكن . أتعلم كيف استولى جدنا ثعلبة على تاجهم ؟

ـ : لا يا مولاي .

قال : عندما قدم اجدادنا الغسانيون هذه الربوع . كانت بلاد الشام في حوزة الضجاعم . كما قلت . وعليهم ملك منهم يدعي « زياد اللثق بن هبولة » وعلى الغسانيين اميرهم الاول . جدنا جفنة بن عمرو . فطلب الضجاعم الخراج . فأبى الغسانيون اداءه . فاقتتل الفريقان . فدارت الدائرة على غسان . فدفعوه وهم صاغرون .

ثم مرّ الزمان . فمات اميرنا الاول . وخلفه ابنه عمرو بن جفنة وهو يؤدي الخراج كل عام . ثم مات . فتولى الملك بعده ولده ثعلبة بن عمرو . وفي ايامه صارت حكومة الضجاعم . الى سبطه بن المنذر بن داود . وقيل سبيط بن ثعلبة . فشدد في الطلب . فتردد بنو غسان . فجاء سبيط يطلب الخراج بنفسه . فقال له جدنا ثعلبة : « هل لك في من

يزيح علتك في الخراج » ؟ قال . نعم . « عليك باخي جذع بن عمرو » وكان جذع فاتكا . فاتاه سبيط يقول . ادفع الخراج يا جذع . فخرج اليه جذع وفي يده سيف مذهب وقال : « هل في هذا السيف عوضٌ من حقك؟» قال نعم قال . خذه. فمد سبيط يده وتناول غمد السيف . فاستل جذع نصله وضربه به حتى قتل . فقالت العرب « خذ من جذع ما اعطاك » وصارت بلاد الشام الى ملوكنا من تلك الساعة .

والان عد الى حديثك .

قال: اما بطون قضـــاعة فكثيرة يا مولاي . منها جهينة وبلي . وكانت منازلهم ما بين ينبع ويثرب وحد ودمصر . في متسع من برية الحجاز وعلى شواطىء البحر الاحمر . فكأنهم كانوا يشغلون الجزء الشمالي من الحجـــاز العربي وبرية سينا الى حدود مصر . ولم تكن لهم دولة يا مولاي. بل لم يكن لهم ملوك ونظام . ولكنهم استولوا على بادية مصر وعلى الصعيد اجيالا واجتازت منهم طوائف الى الشاطىء الغربي الاحمر من البحر الاحمر فانتشروا بين الصعيد وبلاد الحبشة . وكثروا هناك . فغلبوا بلاد النوبة وازالوا ملك اصحابها . ثم حاربوا الحبشة كما تعلم يا مولاي . « في ايام اغوسطس قيصر في اوائل النصرانية » فدوخوها وكتب لهم النصر .

وانا قد عرفت مصر يا مولاي . عرفتها وانا فتى . وعرفت نيلها وصعيدها وبرها واهلها . فللعرب فيها طرق مختصرة واثار لا تبلى. والى هـــذا الجيل والناس في مصر يتحدثون عن حروب العرب في صحراء

الشرقية . ويرون للغريب كيف ضايقوا مصر حتى اضطر اليونان ان يقيموا الحامية في بلد يقال لها . اصوان .

اجل . ان بني قضاعة يا مولاي زحفوا على صعيد مصر . يوم جرد الروم جيشهم بقيادة اليوس غالوس لفتح بلاد العرب . وهي حكمة يعترف لهم بها رجال الحرب لان معظم جند مصر كان في حملة القائد الروماني بعيداً عن بلاده . فاغتنموها فرصةً لا لاجل الفتح كما تفعل الدول اليوم . بل لاجل الغزو على عادة العربان من قديم الزمان .

وكانوا يسمونهم يا مولاي . عرب الاحباش . وهم لا يعلمون انهم من قلب الجزيرة وانهم من بني معدّ .

ومن بطون قضاعة . تنوخ . يا مولاي . وهو فرع كبير يقال انه مزيج من قضاعة والأزد . « ويدعوه اليونان تنويث » . سيد هذا الفرع وزعيمه الاكبر . جذيمة الابرش يا مولاي . واضع الحجر الاول في ملك العراق كما مرّ

ومنهم . اجدادي بنو كلب . كان لهم دولة صغرى في دومة الجندل وتبوك في اعالي الحجاز . فغلبتهم على امرهم قبائل كندة . وخرج الملك من يدهم .

اما الفروع التي نزلت في البحرين . ووادي القرى . واليمن . فلم يكن لهم دولٌ تذكر . واعتقد يا مولاي ان تفرق القبائل لم يكن سببه الحرب فحسبُ . بل كانوا . كلما تكاثروا مع الزمان . وضاقت بهم منازلهم يهجرون هذه المنازل الى بلاد فيها المرعى والمياه . غير ما يدعوهم الى النزوح من ميلهم الى الغزو كما هي حالهم اليوم .

— : ومن نزح بعده قضاعة ؟

: قبيلة انمار يا مولاي . ويقولون في سبب نزوحها ان خصومة نشبت بينها وبين مضر . وان « انمار » فقأ عين اخيه « مضر » وهرب .

— : تلك رواية غير صحيحة . وبعد ذلك ؟

— بعد ذلك نزحت اياد . وانتشرت في سواد العراق . ولم يبق في تهامة من قبائل معدّ غير ربيعة ومضر .

ولم يكن الحارث ليهتمّ — من كل رواية ابن جنـاب الا لجانب واحد منها . هو ان يعرف احوال ربيعة القبيلة السائدة في نجد .

فقال لزهير

اظن ان ربيعة نزحت بعد الجميع .

: لا يا مولاي . فمضر كانت آخر من ترك تهـامة وانقسمت الى حيين كبيرين . هما قيس عيلان وخندف اما بنو تميم الذين نزلوا بين اليمامة وهجر . فهم من خندف ومن اشد القبائل .

قال الملك . لم يبق اذن غير ربيعة فما هي اخبارها ؟

قال : واما ربيعة يا مولاي . فاصحاب عز واهل حرب . واني لا اعرف بطونهم التي غادرت تهامة الى البحرين واليمن. بل اعرف البطون التي اقامت في ظواهر نجد والحجاز .

— : وما هي اسماؤها ؟

: اعرف منها . عبد القيس . والنمر بن قاسط . وعنزه وضبيعه.

وبكرا وتغلب . فلما قتل وائـل « كليب » تفرقوا في اطراف الجزيرة واطراف العراق .

فرفع ثعلبة رأسه متظاهراً بالاصغاء .

فضحك الملك وقال :

ان عشيرة هنب التي يرأسها صاحبنا ثعلبة . هي فرع من ربيعة . فلما ذُكرت بكرٌ وتغلب وغيرهـا من الفروع ولم تُذكر عشيرته . مدّ عنقه واستعد للخصومة ... أليس كذلك يا ابن هنب ؟

فاطرق ثعلبة ولم يجب

ولكن الملك لم ينتظر جواباً بل قال :

قصّ علينا يا زهير ما تعرفه عن ماضي عشيرة صاحبنا .

قال : يظهر انها فرعٌ نزح من قديم الزمـان يا مولاي . وليس له اليوم ذكرٌ في نجد .

فقال ثعلبة : اجل . نحن هنا من جيلـين . وسنبقى في حوران ما بقي ملك غسان .

فهزّ الملك رأسه وقال :

وكيف يسلم هذا الملك وبنو قومك يحالفون عدوّنا ويعملون على بسط نفوذه في الجزيرة ؟ ...

قال : انا لا اعرف بني قومي فمولاي الملك هو قومي واهلي وسيدي ومرجعي . ولكني اسمع ان ربيعة لا تحالف الا نفسها .

ـ : كأنك تقول انها لا تحب احداً ...

فقال زهير : صحيح يا مولاي . ان ربيعة لا تخضع لملك غريب . واذا خضعت فعن اضطرار واكراه .

: وما هو نظامهم في الحرب ؟

: كان من نظامهم — اذا اجتمعوا لغزو او لحرب — . ان يكون اللواء « اي الزعامة » للاكبر فالاكبر . ولهم في الزعامة سننٌ يا مولاي . فسنة عنزة . وقد كانت الزعامة لهم . ان يوفروا الحاهم ويقصوا شواربهم . فاذا فعل ذلك احد غيرهم من ربيعة . فمعناه انه لا يعترف بزعامتهم بل يريد حربهم . ثم تحول اللواء الى عبد القيس وكانت سنتهم انهم اذا شُتموا لَطموا. واذا لُطموا قتلوا من لطمهم . ثم تحوّل اللواء الى النمر بن قاسط وهؤلاء لا اعرف لهم سنةً . واما بكر بن وائل يا مولاي . فلما تحول اليهم اللواء . ساءوا غيرهم في فرخ طائر يجعلونه على قارعة الطريق . فاذا علم الناس بمكانه سلكوا طريقاً آخر . واذا اضطرّ احد الى المرور مشى عن يمينه او يساره . حتى اصبحت زعامة ربيعة في تغلب . تولاها فارسهم وائل . وكانت سنته انه اذا خرج اخذ معه جرو كلب . فاذا مر بموضع يعجبه ضرب الجرو والقاه في ذلك الموضع وهو يعوي . فلا يسمع عواءه احد الا تجنبه . وكانوا يقولون يا مولاي « كليب وائل » ثم اختصروه فقالوا « كليب » فغلب عليه . « ورد ذلك في ابن الاثير . والعرب قبل الاسلام » .

فاراد الملك ان يداعب ابن جناب فقال له :

وهل ضعفت انت وضعفت دولة اليمن. الى حد ان يبطش بكم جميعاً

وائل بن ربيعة . ولدولة التبابعة جندٌ كرمل البحر . وانت الفارس المجرّب الذي شبّ وشاب في ساحات القتال ؟

فبرقت عينا الشيخ وقال :

ذلك زمان وانقضى يا مولاي .

قال نعم . ولكني احب ان اعلم .

قال : لقد كانت ساعة شؤم يا مولاي . هاجمتنـــا فيها قبائل معدّ وفيها رماتها وقوادها وابطالها . هجوماً احبوا معه الموت . فصادمتهم صفوفنا ولكن كالرجال تصادم الجبال . فقتلوا رجالنا . وسبوا نساءنا . ونحن ندافع حتى التوت اسيافنا وتكسرت رماحنا. وكليب بن ربيعة . ان ابن ربيعة يا مولاي سيد الابطال وامير الحرب. فقد كان على جواده كالقضاء المنزل تتدحرج الرؤوس امـــام سيفه . وتهوي الابطال تحت ضرباته . ولولاه . لو لم يكن ابن ربيعة قائدهم الاكبر . لانكسرت معدّ وتمّ لليمن النصر .

فاعجب الملك بالرجل الطريد المغـــلوب يعترف بالبطولة والقوة . لعدوه القاهر الظافر . وقال في نفسه . لقد صدق الناس اذا قالوا . ان ابن جناب كاهن العرب وكبيرهم ثم قال :

وكيف قتل فارس ربيعة ؟

ـ : لقد اصبح حادث قتله حديث الناس يا مولاي

ـ : اجل. ولكنه حديث كاذب ينقله كل واحد على هواه. فحدثنا انت بما تعلم

قال : عندما اجتمعت قبائل معدّ تحت راية ابن ربيعة . والبسته التاج . واعترفت به ملكها وسيدها الاكبر . أبطرته ابهة الملك وبغى على قومه .

— : وكيف ذلك .

: كان وائل بن ربيعة يا مولاي يحمي مواقع السحاب فلا يُرعى حماه . والرجل في قبائل معدّ . اذا اعتز جانبه . اتخذ لنفسه بقعةً من الارض فجعلها حرماً كحرم المعابد لايجرؤ ان يطأها احد سواه. فاتخذ كليب حرماً . ولكنه جاوز الحد اذ حمى انواع الوحش خارج ارضه فكان يقول « وحش ارض كذا في جواري فلا يصاد »

وهابت العرب سطوة وائل . فاذا وردت ابله الماء نحى القوم ابلهم « اي ان جماله اذا ذهبت لتشرب تأخرت جمال غيره » . لا توقد نارمع ناره . ولا يمر احد بين بيوته . ولا يحتبي احد في مجلسه « اي لا يستبد احد الى ركبته في القعود امامه »

فاظهر الملك الاستغراب وقال :

انه لغلو في العز ان جاز ان نسمي هذا الزهو عزاً .

قال المنذر : سمعتهم يقولون ان ابن ربيعة كان بادنا . طويل القامة جداً حتى انه اذا ركب الجواد لامست رجـــلاه الارض . فهل هذا صحيح ؟

قال : انها مبالغات لا صحة لها يا مولاي . لقد كان وائل ربعة في الرجال . جميل الوجه حسن المنظر. ولم يكن بادنا ولا ضعيفاً . غير ان

الرجال اذا ذهبت لهم في الحروب شهرة . تصورهم النـــاس انهم مردة من الجنّ .

فقاطعه الملك قائلًا :

كذلك يقولون ان زوجته كانت اخت قاتله .

– : هذا صحيح يا مولاي . ان زوجة وائـل . اخت جساس بن مرة الذي قتله . وكان غلمان جساس . يرعون نوقهم مع غلمان وائل في حماه فخرج يوماً ومعه ابن مرة . يتمهد الابل . فرأى في ارضه « العالية » ناقة لا يعرفها . فقال لجساس . لمن هذه الناقـة ؟ قال . انها « سراب » ناقة جارنا سعد الجرمي . الذي نزل ضيفاً على خالتنا البسوس بنت منقذ. فقال : لا تعد هذه الناقة الى هذا الحمى » . وكان جساس فتىً غراً طائشاً لا يعرف من دنياه الا فرسه ورمحه . فاستاء من صهره ولم يملك غضبه . فقال : « لا ترعى ابلي مرعى الا وسراب معها » . فغضب كليب وقال. لئن عادت لأضعن سهمي في ضرعها . فقال جساس لا لئن وضعت سهمك في ضرعها لاضعن سنان رمحي . في لبتك «اي في رقبتك من وراء» . وافترقا.

فذهب وائل الى زوجتـه وقال لها : أترين ان في العرب رجلًا يمنع مني جاره ؟ قالت : لا اعلمه الا جساساً . فحدثها الحديث فخافت العاقبة وكانت تمنع زوجها من الخروج الى الحمى . وتناشده الله ان لا يقطع رحمه .

قال جبلة : وكيف جرؤ ابن مرة ان يتهدد وائلًا وهو سيد معدّ ؟

قال : كان وائل يحبه . وله عليه دالة الولد على ابيه . ثم قال :

وخرج كليب يوماً الى حماه فرأى ناقـــة الجرمي . فرمى ضرعها فانفذه . فولت الى فناء صاحبها ولهـا عجيج . فلما رآه الجرمي صرخ .

فسمعت البسوس صراخه . وخرجت فرأت ضرع الناقة يشخب دماً . فوضعت يداها على رأسها وصاحت : « واذلاّه» . تشير الى ما لحقها من الذل بسبب اذية جارها لحرمة الجوار . فاسكتهـا ابن مرة . واسكت الجرمي وقال لها : سأقتل جملًا اعظم من هذه الناقة . « يعني انه سيقتل كليباً » فنقل احدهم الى كليب حديث جساس . فاستخف بمـا سمعه .

وخرج يوماً آخر آمناً . فلما بعد عن البيوت . ركب جساس فرسه . واخذ رمحه وادركه . فوقف كليب . فقال له جســـاس . يا كليب الرمح وراءك . فقال له : ان كنت صادقاً اقبل اليّ من امـامي . ولم يلتفت اليه . فطعنه جساس فـارداه عن فرسه . فقال : يا جساس اغثني بشربة ماء . فلم يأته بشيء وقضي نحبه . فامر جساس رجلا كان معه اسمه عمرو بن زهل . فجعل عليه احجاراً لئلا تأكله السباع . وانصرف علىَ فرسه يركضه حتى اتى اباه مرة وقـال له : « طعنت طعنةً يجتمع بنو وائل غداً لها رقصاً » . قال : من طعنت ويلك ؟ قال : قتلت كليباً . فاجفل مرة وقال : أفعلت ؟ قال : نعم . قال : بئس والله ما جئت به قومك . ولم يرَ بداً من التأهب للحرب . فدعا قومه الى نصرته فاجابوه . واجلوا الاسنة وشحذوا السيوف

فلما علم قوم كليب بمقتله . دفنوه وقـــد شقوا الجيوب وخمشوا الوجوه . وخرجت الابكار وذوات الخدور . وقمن للمأتم وقلن لاخت كليب . « اخرجي امرأة كليب عنا فان قيامها بيننا شمـــاتة وعار » فقالت لها اخت كليب . «اخرجي من مأتمنا فانت اخت قاتلنا» فخرجت تجر عطافها واتت اباها .

ولكليب يا مولاي اخٌ اسمه مهلهل . وهو فـــارس ربيعة . بعد اخيه وشاعرها .

قال الملك : أليس هو الذي قال ـ عندما بلغه خبر القتل ـ قصيدته التي مَطلعها :

كنا نغار على العواتق ان ترى   بالامس خارجةً عن الاوطان
فخرجن حين ثوى كليبٌ حسراً   مستيقنات بعده بهوان

قال : نعم يا مولاي . وكان في يوم مقتل كليب مشتغلا بالشرب . فما صحا الا وهو يسمع الصياح والعويل . فسأل فقالوا : « كليب قتل » فقال قصيدته التي ذكرتها يا مولاي. ثم جزّ شعره وقصر ثوبه . وهجر النساء والغزل . وحرم القمار والشراب . وجمع اليه قومه لاخذ الثأر .

ولكنه رأى ان يبدأ بالمخابرة. فبعث رجالاً من قومه الى مرة فقالوا له انّا نعرض عليك خلالا اربعا لكم فيها مخرج ولنا فيها مقنع . اما ان تحيي كليباً . او تدفع الينا قاتله فنقتله به . او هماما اخاه فانه كفؤ له . او تمكننا من نفسك فان فيك وفاءً لدمه . فقال لهم مرة . امـا احيائي كليباً فلست قادراً عليه . واما ان ادفع اليكم جساساً فانه غلامٌ طعن طعنته على عجل وركب فرسه ولا ادري اي بلاد قصد . واما اخوه همام . فانه ابو عشرة واخو عشرة وعم عشرة . وكلهم فرسان قومهم فلن يسلموه بجريرة غيره . واما انا . فما هو الا ان تجول الخيل جولة فاكون اول قتيل فما اتعجل الموت . ولكن لكم عندي خصلتان . اما احداهما فهؤلاء ابنائي الباقون فخذوا ايهم شئتم فاقتلوه بصاحبكم . واما الاخرى فاني ادفع اليكم الف ناقة سود الحدق حمر الوبر . فغضب القوم

من جوابه وقالوا: قد اسأت ببذل هؤلاء وتسومنا اللبن من دم كليب ونشبت الحرب بينهم ولم تزل .

قال الملك : يوم نشبت الحرب بين القبيلتين . سمعت عمرا والد لبيد يقول : انها حربٌ لا تنطفيء نارها حتى تفنى القبيلتان .

- : وهكذا كان يا مولاي . تحاربوا حتى شاخ الشبان وشاب الولدان . وبلاد نجد اليوم . بسبب هذه الحرب . تخوض بحراً من دماء رجالها والنساء .

- : ومن هم سادة البلاد اليوم ؟

- : اما اصحاب الحكم. فابناء الحارث بن عمرو الكندي . ولكن الحرب من وجه آخر سوّدت الاغرار والسفهاء . هذا ما نقله اليّ صاحبٌ نجدي . كان رفيقاً لي في صباي . ويقولون يا مولاي . ان امراء القبائل . اولاد الحارث بن عمرو . هم سادة بالاسم .

- : اجل . ففرار ابيهم الحارث من وجه ابن ماء السماء اضعف نفوذهم. وزعزع عروشهم. الا تعلم يابن جناب الى اي بلد لجأ الحارث؟

- : لا يا مولاي فانا لا اعلم شيئاً عن احوال هؤلاء الكنديين .

- : انه لجأ الى بني قومك اي الى بني كلب . وهو فيهم الى الآن.

- : ان الحوادث التي جرت بين الحارث الكندي . وبين ابن ماء السماء . جرت في اثناء وجودنا في البحرين . فلم نسمع عنها الا الاخبار المشوهة . ونحن لا نعلم يا مولاي كيف طرد الاعجام ابن ماء السماء من بلاده . وكيف اعادوه اليها .

تحدّث العرب في البحرين فقالوا . ان ملك الفرس . ولىّ الحارث الكندي ملك العراق . وان المنذر ابن ماء السماء . ترك الحيرة وفر على وجهه يتنقل بين العربان والموالين له وهو لا يجرؤ علـــى العود الى مقر ملكه وملك اجداده . ثم انقلبت الآية بعد قليل . فسمعنا ان الفرس انفسهم خلعوا الحارث واعادوا المنذر الى العرش . وانت ترى يامولاي انها رواية لا اهتم لها . لان الشيخ الذي يبلـغ الثمانين لا ينظر الا الى مستقبل اولاده .

ـ : اذن انت لا تعلم ان ملوك كندة كانوا مثلك عمالاً لدولة اليمن

: بلى يا مولاي . واعلم ان الحبشان فتحوا اليمن في ايام الحارث الذي نتحدث عنه .

ـ : اصبت . ولكن الحارث هذا ملكٌ ضعيف جبان. تخلى لعدوه عن العرش دون ان يشهر في وجهه سيفاً او يقابله بدفاع. واني لا ادري كيف افسر قول الرواة فيه . فبينما هم يقولون انه الملك الكبير المطامع الشديد البأس، نراه يترك عرش العراق للمنذر دون ان يسمع له صوت.

ثم تنهد وقال :

ومع ذلك . فنحن نتمنى ان يكون حياً ...

فعرف القوم ان وراء هذه الكلمة ما وراءها من اسرار .

قال جبلة : اظن ان سلطان الحارث على الحيرة لم يطل .

فقال الملـك : وكيف يطول وابو شروان يشد ازر المنـذر . وما هو الا ان مات ابوه حتى اعاده الى عرشه .

قال عامر : الا يريد مولانا الملك ان يقصّ علينا حكاية الخلع عن العرش ؟

قال : بلى . يقصها عليكم قيس بن ثابت . قل يا قيس .

قال : انحدثهم يا مولاي بقصة « قباذ » ام ماذا؟

قال : حدثهم بكل ما تعلم عن خلع ابن ماء السماء .

- ١٤ -

قباذ ملك الفرس

هو قباذ بن فيروز بن يزدجرد . تولى عرش العجم بعد اخيه «بلاش» وبعد نزاع طويل بينهما

فلما مضى على ملكه عشر سنين ، ظهر في العجم مذهب رجل يدعى «مزدك» . يقول بالاشتراك في اموال النـــاس واشيائهم . «كما هو مذهب البولشفيك اليوم»

وكان مزدك ورجال مذهبه يقولون ان الله انما جعل الارزاق في الارض ليقسمها العباد بينهم وان من كان عنده فضـــلٌ من الاموال والنساء فليس هو بأولى به من غيره .

فاغتنم سفلة الفرس واغرارهم ذلك . وشايعوا مزدك واصحابه فكانوا بلاءً على الناس في بلاد الاعجام

ومن حسنات مذهبهم ، انهم كانوا يدخلون على الرجل في بيته . فيغلبونه على نسائه وامواله لا يستطيع الامتناع منهم . فاصبح الرجل وهو لا يعرف ولده ، والولد لا يعرف اباه

الامور ، والاموال، والاحكام في بلاد العجم فوضى بينهم. وملك الفرس ، قباذ نفسه . يسند دعوة مزدك ويحيطها بنفوذه . ويأمر عماله بان ينشروها في البلاد بقوة الجند. واعيان الفرس واشرافهم . ينظرون الى اموالهم وثروانهم يجرفها ذلك التيار وهم ساكتون .

ولكن ابن ماء السماء ، وهو من عمال الفرس ، لم يشايع مزدك في مذهبه . واكبر ان ينشره بين قومه فيتزعزع عرشه ويخسر التاج . فقيل لقباذ . ان ابن ماء السماء يخاصم الملك . فقال : انها لخصومة يهوي بعدها ملك العراق عن عرشه ...

وحفظها قباذ في صدره ، ورجاله يسلبون اغنياء الفرس كل ما يملكون .

- ١٥ -

ملوك كندة

اصلهم من البحرين والمشقر . هجروهما الى حضرموت وعددهم يبلغ الثلاثين الفاً . في زمن لم يحدده مؤرخو العرب .

ونزلوا هناك ، ببلد يعرف باسمهم « كندة » مرتفع عن الارض . مشرف على حضرموت . « الهمداني »

والكنديون ليسوا عدنانيين ، بل هم ينتسبون الى قحطان . الذي نزلت ذريته ، في الزمن الاول ، بلاد اليمن .

اقاموا في كندة حقبة من الدهر ، يختلطون مع ملوك اليمن اصحاب تلك البلاد . حتى اضحوا على مر الزمن من خـــاصتهم . يجعلونهم في قصورهم . ويولونهم امورهم .

وكان سيد كندة، حجر بن عمرو ، وحسان بن تبع ملك اليمن . اخوين لام واحدة . فلما فتح حسان جزيرة العرب . ساعده حجر فولاه بلاد نجد .

وكان بنو لخم يبسطون نفوذهم على بعض ارض نجد ، لا سيما ارض بكر بن وائل . فحاربهم حجر بن عمرو . فانقذ ارض بكر منهم ، فاحبته القبائل واجمعت على احترامه . وهو معروف بحجر اكل المرار.
« ابن خلدون »

ومات حجر، فافضت الحكومة الى ولده عمرو . ويسمونه المقصور لانه اقتصر على ملك ابيه . وليس له تاريخ يذكر .

وخلفه ابنه الحارث بن عمرو . وهو بطل باسل شديد الملك واسع الصوت . احبه ملك اليمن لبطولته واخلاصه . وفضله على كل عماله في جزيرة العرب .

ولكن اليمن خانها الدهر . ففتحها الحبشان « كامرّ » في ايامه . واذهبوا دولة حِمير .

فضعف شأن الحارث ولكنه لم يستسلم لليأس

وكان يعلم ان ملوك الفرس راضون عن بني لخم . وهؤلاء عمالهم في العراق المخلصون لدولتهم . لا قوة في الحيرة غير قوة الفرس . ولا رأي الا رأيهم . فقام في ذهنه ، ان التقرب من الاعجام خير ما يسعى اليه . وانه اذا استطاع ان يغنم ثقتهم فقد قضى على نفوذ ابن ماء السماء ، واستبدل دولة حِمير الهاوية الى حضيض الذل ، بدولة الفرس الساطعة كواكبها في سماء المجد والفخار .

ولكن الوصول الى الفرس ليس هيناً ، فماذا يقول لقباذ ؟ أيقول له : لجأت اليك عندما قتل ملك اليمن ، أم يقول ان بني كندة اشد

اخلاصا للفرس من اللخميين؟. وما هو الدليل على هذا الاخلاص وملوك العراق يتوارثون رضى الاعجام منذ ثلاثة اجيال ؟؟

فتحير الحارث في امره ، وخاف ان يهاجمه المنذر يوماً بجيوشه فيقضي على دولته .

ولكنه كان صبوراً ، وليس بين ملوك الجزيرة من هو اسبق منه او اجرأ على اغتنام الفرص .

فلما نشر مزدك دعوته وشايعه قباذ ، تظاهر الحارث بقبول هذه الدعوة . متخذاً هذا التظاهر وسيلة للحصول على رضى الفرس .

ومضى قباذ في نشر الدعوة وخالفه المنذر كما مرّ . فقال الحارث بن عمرو لرجاله ، قتلني الله ان لم اقتل ابن ماء السماء ، اعطوني فرسي فانا سائرٌ الى العجم . فركب من ساعته ومعه مئة رجل حتى قدم على قباذ.

وكان قباذ قد تغير على المنذر واضمر له الشر . فلما مثل الحارث بين يديه قال: من تكون من العربان؟ قال: الحارث بن عمرو ملك كندة. قال : واي شأن لك في بلادنا ؟ قال : جئت خاضعاً للملك ومستعداً لبسط نفوذه في بلاد العرب . قال : ان العرب قوم اجلاف لا يعترفون بالجميل . قال : تلك صفات ملوك الحيرة يا مولاي . قال : ان ابن ماء السماء كاذب يا مولاي وهو يخاف على امواله الكثيرة ان يشاركه فيها عربي .

وتحدث الاثنان ساعة من الزمن . فقال قباذ : قد وليتك الحيرة يا ابن عمر . ثم قال لكاتبه : اكتب الى ابن ماء السماء ان يتخلى عن

العرش ويخرج من الحيرة والا اخرجناه بالسيف . وبعث بالكتاب مع رسول ، فلما بلغ المنذر الخبر ، فرّ على وجهه ، واختبأ عند اصحابه في داخلية العراق .

وعاد الحارث بن عمرو ، وقد اصبح من اعظم ملوك العرب .

• • •

تلك رواية الخلع عن العرش ، رواها قيس بن ثابت في مجلس الحارث بن جبلة ، والسكون يسود القوم .

فلما ذكر فرار المنذر من الحيرة ، قال عامر بن زهير الملك :

— : وماذا فعل الكندي بعد قدومه الحيرة يا مولاي ؟

— : تربع في عرشها لا يسأل عن عدوه ، ولا يهتم الا لامر مزدك واصحابه ارضاء لقباذ

— : وماذا ينفعه العرش وعدوه ابن ماء السماء حيّ ؟

— : لقد حسب هذا الملك الابله ، ان « قباذ » خالد على عرش العجم وهو خالدٌ في العراق ، وان الزمان يثبت على ولائه ما دام الزمان . فتولى الحيرة ، وجيش الاعجام وفرسان العرب يحمون ملكه ، واشراف معدّ وسادتهم يتقربون اليه بالطاعة وقد استضعفوا بني لخم . وبالرغم من ذلك لم يقم من خاصته والذين حوله من ينصح له بتتبع اثار المنذر ليقتله فيستريح .

ثم اقبل عليه امراء القبائل ، فسألوه ان يولي عليهم ابناءه . ليبطل ما

قام بينهم من النزاع والحرب ، فاجابهم الى مـا طلبوا وولى اربعة من اولاده على هذه الصورة :

« حجر بن الحارث ، ولاه قبائل بني اسد بن جذيمة »

« وشرجيل ، بكر بن وائل باسرها »

وسلمة ، قبائل تغلب والنمر بن قاسط »

ومعدي كرب : قيس عيلان وطوائف غيرها

وهكذا اصبح ابن كندة سيد العراق وسيد نجـــد . يلتف حوله وحول ابنائه امراء الجزيرة يخطبون ودهم . ويظهرون لهم الطاعة والخضوع .

أفرأيتم ملكاً ، له مثل هذا السلطـــان وهذه القوى ، يتمرّغ في النعم والملذات ، وعدوه الالد الذي يزاحمه على العرش حرّ طليق ؟؟!

فقال عامر : وكيف خسر هذا الملك تاجه يا مولاي ؟

: خسره بعد زمن ليس بطويل ، فقد قُتل قبـــاذ « بالري » . وخلفه ولده انو شروان وهو على غير دعوة ابيه ، فابطل بدعة مزدك ، وقتل اصحابها والانصار . ثم اعاد المنذر الى عرش الحيرة وفرّ الحارث ابن عمرو واولاده على الهجن ، « اي للجمال » .

— : وماذا فعل المنذر بعدوّه ؟

— : تبعة على الخيل حتى لحق بارض « كلب » وهو فيهـا الى الآن كما قلنا ، والاغرب من كل هذا ، ان الحارث ترك العراق ولم يترك فيه اثراً من آثاره غير نهر صغير شقه الى النجف وهو نهر الحيرة . ذلك كل

ما فعل مدة ملكه . ولعمري انه لاثر خالد ينطق بفضل ذلك الملك الخامل الضعيف .

نعم . انه الآن في ارض « كلب » يحمل عاره وذله . واولاده الاربعة الذين ذكرناهم يحكمون بلاد نجد ، ولا يجرؤون على كثرة جيوشهم، ان ينزلوا اباهم في ارضهم ويقفوا في وجه ابن ماء السماء، ولماذا؟ لانهم يخافون كسرى انو شروان . ولانهم ورثوا الضعف والخمول عن ابيهم ، لا يهمهم من امر الملك الا ان يكونوا الملوك المتوجين .

لقد حاربنا كسرى في بلادنا . وحاربناه في بلاده . فلم يضطرب الكون ولم تزلزل الارض زلزالها ، ان قوة كسرى بعدد جنده . وقوتنا نحن بصدق العزائم . يجيئنا رجاله على الافيال . فنجيئهم مشاة وعلى الخيل . وان لم تفعل سهامنا بجلود افيالهم فالسيف في يد الجندي العربي يفلّ الحديد .

قال عامر : ومتى حاربكم المنذر يا مولاي بعد عوده الى العرش ؟

قال: ليس في القطر العربي كله. بل ليس في الشرقين. الاقصى والادنى عدو يحاذره الفرس ويخشون جانبه الا الروم . فلما تولى كسرى امر العجم، تعاهد الملكان ، هو ويوستنيان « العظيم » ملك الروم ، على صلح طويل الامد . بشروط تلائم الاثنين ، فلما تم الصلح ، ارسل يوستنيان جيوشه « الى اوروبا وافريقيا » يفتحون الفتوح ، وعلى رأسهم بيلزاريوس قائد الروم الاكبر . فندم كسرى على الصلح ، وعرف ان يوستنيان لم يقدم على صلحه، الا ليتفرغ لقتال غيره فيزداد توسعاً ونفوذاً فاوعز الى عامله ابن ماء السماء ليحاربنا . فاقبل علينا اولا بجنده العراقي ،

ثم بعث اليه سيده كسرى بجنود العجم ، وابن ماء السماء يتظاهر بان الحرب بيننا سببها طريق للماشيـــة في جنوبي تدمر . يزعم هو انها في حدود ملكه . ونحن نقول انها لنا وقد طال عليها الــنزاع ، فنشبت الحرب. ولكن ابن ماء السماء يعلم انه لا يقتل منا رجلاً الا ونقتل بدمه العشرين من رجاله . فلما رأى انه اضعف من ان ينـــال منا ما اراد . امره كسرى « كامرّ » بان يغزو سوريا ، فغزاها . وجاءه كسرى من ورائه بكل مافي بلاده من قوة وجيش . فدوخا الشواطىء «وآسيا الصغرى » وكاد انو شروان يفتح القسطنطينية عاصمة الروم .

فارتعدت فرائض القيصر يوستنيان ، واستنهض قائده الفاتح بيلزاريوس ثم اوفد الينا رسله يسألنا ان نساعده في الدفاع . فمشت الجنود ، جنودنا وجنود الروم الى الحرب ، الى عاصمة الفرس لندكّ عرشها ونمحو اثره . وبينما نحن في ما بين النهرين وقد تجاوزنا نصيبين في ليلة شديدة الظلام . نهض بيليزاريوس ، وتقدمنا في معظم الجيش دون ان يأخـــذ رأينا في الامر . وهو يريد ان يخلفنا وراءه ليستأثر بثمار الفتح . فادركنا غرضه ، وكرهنا ان يتأخر الحارث بن جبلة ويتقدم قائد الروم . فقطعنا اخبارنا عنه ورجعنا الى الشام .

وماذا ربح بليزاريوس من طمعه . انه لم يربح غير الذل . فقد عاد كسرى الى بلاده واخرجه منها بقوة السيف .

تلك خطيئة صاحبنا قائد الروم ، فلولا طمعه ، لكانت ايران والمدائن في حوزة يوستنيان . وعلى عرش الاكاسرة ، الذي هو تحفة العروش ، رجل من انسباء القيصر

ثم ارتفع صوت الملك وهو يقول :

هكذا انقضت الحرب الاخيرة بين الفرس والروم . وبيننا وبين ابن ماء السماء لعنها الله ، انها حرب شددت عزائم كسرى . وجعلته سيد الموقف في معظم الجزيرة . واسترجع المنذر اللخمي بعدها ذلك النفوذ الذي خسره ايام فرّ من وجه الحارث بن عمرو . اجل لقدعادت هيبة الرجل الىنفوس القوم. وهو ما كاد يعود الى الحيرة ، حتىوفدت عليه فرسان تغلب واياد ، تعلن له الخضوع ، وتلقي امامه السلاح. ومع ذلك فقد علمته التجارب ان لا يطمئن . فجواسيسه اليوم ينبثون بين قبائل العرب ، وعلى حـدود بني « كلب » يترقبون خروج الحارث الكندي ليحملوهاليه حياً او ميتاً. فتهدأ ثورة نفسه المضطربة. وتضمحل مخاوفه على العرش . هكذا نقل اليّ الرواة ، وانا اعتقد انه سيفعل مع الاولاد ما فعله مع الوالد . وسينتهي الامر بقتل ابناء الحارث الاربعة او بخلعهم عن عروشهم . واخضاع بلادهم وقبائلهم لسلطانه من جديد . ولماذا لا يفعل ؟ وليس في جزيرة العرب كلهامن يشهر بوجهه السيف : ؟

وكان الحارث يتكلم وعيناه تقدحـان الشرر ، وشفتاه ترتجفان من شدة القهر والغيظ .

ثم وضع رأسه بين يديه وأخذ يتمتم كلاماً لم يفهمه الحاضرون .

فدبت الحمية في صدر جبلة وقال :

— : اما الذي يشهر بوجهه السيف فهو نحن يا مولاي

فالتفت اليه الملك وقال :

— : ومعنى ذلك ؟

قال : نفاجئه بحرب في عقر داره فنحيا او نموت .

فهز الملك رأسه ولم يجب .

فقال المنذر : وكيف نقدم على حربه في بلاده وجيوشه تملأ الجزيرة والعراق ؟ !

قال : ليست الجزيرة تابعة له ولكنها تحاذره .

فقال عامر : لي كلمة يا مولاي .

قال : ما هي ؟

قال : يجب ان نأخذ رأي امراء القبائل ابناء الحارث بن عمرو قبل ان يبطش بهم ابن ماء السماء .

فبرقت اسرة الملك ، ورقص قلب ثعلبة بن هنب من شدة الفرح . . ثم قال الملك :

— : ان لك يا عامر رأياً ونظراً . فهكذا سيفعل الملك . وستكون انت سفيره الى نجد والعراق . انها لمهمة صعبة يا بني ، ولكنها تسهل باذن الله على الفتى الفصيح اللسان السديد الرأي .

ان ابناء الحارث هم امراء القبائل . ونحن نعلم كما يعلم جميع الناس . ان الامير لا يترك امارته ويتخلى عن عرشه الا اذا اكرهوه . غير ان الكنديين اصبحوا بعد خلع ابيهم — امراء مستضعفين ، لا يطيقون حرب المنذر ولا يستطيعون الدفاع الا اذا ارسلت اليهم السماء حليفاً قوياً بنفوذه . غنياً بالمال والرجال . يضعون ايديهم بيده . ويتعاهدون جميعاً على قتال عدوهم في حالتي الهجوم والدفاع . فقل لهؤلاء الامراء

ـ ان استطعت ـ ان الحارث بن جبلة ملك البلقاء وحوران. سيكون حليفهم على ملك الحيرة. وسنبعث اليهم الجند من اليرموك ، والغيور ، وبيسان ، وطبرية ، والشام ، وحوران ، حتى نملأ بلادهم رجالا . فاما ان نمحو ذكر اللخميين من هذا الوجود . واما ان يخونونا الحظ فنقنع بهذا الملك الذي ورثناه. اجل. قل لهؤلاء الامراء انهم اذا كانوا ضعافاً فقوة الحارث الغساني تجعلهم اقوياء. وكلما امطرهم المنذر حرباً امطرناه رجالا . وان مشى اليهم فترا مشينا اليه ذراعاً . فليجمعوا كلمة القبائل ويتحدوا انما هم ضعاف لانهم متفرقون .

لقد ثارت السامرة على فلسطين«سنة ٥٢٨» ثورة اهتزت لها جوانب بيت المقدس . فاستعان بنا الروم ، فاخمدناها بجندنا العربي وهو لا يزيد على الالفين . في حين ان السامرة الثائرة كانت بضعة الاف . وبقوة الغسانيين ، نعم ، بقوتنا نحن . جدد يوستنيان بناء المعابد في القدس . وبنى دير بطورسينا وشاد فيها حصناً حوله المرامي والقلاع . ان الالفين من الرجال . يسودهم رأي واحد وارادة واحدة . ليغلبون العشرين الفاً الذين لا يجمعهم رأي .

رجال القبائل في نجد. اكثر عدداً من رجال المنذر . واطفال نجد . يقاتلون بالسيف . كما يقاتل ابطال العراق . وكما يقاتل المنذر نفسه . فلماذا الخوف اذن . ولماذا يخضعون وهم الاقوياء لملك الحيرة وهو الضعيف !؟

ثم نهض الملك عن سريره واخذ يتمشى في عرض القاعة وهو يقول: لقد نقل اليّ ضيوف من بني جذيمة . قدموا حوران امس . ان

المنذر يبعث بالهدايا الى سلمة بن الحارث امير تغلب . ويرسل في الوقت نفسه من يقول لاخيه شرحبيل امير بكر . ان سلمة اعظم منك . وهذه هدايا المنذر ترد عليه كل يوم . أتعلمون لماذا يفعل ذلك ؟ . ليوغر صدور بكر من جديد ويملأها بغضاً وحسداً . ان ملكاً سلاحه المكر والخداع هو الملك الذي يجب ان تدوسه اقدام العربان .

فاذهب يا عامر ، وان اشتبكت السيوف في نجد فاقتحمها . واذا اندلعت السنة النار فاخترقها . واذا اعترضك المنذر اللخمي نفسه فاطعن صدره بالسيف حتى تصل الى هؤلاء الامراء المستضعفين فتؤدي اليهم الرسالة. ثم تجاوز نجداً الى بني قومك ، الى جبال « كلب » وقل للحارث الجبان . ان الحارث بن جبلة من ورائه . فليخرج من مخبأه وليرجع الى نجد . وليطالب ابن ماء السماء بالعرش في وضح النهار وبرؤوس الحراب وانا ، انا ابن غسان ارده اليه . وبالرغم من كسرى انوشروان اعيد التاج الى رأسه .

قال هذا وعاد الى سريره . والعرق يقطر من جبينه . وصدره يعلو وينخفض من همه وغضبه .

فتجلت لزهير بن جناب صعوبة المهمة التي انتدب لها الملك عامراً . فهاجت عاطفته . وتساقطت دموعه . ولكنه اخفاها بيديه وظل ساكتا .

ثم قال الملك بصوت عال ولهجة حادة :

— : أمستعد انت يا عامر ؟

— : نعم يا مولاي فالموت هين في سبيل رضاك .

قال : ان الموت لا يرده احد وقد يكون كامناً لك في نجد . أفتخاف الموت ؟

فقال: مرحباً بالموت اذا كان في طاعة مولاي الملك. ولكن افضل الموت على كل حال في ساحة الشرف وبيدي سيفي ورمحي .

فالتفت الملك الى رجاله وقال : هكـــذا يجب ان يكون شباب البلقاء وحوران .

ثم قال لزهير : وانت ايها الشيخ . اتأذن لعامر بالسفر ؟

قال : الملك يـأمر ونحن نطيـع . ومتى يكون السفر يا مولاي ؟

ــ : بعد عشرين يوماً على الاكثر . ولعامر ان يختار رفيقاً من يشأ من الرجال .

فقال عامر : اما رفيقي ففتى يقود ناقتي ويصون ثيابي وزادي .

قال : اختر من تشأ اذن من غلمان القصر .

: اني لا اعرف احداً من هؤلاء يا مولاي .

فقال المنذر : نجعل خادمنا الرومي خادماً له في سفره .

قال الملك : الروم لا يصلحون لمثل هذه المهمات . « ومالياني » لا يعرف بلاد العرب .

قال عامر : اما انا فاعرفها يا مولاي .

: ولكن هذا لا يكفي . فاختر له رفيقاً يا أبا كرب .

ففكر المنذر قليلا ثم قال :

لقد اخترت له ابن سلمة يا مولاي .

فارتفعت اصوات القوم يقولون : لقد احسن ولي العهد الاختيار .

وتنفس ابن جناب الصعداء لان ابن سلمة خير من تقع عليه العين من الرفاق .

• • •

يا غلام . قل لابن سلمة ان يحضر الآن

فانصرف الحاجب لتنفيذ امر مولاه .

فالتفت الملك الى ولي العهد وقال :

مازحه قليلا يا أبا كرب فان ابن سلمة لطيف النكتة حاضر الذهن .

واقبل جفال فسلم ووقف .

فقال له الحارث : اما الآن فلا نسألك رأيك يا ابن سلمة في الذهاب الى نجد . بل نأمرك بذلك .

فاجال جفال نظره في القوم وفي زوايا القاعة . ليرى اذا كانت الاميرة كوكب في مجلس الملك .

فضحك الحارث وهو لم يضحك في ذلك اليوم . وقال :

ان الاميرة ليست هنا يا خبيث ولكن مولاك ابا كرب هو الذي اقترح سفرك .

فنظر ابن سلمة الى ولي العهد نظرة عتاب وقال :

بارك الله فيك يا مولاي انك خير المحسنين . ثم قال : اوصيك خيراً باختي ليلى يا وليّ العهد .

فقال المنذر : ستقيم بيننا حتى تعود .

ـ : بل تقيم بينكم الى الابد لاني لن اعود .

: لا تكن ضعيف القلب يا جفال .

لست ضعيف القلب يا مولاي ولكني ضعيف العقل .

: ولماذا ؟

: لان مولاي الملك يقذف بي الى اشداق الموت وانا مكره على القبول . وماذا افعل في نجد يا مولاي ؟

: تطوفها من الغرب الى الشرق ، ومن الشمال الى الجنوب . وتحدث امراءها ورؤساء العشائر حديثاً نمليه عليك .

ـ : ومن ينقل اليكم الجواب يا مولاي ؟

ـ : انت !

ـ : اما انا فقد قلت اني لن اعود .

ـ : بل تعود لان الملك يريد ذلك .

ـ : واذا مت في نجد ؟

ـ : يبعث الملك اليها من يقوم بدفنك. فاذهب واعد ما نحتاج اليه .

ـ : انه لسفر جميل يا مولاي لا احتاج فيه الا الى الكفن .

فازداد الملك ضحكاً وقال : اتخاف يا جفال ؟

ـ : وكيف لا اخاف يا مولاي وانت تبعثني الى بلاد لا اعرف فيها احداً والحرب تلتهمها التهاماً ؟؟ أفلم تجد بين رجالك يا مولاي من

تشرفه بهذه الخدمة غير ابن سلمة ؟ ام هي قضية اضياف يذهب ابن سلمة لاستقبالهم باسم الملك ؟

فقال المنذر : بل يذهب ابن سلمة الى نجد ليشتري اصحاباً للملك .

قال : لا خير في صاحب تشتريه يا مولاي .

فقال الملك : عندما يقلّ المخلصون يضطر الملك الى بذل المال. ومع ذلك فنحن نأذن لك ان تختار رفيقاً من هؤلاء الرجال .

— : وانا مطلق في الاختيار ؟

قال الملك : نعم لك ان تختار من تشاء

— : اذن اذهب يا مولاي واستعد للرحيل فانت ذلك الرفيق .

فدمعت عيون الحاضرين من شدة الضحك .

قال الملك : ولماذا وقع علينا اختيارك يا جفال ؟

: لان هيبة الملـــك تمنع عني الموت . ومع ذلك ، فلنفرض اني بقيت حياً . فانا افضل البقاء في نجد ارعى النوق في سهولها والجبال على العود الى بلاد يكافىء فيها الملك خدمه بارسالهم الجحيم. ومن اختار اذن يا مولاي ؟

— : من تشاء الا الملك وانجاله .

— : لقد اخترت عامر بن زهير يا مولاي .

— : ونحن نأمر عامراً بان يتهيأ للرحيل .

— : ولكن أتسمع شروطي في ذلك يا مولاي ؟

— : وهل لك علينا شروط يا ابن سلمة ؟ لا بأس فقل .

— : اجعل عامرا رئيس الوفد وانا تابعه .

— : لقد جعلناه .

— : وامل عليه الحديث الذي ينقله الى امراء نجد .

— : سنمليه عليه .

— : واعطه المال الذي يبتاع به اصحاباً للملك .

— : وانت ماذا بقي عليك ايها الخبيث ؟

: بقي عليّ اعداد الطعام لرئيس الوفد والقيام بحاجاته .

— : لقد رضينا . وبعد ذلك ؟

: ولي ايضاً كلمة لا اقولها الآن .

— : ولماذا ؟

— : لاني اخاف فلا اقولها الا ساعة الوداع .

— : لقد تدللت ما شاء الدلال يابن سلمة ولولا حاجتنا اليك لعلمناك كيف يكون الدلال على مولاك ...

قالها الملك وهو يبتسم . ثم وجه حديثه الى زهير وقال : وبماذا تنصح للرسولين يا ابن جناب ؟

— : انصح لهما بالاخلاص والطاعة .

— : وبعد الطاعة ؟

— : باستعمال الحكمة ، والحيلة ، والدهاء .

— : اما الحكمة والدهاء فمن صفات عامر . واما الحيلة فمن طبع هذا الجبان . واشار الى جفال . أليس كذلك يا عامر ؟

قال : الحكيم من وضع الشيء في موضعه يا مولاي .

- : احسنت . وسيجرب الحارث بن جبلة الآن ان يكون حكيما. لقد جعلناك يا ابا عامر منذ الآن . نديمنا وصاحب سرنا . والرجل الاول في بلاطنا . لا يتقدمك في الركوب والجلوس الا انجال الملك واعمامهم وابناءهم . وسيكون ولداك اخوين لاولادنا ، يتقلدان السيوف في مجلسنا . ويأكلان على مائدتنا ، وينزلان في قصرنا . وجعلنا لك الف ناقة . والف شاة . ومئة عبد وعشرين فرساً . ولك مثل هذا منا كل سنة . أترانا وضعنا الشيء في موضعه الآن ؟

فجثا ابن جناب على قدمي الملك وقبل رداءه وقال :

أنا عبيدك يا مولاي نعيش في ظلك ونموت في خدمتك .

وقال عامر : ولا نتقلد سيوفنا الا للدفاع عن عرشك

وقال قيس : وستكون حياتنا ملكاً لك ولاولادك من بعدك .

ثم التفت الحارث الى ولديه المنذر وجبلة وقال : « وقد أومأ الى عامر وقيس » اتخذهما نديمين في السلم ، ومعاونين في الحرب . واما سفانة يا أبا عامر . فقد جعلناها اختاً لبنت الملك . وهي تقيم الآن في الجناح المختص بحليمة من هذا القصر .

- ١٦ -

حليمة وسليمى

وكانت حياة سليمى بنت ثعلبة. قد تغيرت تغيراً تاماً . بعد اجتماعها بحليمة بنت الملك « كما تقدم في الاجزاء الاولى »

اما الحديث الذي دار بين الاثنتين فهو هذا :

قالت حليمة :

انك يا سليمى اجمل فتاة في غسان . وان اسرتنا بما فيها الملك . لترغب في ان تكوني وليـة العهد اليوم . والملكة المحبوبة المحترمة في المستقبل . ولكن رغبتنا شيء ، وغرام اخي المنذر شيء آخر . فقد تعبت كثيراً وتعبت الاميرة لتجمع بين الاثنين ـ بينك وبين أبي كرب ـ فلم نفلح ، لان المنذر فتنة القضاعية الحسناء التي قدمت حوران . وبصراحته التي تعرفين . باح للملك بهواه . وسأله بتربة امنا الملكة ان لا يكرهه على الزواج بغير من يحب . وانت تعلمين يا سليمى ، ان ابا كرب ثابت الارادة . اذا قال لا تغير الحادثات قوله . ولا يؤثر فيه تقلب الزمان .

والملك نفسه . بالرغم من شدته وحزمه . لا يحاول ان يكره ولي العهد على قبول امر لا رغبة له فيه. خصوصاً اذا كانت القضية قضية حب لا تمس مصلحة العرش .

فارجو منك اذن ان تتناسي غرامه . وان تكوني دائماً تلك الفتاة الطاهرة الخلق . لئلا تشمت بك فتيات حوران. وتتناقل غرامك افواه الخدم والغلمان .

انك فتاة في زهرة العمر وبنت الشرف والجاه . ولك الجمال تحسدك عليه العيون . وكل فتى في القصر الابيض . بل كل فتىً في دولة ابي . يعترف لك بالجمال الساحر والادب العالي . ويتمنى ان تقترن حياته بحياة فتاة مثلك . فاذا خانك الحظ في غرامك الاول . فستصيرين الى يوم لا تعرفين فيه من تردين من فتيان العرب ومن تقبلين .

ولست اخاطبك يا سليمى بصفتي بنت الملك النافذة ارادته في شعبه. بل بصفتي حليمة بنت الحارث بن جبلة الغساني . رفيقتك في ميادين السباق وفي سهول حوران . بل بصفتي اختك الكبري التي لو استطاعت لهيأت لك كل اسباب الهناء . فحكمي عقلك الهادىء في الامر ولا تحكمي القلب . فقد يثب القلب المضطرب الخفاق وثبةً طائشة ينقطع بعدها كل امل له وكل رجاء .

قولي للأميرة كوكب انك نسيت ولي العهد فلا تطمعين بزواجه بعد الان وان تلك الابتسامة التي جادت بها شفتاه تلاشى خيالها واضمحل اثرها . وانك لا تذكرين المنذر الا كما تذكرين شقيقيه جبلة والحارث . او كما تذكرين اخاك عاصماً الذي يحبه الملك ويفضله على

سواه من فتيان البلاط . افعلي ذلك حفظاً لمنزلتك بين وصائف القصر . وصوناً لمستقبلك الذي سيكون زاهياً كجبينك الوضاح ان شاء الله .

فبكت سليمى ، وهي مشرقة الجبين باسمة الثغر . لا يكاد يعرف الناظر اليها ان عينيها تبكيان .

وتلك قوة في الارادة ما استطاعت حليمه الا ان تعترف بها للفتاة العاشقة التي اشقاها الغرام .

ولكنها سألتها قائلة :

ـ : لماذا تبكين يا سليمى ؟

فقالت : اما بكائي يا سيدتي فلا اعرف سببه ولكني اعترف لك الآن اني نسيت المنذر . وكلما ذكرته . ذكرت ذلك الغرور الذي اجاز لفتاة مثلي ان تحب فتىً مثله .

لقد كتمت حبي يا سيدتي كتماناً كاد يفضي بي الى الموت . ولكن مولاتي الاميرة انتزعته من صدري وارادت ان تفشيه . فاصبح بعد هذا الافشاء حديث القوم في القصر . وبت اخشى ان يدلّ عليّ الناس خارج القصر فيقولوا : هذه هي الفتاة المغرورة التي تعشق وليّ العهد .

اجل اني لمغرورة . ففي ساعة واحدة ضيعت عقلي وبذلت قلبي . وانا احسب ان هذا الحب الذي تملكني حب اوحت به الي السماء .

على اني لست نادمة على ما فعلت الا من جانب واحد . هو ان وصيفة في قصر الملك احبت مولاها . وكان عليها ان تعلم انه لا يجوزلها ان ترفع نظرها اليه . فانا ، انا وحدي الجانية على نفسي ، لان وليّ

العهد لم يخدعني ولم يقل لي كلمة حب. غير انه ابتسم لي كما يبتسم لفرسه. فحسبت ابتسامته غراما فوقعت في الشرك . فاسأليه يا سيدتي باسم ابيه الملك. ان يعذرني . وليذكر دائماً اني لم ابح له بحبي . بل الاميرة باحت بهذا الحب للملك دون ان يكون لي في ذلك ارادة او رأي .

وثقي يا سيدتي . ان هذه الوصيفة التي خانها الحظ . ستكون اشد اخلاصاً للبيت المالك من ذي قبل . وستبذل هذه المرة حياتها في سبيله. كما بذل اباؤها حياتهم في سبيل العرش .

واما سفانة . الفتاة التي ستصبح ملكة . فهي اعزّ عليّ الآن من بنات عشيرتي . بل اعزّ من اختي لو كان لي اخت . وعندما تمسي زوجة وليّ العهد . تقوم سليمى بنت ثعلبة بخدمتها ، كما يجب ان تقوم بخدمة مليكة البلاد .

— : ومن قال لك ان سفانة ستمسي زوجة المنذر ؟

— : سمعتك تقولين الان ان ولي العهد سأل اباه الملك ان لا يكرهه على الزواج بغير من يحبّ فليهنأ العروسان بهذا الزواج . وليكن زواجا مقدسا مشمولا بالبركات .

— : ومن يعلم يا سليمى فقد يحول الملك دون ذلك .

— : ذلك امرٌ لا يعنيني يا مولاتي . لان هذا القلب الذي خفق على حب المنذر من قبل ، لايخفق على حبه بعد الان . وتلك العاطفة التي كانت هوىً وغراماً ، تحولت فيّ الى عاطفة اجلال واحترام ، هكذا قلت لك يا سيدتي . وهكذا سأقول لسيدتي الاميرة، فارجو ان يعرف

الملك ووليّ عهده اني استرجعت عقلي وقلبي فلا يعاودني الغرور الذي كان سبباً لشقائي .

وكانت تتكلم وعيناها شاردتان في فضاء الغرفة، وهي لا تبصر شيئاً من كثرة الدموع .

على ان موقفهـــا كان شريفاً فلم تستسلم الى الهوى ، ولم تبح بما في فؤادها من لواعج الحب .

ثم قالت: والآن اسمحي لي يا سيدتي بالانصراف .

فعرفت حليمة ان قلب الفتاة تمزقه الاحزان .

فقالت لها

— : الا تريدين يا سليمى ان تري سفانة ؟

— : واين هي يا سيدتي ؟

انها في منازل الاضياف .

اذن سأراها في القصر بعد ان تجتمع بالملك .

وراحت سليمى تقصّ على ابيها واخيها مـا جرى بينهـا وبين بنت الملك . فغلت مراجل الحقـــد في صدر ثعلبة ، واستولت على عقله من ذلك الحين ، فكرة هائلة ملكت مشاعره وضغطت دماغه . هي فكرة الخيانة والانتقام .

واختلى على الاثر بقيس بن ثابت « كما مرّ » وابنه عـاصم ـ اخو المنذر بالرضـــاع ـ يسمع حديث الاثنين وجسمه يضطرب من هول ما سمـع .

- ١٧ -

المؤامرة

خيانة واخلاص

وعادت سليمى الى حياتها الماضية. حياة اللهو واللعب. كأنها لم تعشق المنذر ولم يدلها هواه .

وكان عاصم بن ثعلبة اصفر الوجه شاحب اللون . عندما قابل اخته في قصر الاميرة كوكب .

فاستغربت سليمى قدومه. وعرفت ان في صدره سراً جاء يطلعها عليه فلما لامست شفتاه جبينها ، احست بالنار تحرق شفتيه . فقالت له :

— : أأنت محمومٌ يا اخي ؟

قال : واكثر من ذلك يا سليمى .

فاضطربت سليمى وقالت : وماذا جرى ؟

قال : اترين ان القضاعية الحسناء اساءت اليك ؟

قالت : وبماذا ؟

قال بحبها اخي وليّ العهد ؟

: وكيف تسيء اليّ وهي لا تعرفني ولا تعرف اني احبه ؟

: وهل اساء اليك ولي العهد في حبه اياها ؟

قالت : لا .

— : وهل سمعت او قرأت في كتب العرب ان الحب يؤخذ بالسيف

— : بل سمعت ان الحب ليس فيه ضغطٌ واكراه .

— : ولكن رجلًا في القصر يريد ان يكره وليّ العهد على حبك .

فتراجعت سليمى الى الوراء وقالت : يريد ان يكره ولي العهد ؟

— : نعم .

— : ولكني نسيت ولي العهد فلا اريده ولا اريد سواه الآن زوجاً لي .

— : ومع ذلك . فهو ماض في تنفيذ عمله الفظيع .

— : ولكن لا افهم ماذا تقول .

— : اقول ان عملًا فظيعاً يقدم عليه هذا الرجل اذا اصر المنذر على حب سفانة بنت زهير .

— : ومن يستطيع ان يمنع المنذر من ان يحب ؟

— : يمنعه الملك .

— : ولكن الملك لا يفعل .

— : اذن فيد هذا الرجل ستنغمس في الدم .

فاهتزت سليمى اهتزازاً عنيفاً وتمتمت تقول :

وكيف ذلك ؟

قال : اغلقي باب الغرفة واجلسي لنتحدث .

فجلس الاثنان . فقال :

اغنى بلاد العرب اليوم . بالمال والرجال نجد . وكل ملك من ملوك العرب يحاول ان يبسط عليها نفوذه وينشر فوق سهولها اعلامه . غير ان ابن ماء السماء كان السابق . فهو اوسع الملوك نفوذاً في نجد . وله بين امرائها وسادتها الاصحاب والحلفاء .

وانت تعلمين يا سليمى ان ملكنا الحارث بن جبلة ، لا يطيق ان يسبقه ملك في التوسع . ويخضع لتاجه بلاداً اخصب من بلاده وقوماً اكثر عدداً من قومه . فكيف به وقد رأى عدوه ملك الحيرة يستولي على معظم نجد ويضمه الى ملكه . فعمد الى الحرب . ولكنه رأى اولا ان يدرس احوال الجزيرة والعراق . ويسبر غور المنذر قبل ان يشهر السيف . فارسل لاجل هذا الغرض . عتبة بن هند ، ويزيد بن عمرو ، ولكنهما لم يرجعا ، ثم بلغه ان ابن ماء السماء يزداد توسعاً ونفوذاً . فلم يرَ الا ان يبعث برسول آخر ، فصيح الحديث جريء القلب يحمل لامراء القبائل رسالة الملك ، وينقل اليه في الوقت نفسه اخبار عدوه .

فاجال الملك بصره في دولة البلقاء وحوران . وبين شباب غسان انفسهم فلم يجد افصح حديثا واجرأ قلبا . من عامر بن زهير اخي سفانة .

ذلك البدوي القادم من سهول نجد. فهو فتيٌ جميل الوجه حلو الحديث. وبطلٌ من ابطال العربان الذين يشهد لهم الحارث نفسه بشدة البأس .

فلما دعا الملك رجاله . وانتدبهم لهذه المهمة انبرى البدوي القضاعي واخوه قيس . يستأذنانه بالسفر . وهما يعلمان ان المهمة صعبة وحياتها تحت خطر الموت . ولكن الملك اختار عامرا وسيبعثه بعد عشرين يوما الى ذلك الاتون الحامي . الذي تشتعل ناره في قلب نجد . فتندلع السنتها الى طرفي الجزيرة .

اجل .لقد اختار عامراً واختار له رفيقاً جفال بن سلمة . ولم يرد ان يجعلني رسوله . كما انه رفض ان يرسل لبيد بن عمرو . فتصور القوم ان الملك لايريد ان يقذف برجـــاله الى مواقف الخطر . ولكن الواقع يكذب هذا التصوّر . لان ابن جبلة كان اكثر وثوقاً بالفتي الاجنبي . منه برجال دولته . وابطال جيشه .

هذا ما قاله لي وليّ العهد . وقد أكبر الملك . كما اكبر قادة الجيش ورؤساء المشائر مروءة هذا العربي الغريب . الذي لايعرف حوران قبل اليوم . واقدامه – في مثل هذه البعثة – على خدمة العرش الغساني المهدد بالاخطار .

ولكن ... ولكن هناك .. بين الرجـال الملتفين حول العرش . المدافعين عنه . الذين يحميهم اسم الحارث بن جبلة وهيبته ، رجلان اثنان ، دبّ الحسد في صدريهما . فتآمرا عـلى قتل عامر رسول الملك . قتلًا لا تتصور العقول افظع منه . ولو انهما اقتصرا عـلى القتل وحده ، لهان الامر ، ولكنهما تجاوزاه الى جريمة اعظم واشـــد تأثيراً في حياة

الافراد الجماعات ، هي جريمة الخيانة ، خيانة الوطن .

قال ذلك : وارتمى على وسادته . وقد ارتجف جسمه ودمعت عيناه. فاسندته سليمى الى ركبتها . وقالت له وهي تمسح دموعه :

ــ اراك كثير الاضطراب يا اخي وانا لا اعلم ماذا يعنيك من امر القتل والخيانة .

فزفر عاصم زفرة كادت تزهق لها روحه وقال :

لقد كان اخوك يا سليمى ناعم البال قرير العين فاصبح من اشقى النـاس .

فهلع قلب سليمى وقالت :

ــ ولماذا يا اخي .

فاستوى جالساً وقال : لان ذلك الجـاني الاثيم الذي سيرتكب جريمتي الخيانة والقتل . هو رجل عاش دهره في ظل بني غسان ، ينفق من مالهم ، ويتقلب في احضـانهم ، ويتمرغ في نعمتهم . هو ابوك ثعلبة ابن هنب ، القائد الثاني لجيش الحارث ...

فمرت امام عيني سليمى سحابة سوداء ، وعقد الخوف لسانها فلم تجب .

اما عاصم فاستطرد قائلاً :

ولقد شاءت الاقدار ان تكوني انت الباعثة على القتل من حيث لا تريدين .

ــ : انا ؟ . . .

ــ : نعم انت ، فلو لم تحبي المنذر ويرفض هو هذا الحب . لظل ابي من اخلص الناس للعرش .

– : ولكنها قضية غرام بين قلبين، لا يدخل فيه الاخوة والوالدون

– : وما حيلتي اذا كان ابوك لا يسمع هذا القول ؟

– : أليس له عذر ؟

– : له في ذلك عذر غريب . هو ان ولي العهد واباه الملك يقولان انك انت من بني هنب . وبنو هنب اصغر من ان يصاهروا الملوك

– : ومن قال له ذلك ؟

: قيس بن ثابت شريكه في الجريمة .

– : شيخ القصر قيس ؟

– : نعم . وهو يحاول ان يوغر صدر ابي على اضياف الملك .

– : وما هو ذنبهم ؟

– : ان هذا الشيخ الكذوب . يخاف ان يحلّ زهير بن جناب محله في منادمة الحارث .

– : ومع ذلك فانا لا افهم .

– : وكيف لا تفهمين والامر صريح ؟ ان قيساً يريد ان يبعد ابن جناب عن القصر لئلا يزاحمه ، يبعده بقتله او بقتل بنيه . او بسبب من الاسباب .

: ولكنه اذا قتل الولدين فلا يبعد الوالد ؟

– : بلى . وستسمعين ذلك من ابيك . وابوك بدوره يهيء اسباب الانتقام من الملك لانه جرحه في نسبه . ومن بني جناب لانهم قدموا

حوران ولولا وجودهم فيها لرضي المنذر بك زوجة

ذلك هو الرأي الغريب الذي يراه . بل ذلك الحكم الجائر الذي اصدره على الملك ، وعلى اضيافه الغرباء .

أفلم تسمعي قوله ــ ساعة رويتِ له حديث حليمة ــ ان ولي العهد لا يعرفنا الا عندما ندافع عن عرش ابيه ؟

ــ : وكيف دبر جريمة القتل ؟

ــ : قولي كيف دبر جريمته المذدوجة . ان الملك ، عندما قرّر ارسال عامر الى نجد ، قال لجلسائه : كل من يعرف منكم شيئاً جديداً عن تلك البلاد فليقله . لاننا قد نرسل رسولنا فجأة وفي ساعة لا تعلمونها . فأخذ القوم يقولون ما يعرفون ، الا والدنا وقيساً فقد بقيا ساكتين . ولما انصرف الناس ، وكان الليل قد اقبل . اختليا في قاعة السلاح ، وهناك دبرا جريمتها الهائلة .

ــ : ومتى عرفت ذلك ؟

ــ : كنت ذاهباً لارى اخي ولي العهد . فسمعت في قاعة السلاح همساً . فقلت في نفسي : ان الملك وابن عمه لبيد بن عمرو يتحادثان . ولكن خيّل اليّ في تلك الساعة اني اسمع صوت ابي . وماذا يفعل ابي في قاعة السلاح ان لم يكن الملك فيها ؟ ... فوقفت ، ثم سمعت قيساً يقول « اما قتله في حوران فخطأ . ولكن نبعث من يقتله في نجد . وعندئذٍ سمعت ثانية صوت ابي . فارتعدت فرائصي وكدت اسقط على الأرض من هول ما سمعت

ـ : وماذا سمعت ؟

ـ : سمعت جداً لا انقله بمعناه اذا لم يكن بألفاظه . كان ابي يقول : ان عامراً يذهب اولا الى نجد ثم الى الحيرة . فوالله لو عرف ابن ماء السماء ان في الحيرة رجلاً من رجال الحارث بن جبلة . لقطع جسمه قطعة قطعة وجعلها طعاماً للسمك في الفرات .

فقال قيس : ومن اين لابن ماء السماء ان يشعر بوجود الرجل ؟

قال : نرسل اليه رسولا يدله عليه .

قال : واذا لم يصدق الملك هذا الرسول ؟

قال : نكتب اليه اذن كتاباً صريحاً .

قال : وماذا تقول في كتابك ؟

فقال ابي : اقول . ان في الحيرة ايها الملك عيناً « اي جاسوساً »من قبل الحارث بن جبلة . يدعى عامر بن زهير بن جناب الكلبي نزيل حوران . اما رسولي الذي يدفع اليك هذا الكتاب فهو يدلك عليه .

قال : ومن يوقع الكتاب ؟

قال : نرسله دون توقيع .

فقال الشيخ: واذا سأل الملك رسولك عن الذي ارسله فماذايقول؟

فسكت ابي ولم يجب .

فقال قيس : ان ابن ماء السماء اذا تناول كتاباً لا توقيع فيه قتل حامله .

قال : وماذا نفعل الآن ؟

قال : ضع اسمك في آخر الكتاب فيزول الشك من صدر الملك .

فرضي ابي بذلك . وهكذا اتفق الاثنان على قتل رسول الملك . وخيانة العرش .

فاختنق صوت سليمى . واحست ان يداً من حديد تضغط صدرها. ولكنها تمتمت قائلة : ان ملك الحيرة يقتل الرسولين معاً . ابن جناب وابن سلمة .

— : قد يعفو عن جفال عندما يعلم انه رفيق سفر .

— : ومن يكون رسول المتآمرين الى الحيرة ؟

— : يكون رجلاً يحب القتال وسفك الدماء .

— : الا تعرفه ؟

: سمعت ابي يسميه . فهو ذلك الشقي عروة الذي لجأ الى عشيرتنا منذ عامين

وكنت في ذلك الموقف يا سليمى ، موقف التنصت على الابواب . كالرجل المحكوم عليه بالموت. ولكني كنت مكرهاً عليه . لاني كنت اسمع ابي واراه ينغمس في الجريمة . ويحكم على ذريته بالذل والعار الى الأبد ثم اكتفيت بما سمعت . وابتعدت قليلًا منتظرا ابي في الرواق . حتى خرج وراء ذلك الشيخ الجـــاني . وقد كتب على جبينه بسطور سوداء : هذا هو خائن مليكه وقاتل الابرياء .

فحاولت الفرار . ولكني احسست ان الأرض تهوي تحت قـدمي

وانا اهوي معها الى الاعماق .

فأسندت سليمى رأسها بيديها . واتكأت على وسادتها وقد احمرت عيناها من البكاء .

وصبر عاصم حتى هدأ روعه . ثم عاد الى الحديث فقال :

ولما رآني ابي في زاوية الرواق قال لي :

أتنتظر أحداً يا بني ؟

قلت انتظر ولي العهد .

فقال : ولماذا ؟

قلت لانه امرني بالانتظار .

فنظر اليّ نظرة احد من السهم وقال :

اتبعني فانا بحاجة اليك .

وكان ذلك الشيخ قد ابتعد عنا . وهو يجر بردته كأنه قـــادم الى وليمة .

فقلت لأبي : اتريد ان تحيي الليل كله في اختراع الجرائم ؟

فاهتز جسمه وقال : أمجنون انت يا عاصم ؟

قلت نعم . جننت منذ ساعة . عندمـــا سمعت ثعلبة بن هنب قائد جيش الحارث يتآمر على سيده .

فقال : اخفض صوتك يا عاصم .

فلم اعبأ بقوله بل قلت : وزاد جنوني حينما رأيت ان جريمة الخيانة تفضي الى جريمة اخرى هي جريمة القتل .

فعرف عندئذ اني مطلع على سره :

فوضع يده على فمي وقال : قلت لك اخفض صوتك واتبعني .

قلت . وهل يليق بقائد الجيش ان يفعل امراً هو يخجل من ظهوره: والى اين أتبعك ؟

— الى حيث اختلي بك فنتحدث .

فمشيت وراءه وانا أشعر يا سليمى اني لا اطيع حينذاك أبي بل اطيع واجبي ومليكي .

ولما وصل الى غرفته . فتح بابها وامرني بالدخول ثم اغلقه وراءه وقال :

اجلس أيها الابله وقل لي . أسمعت شيئاً من حديثنا .

بل سمعت كل شيء .

— وما رأيك فيما سمعت .

قلت : اتسألني رأيي في الجريمة ؟

قال : نعم .

فرأيت ابي يصغر في عيني حتى كدت ان لا اراه . وقلت له :

أيحاول قائد الجيش ان يشرك احد جنوده في جريمته ؟

فقال بجفاء : ولكن الوالد يريد ان يشرك ولده . ورئيس عشيرة هنب يجب ان تشترك عشيرته كلها في جريمته . ألم تلحق بك وبقومك الاهانة التي وجهها الملك الى ابيك بقوله لاخته الاميرة — ان بني هنب أصغر من ان يصاهروا الحارث بن جبلة ؟

قلت : هذا قول لا اصدقه .

فأتم حديثه كأنه لم يسمعني . قال :

ولماذا لم يكن بنو هنب – مدة جيلين كاملين – اصغر من ان يدافعوا عن ملكه . بل لماذا لم يكونوا – في سبيل عرشه – اصغر من ان تسقط رجالهم وابطالهم في ميادين الحرب ؟؟ ان الحارث بن جبلة . لا يريد ان يعترف ان في الوجود رجلاً . له رأي اصدق من رأيه . وجنان اثبت من جنانه . وسيف اطول من سيفه . وهو يعتقد انه نبي ارسلته السماء . لا ينطق الا بالوحي على لسان جبريل . ولا تضاهي نسبه الملوكي عزاً وشرفاً . انساب كسرى ويوستنيان وابن ماء السماء . لملك عات مستبد يضبط امور ملكه بقسوته واستبداده ليس لرجاله قول بل ليس لهم وجود في بلاده . هو الكل في الكل . بل اله الشام ونحن عباده . اما قادة الجيش ورؤساء العشائر . فعبيد يسخرهم لارادته ويقذف بهم الى اشداق الموت بلفظة من شفتيه . فاذهب يا بني . اذهب وكن مخلصاً للملك الظالم . ولاخيك ولي عهده الفاتن عذارى حوران . اما ابوك فسيكون خائناً ومجرماً في نظرك . وسيجرب ان يستميل غيره ليخون . ولكنه يعتقد ان هذه الخيانة . هي واجب مقدس يخلص بها شعباً كاملاً من ظلم ابن جبلة ويبني لبلاد الشام ملكاً تقوم دعائمه على الحق والعدل . اذهب وكن عبداً . ودع اباك يحفر حول العرش حتى يدك اسسه او يرحل الى بلاد الله .

وكان ابي يتكلم وصوته يتهدج من الغضب . فسألته قائلاً :
والى اين نرحل ؟

فقال ولم يخجل : الى الحيرة عاصمة اللخميين . فنكون اعواناً لابن ماء السماء عدو ابن جبلة .

فكدت انسى يا سليمي انه ابي . ولم اذكر في تلك الساعة الا اني من رعية الملك بل من خاصة رجاله . فهممت بان اصفع ذلك الرجل الذي يخون ولي نعمته . ثم رأيت من الحكمة ان اقنعه بالحسنى . فقلت :

أتصدق يا ابي ان الملك يقول لاخته هذا القول ؟

فقال : ان قيس بن ثابت الذي لا يعرف الكذب سمعه باذنه .

قلت : لنفرض يا أبي ان القول صحيح . أفلا يحق لمليك البلاد . وهو سيد الشعب كله . ان يقول ما يشاء ؟

– بلى ولرعيته ايضاً ان تفعل ما تشاء .

– ومتى كان الشعب يثور على مليكه .

– عندما يهتم الملك لنفسه . ويترك شعبه لحكم التقادير .

– ولكن ابن جبلة اطيب الملوك قلباً واكثرهم عدلاً .

قال : هذا في نظر المخلصين مثلك ... اما في نظر الخونة مثلي .

فهو الملك الطامع السفاح . الذي لا تقر عينه الا برؤية الدمـــاء . ولا يطيب عيشه الا اذا نظر الى اشلاء القتلى تحت حوافر جواده .

انه لمشهد يستوجب البكاء. ولكني ضحكت . وضحكت كثيراً . عندما سمعت ابي يتحدث بالعدل والحق . ويلقي عليّ تعاليمه الجديدة . ومتى اصبح ابن هنب يكره الحرب والدماء . وهو الذي قضى زمانه يغزو القبائل الآمنة فيقتل الرجال والاطفال . ويسبي النساء والاموال ليشبع مطامعه التي لا يعرف لها حدّ ؟ واي ملك يا سليمى نهى شعبه عن فظائع الغزو غير الحارث بن جبلة ؟ بـــل اي ملك من ملوك

العرب وضع للحرب نظاماً . وابطل بين عشائره عادة قتل الاسرى وسفك الدماء ؟؟

هكذا كنت احدث نفسي . وقد بدأت اشعر ان الاخلاق التي ينطبق عليها صدر ابي . هي اخلاق حسود لا ضمير له ولا وجدان . ثم قلت له :

أيجوز لك يا ابي ان تقول . ان الملك لا يهتم الا لنفسه . وانت اكثر مالاً منه ولك من النوق والخيول والنعم اضعاف ما للملك؟ أليس الملك نفسه هو الذي يغدق عليك نعمه ويخصك من غنائم الحرب بما يخص به ابناء عمه ورجال اسرته ؟ ومن يبذل ماله كما يبذله الحارث بن جبلة لشعبه ولاضيافه ؟ نحن نخزن الذهب والملك ينثره على الناس . ونحن نستأثر بحق العشائر وهو يهب لشعبه وللغرباء حقه . ومع ذلك فقائد جيشه يقول : ان الملك لا يهتم الا لنفسه !!..

فرأيت عيناه تختلجان . ثم غير الحديث فقال :

قل لي يا عاصم . لماذا اصبح بنو هنب ادنى نسباً من بني سعد . ولماذا جاز للملك جبلة ان يتزوج فتاة من هؤلاء ؟

قلت : ان الملك جبلة احب هذه الفتاة فاتخذها زوجة . كما يحب ولي العهد الآن فتاة بدوية قد تصير زوجته . اذن فالخلاف ليس على الحسب والنسب بل هنالك عشق وغرام . ومع ذلك أفتريد ان تنشب الحرب بين عشيرتنا وجنود الملك. لاجل كرامة لم تمس ونسب لم يجرح ؟ وهل تستطيع يا ابي – ولو اجتمعت تحت لوائك عشائر حوران – ان تحارب الحارث بن جبلة ، وهو الذي هاجم كسرى في عاصمة ملكه . واخضع

السامرة الثائرة للروم . وهزم اكثر من عشر مرات جنود اصحابــك اللخميين ؟ ومن قال لك ان عشيرتنا تخون الملك وتنضم اليك وهي تعلم انك قد ربيت في نعمته واستغنيت من عطاياه ؟؟

فلم يسمع كلامي حتى انتفخت اوداجه . واخذ يضرب جدار الغرفة بيده ويقول :

اما اذا كان هاجم كسرى وفلسطين فبقوتنا نحن الجنود لا بقوته . ومع ذلك فانا لا احارب هذا الظالم في ساحة الحرب . بل بقوة الخيانة التي تعيبني بها الآن .

ثم نادى عروة وقال له أمامي :

اني سأبعث بك يا عروة الى الجحيم فهل تذهب ؟

قال نعم اذا كان في الذهاب الى الجحيم رضاك .

فأشار اليه بالانصراف . ثم التفت اليّ قائلاً :

اما انت فانصرف عني الآن لانك الولد الذي يتمرد على ابيه ولا يعرف قيمة نفسه .

فجئت اليك يا سليمى وانا لا اجد لي مخرجاً من هذا العار الا بان اخبر وليّ العهد .

فاطرقت سليمى قليلاً ثم رفعت رأسها وقالت :

– اذا اطلعت المنذر على الامر فقد قضيت على أبيك .

– ولكني اذا كتمته فقد شاركت ابي في الجريمة.

– اصبر يا اخي فسنحاول اقناع ابينا من وجه آخر .

ـ : ولكنه لا يتحول عن عزمه .

: سنرى . فاذا بقي مصراً عليه احبطنا مسعاهمن حيث لا يشعر .

: وكيف تحبطين هذا المسعى والمنـذر ابن ماء السماء نفسه هو الذي يتولى قتل الرسول ؟ أتكونين في حوران وتمنعين القاتل من القتل وهو في العراق .

دع عنك هذا الآن وهيا بنا .

وسارت سليمى الى حجرات الاميرة كوكب تستأذنها في الذهاب.

فقالت الاميرة :

أفي مثل هذه الساعة من الليل تخرجين من القصر ؟ والى اين ؟

ـ : الى مرابط الخيل فارى فرساً لأخي ارسل اليـه من دمشق .
فضحكت الاميرة وقالت :

ـ أفلا يجوز ان تري فرس اخيك غداً صباحاً ؟

فقالت : سيركبها الليلة للطواف في السهل . وقـد لا يعود الا بعد يومـين .

فازدادت الاميرة ضحكاً وقالت :

اما عذرك يا سليمى فغير مقبول . فقولي لي الى اين تذهبين .

فاجابها عاصم من الخارج :

ـ صدقيها يا مولاتي فقد قرب « يوم الجمار » فهي ستركبها فيه .
فقالت لقد صدقناك يا عاصم فلتذهب .

ومشى الاثنان حتى وصلا الى الرواق الكبير . فوقف عاصم امام قاعة السلاح وقال :

ليس في القصر الابيض من يشهد على خيانة ابي . الا قيس بن ثابت وانا وهذه القاعة .

فطوّقته سليمى بذراعيها وقالت :

— احذر فان لجدران القصر الابيض عيوناً واذانا .

• • •

وبعد دقيقتين كان الاثنان امام ثعلبة في غرفته . وهو جالس على فراش احمر ، وبين يديه ، على رخامة سوداء ، وعاء صغير من نحاس فيه مسك مفتوت يقلبه بيده فتفوح رائحته .

فقبلت سليمى يده . اما عاصم فقد أنف ان يقبل تلك اليد .

ولكن ثعلبة ظل مقطب الجبين ولم تظهر على وجهه دلائل الاهتمام بولديه .

فقالت سليمى : أتأذن لي في الكلام يا ابي ؟

فحنى رأسه الى الامام وظل ساكتاً .

اما سليمى فقالت : سمعت ان الملك اهان عشيرتنا فمتى كان ذلك ؟

قال : وما يعنيكِ من امر العشيرة وانت وصيفة الاميرة الغسانية شقيقة الملك ؟

فاظهرت الاستغراب وقالت :

— ألست بنت ثعلبة سيد بني هنب ؟

: بلى ولكن ثعلبة في نظر اخيك خائن مليكه فلا يليق بك ان تنتمي الى والد خائن

قالت : بل افاخر بالانتماء الى رجل يغضب لكرامته اذا ثبت ان احداً مس هذه الكرامة ولو كان الملك .

فتلألأ بصر ثعلبة ، وبرقت اسارير وجهه وقال :

ــ اذن فاعلمي ان هذه الكرامة طعن فيها الحارث بن جبلة .

ــ : وكيف ذلك ؟

ــ : قال لولي عهده « بنو عنب لا يليقون بالعرش »

ــ : قالها للمنذر ؟

ــ : نعم . لان المنذر كان يسأله رأيه في ولية العهد

: ولكن حليمة بنت الملك تقول غير ذلك ؟

ــ : وماذا تقول ؟

ــ : تقول ان الملك وولي عهده يعترفان بكفاءتي لولاية العهد . ولكن المنذر عاشق وابوه يكره ان يدخل في قضية غرام .

فقهقه ثعلبة ضاحكاً وقال :

ــ : سمعتك تقولين ذلك قبل الآن ولكني لا اصدق احداً من اسرة الملك المستبدّ . فهو الملك الكاذب وانجاله كاذبون .

وكان عاصم على الحياد . فلما سمع اباه يهين الملك . ترك حياده وقال :

ــ : ومتى كان قيس بن ثابت شيخ النميمة والسعاية . اصدق من الملك ؟

فأومأت اليه سليمى تشير بالسكوت .

واما ثعلبة فكان ارفع من ان يجيب .

ثم عادت سليمى الى الحديث فقالت :

هب ان شيخ القصر صادق فيما يقول فما هو رأيك في الامر ؟

– فاخفض ثعلبة صوته . وبان الطمع باجلى مظاهره على جبينه وقال :

– : أتريدين ان تسمعي رأيي

– : نعم . دون ان تكتمني شيئاً

قال : اما رأيي ، فلا غرض لي الا ان اجعلك ملكة الغسانيين .

قال هذا وتفرس في وجه سليمى ليرى تأثير كلامه .

غير ان سليمى ظلت هادئة كأنها لم تسمع قوله .

فتابع حديثه قائلاً :

– نعم . اريد ان تصبحي ربة العرش ، فتمسي فتيات غسان . اللواتي يتهن عليك كبراً وعزاً . وصائف لسليمى بنت ثعلبة . واريد ايضاً ان يضحي اخوك – هذا الفتى المطواع كالعبيد المقيدة ارادته ، الباذل نفسه لجلاّديه – اريد ان يضحي الرجل الاول في بلاط الملك . والقائد الاكبر لهذا الجيش المستسلم الذليل .

انه اليوم رفيق المنذر في لهوه وصيده ، وحربه وسباقه . ولكنه اي المنذر عندما يتزوج غريبة . ويرث تاج ابيه . يبذل عندئذٍ ماله وبلاطه لاخوة زوجته وانسبائهم واذنابهم . ويوليهم ادارة جيشه وعشائره وشؤونه . فيمسي عاصم . تابع المنذر ورفيقه ، فرداً من افراد العامة

او من افراد الجيش . لا تسمع له كلمة ولا يحسب له حساب . وينسى المنذر انه كان اشد اخلاصاً له من كلبه .

اما ابوك يا سليمى فلا يريد شيئاً لنفسه ولا يطمع بشيء الا بما يطمع به رجل في الستين ، من حفظ مستقبل بنيه ، وصون منزلتهم بين الناس ومع ذلك فاخوك لا يرضى، انه يفضل ان يطعن الملك في نسبه. ويسلبه الغريب حقه ، على ان يخون هذا المليك الطعان في اعراض الناس .

ثم التفت الى عاصم وقد دمعت عيناه وقال : — افلا تذكر يا بني . طوافك في ظلام الليل ، في تلك الصحراء الموحشة الجرداء . وانت على ظهر فرسك تحيط بك الاخطار ؟ افلا تذكر ضحايا بني هنب في ساحات القتال. وبلاء ابيك واجدادك في ميادين الحرب؟بل ألا تذكر ان اخويك خالداً وحمزة ويا لهفي عليهما — قتلا في فلسطين . وان اعمامك جميعهم حصدهم السيف يوم غزا ابن ماء السماء وكسرى بلاد الشام؟ فقل لي الآن لماذا كل هذه الضحايا وفي سبيل من تهرق دماؤنا وتفنى رجالنا ؟؟ أليس في سبيل الدفاع عن العرش الغساني ؟ ..

نعم . ولكن صاحب العرش داس حقنا . وغير نظام عشيرتنا واستحل مالنا . فاصبحنا غرباء في قومنا لنا السيادة بالاسم وللحارث بن جبلة كل شيء .

هكذا كافأ مليكك رجاله الامناء. وهكذا اضحى مس الكرامات جزاء الاخلاص والوفاء .

قلت لك اني لا احارب الحارث بالسيف لاني لا اطيق حربه. ولكن

دهائي يقوم مقام سيفي . وحيلتي وخداعي مقام رمحي وقوسي . وبعد قليل ، بعد قليل ترى العرش وربّ العرش قد تحطما. واولئك الاضياف الذين جاءونا بحسنائهم يستغوون بجمالها ولي العهد . تراهم جثثاً لا تغسلها يد غاسل ولا يضمها قبر .

بنو هنب يشقون ، وبنو جناب يتنعمون . نحن نستنبت الارض وهم يحصدون . وتموت رجالنا فـــداء عن العرش وهم يصبحون اربابه واصحابه . ان اللقمة التي يحاول بنو جناب ان ينتزعوها من افواهنا . سأجعلها حراباً جارحة في صدورهم . وسما قاتلا في احشائهم .

وهاج ثعلبة هياجاً مخيفاً وارتفع صوته .

فارادت سليمى ان تضع حداً لهياجه . فجثت الى جانبه . واخذت تعبث بشعر رأسه وتقبل يديه وثوبه وهي تقول :

لا تغضب يا ابي فقد يسمعك الغلمان .

فامسك يدها وهزّها هزّاً عنيفاً وقال :

ــ حافظي انت على مقامك في القصر . وليحفظ اخوك منزلته عند ولي العهد . اما انا فلا يقدر الملك ان ينتقم مني باكثر من قطع هـــذا الرأس فليقطعه ، فلا خير فيه اذا هو انحنى ذليلا على اقدام الناس .

فقابلت سليمى غضبه بابتسام وقالت :

ــ ان رأسك لا نبيعه يا أبي بتاج القيصر يوستنيان وعرش كسرى انوشروان . ولكني سألتك ان تخفض صوتك لنتباحث بجلاء .

قال : اخفضت صوتي فماذا تريدين ؟

ـ : اريد ان اعرف على ماذا عولت .

ـ : عولت اولاً على قتل رسول الملك .

ـ : وكيف تقتله ؟

ـ : ابعث بكتاب الى المنذر ابن ماء السماء ادله فيه على هذا الرسول فيقتل .

ـ : ولماذا لا تقتله بعد خروجه من حوران ؟

ـ : اخشى ان يقبضوا على القاتل فيعترف بكل شيء .

ـ : وما هو غرضك من قتله اذا كنت تريد ان تجعلني ربةالعرش؟

ان غرضي هو ان لا يعود من سفره . فيقوم في ذهن القوم انه قتل في نجد او في العراق . ولكن السماء تبعث في تلك الساعة الى حوران رجلا من اهل الحيرة يطلب احسان الملك وينفي خبر القتل .

فرددت سليمى قول ابيها ولكنها لم تفهم .

اما هو فتابع حديثه قائلا :

ـ اجل . عندما تكثر ظنون الملك . يهبط حوران شيخٌ من خدم المخميين . فيقول للملك : ان عامر بن زهير رسولك الى بلاد العرب انضم الى عدوك .

غير ان كلامه كان مبهما . فرأت سليمى ان تستدرجه الى التصريح فقالت :

ـ اظنك تبعث الى الملك رجلًا من سكان هذه البلاد يزعم انه من اهل الحيرة . ولكن الملك يطلع على سره فلا يصدقه وتسوء العاقبة .

- بل يضطر الى تصديقه . لانه ليس من قومنا بل ولد في الحيرة وعاش فيها .

- ولكن ذلك لا يكفي .

- ربما . اما انا فاعتقد انه كاف .

- لا تحدثني بالالغاز يا مولاي فانا من رأيــــك ويجب ان اعرف كل شيء .

- ولكن عاصماً يخالفني في هذا الرأي .

فهمّ عاصم بالجواب فسبقته سليمى فقالت :

- انا اضمن لك رضاه .

وغمزت سليمى اخاها بعينها فعدل عن الجواب .

فقال ثعلبة :

اما رجل الحيرة . فهو حاجب امرىء القيس مــــلك اللخميين . وحاجب ولده المالك اليوم المنذر ابن ماء السماء . وهو مقيم في مدينة بصرى منذ عام .

- وماذا يفعل فيها ؟

- لقد طرده المنذر من قصره . وولى رجلا آخر حجابــــة بابه . فقصد دمشق هارباً من غضب مولاه . ولكنه مرّ ببصرى فاعجبته فاقام فيها الى اليوم . هذا الرجل يقول للملك ما تمليه عليه . ولحسن الحظ ان الحارث نفسه يعرف صاحبنا وقد اخذه اسيراً في الحرب الاخيرة ثم عفا عنه . فما قولك يا سليمى بحاجب ابن ماء السماء يقول لابن جبلة : ان

ملك الحيرة طردني من قصره ليولي الحجابة رسولك عامر بن زهير ؟ ..

فظهر سر المكيدة للولدين . ولكن سليمى استدرجت اباهـــا الى النهاية فقالت :

ولكنك نسيت ابن سلمة . فقد يعود الى حوران فيقول للملك : ان عامراً قتله ابن ماء السماء .

فابتسم ثعلبة وقال :

اما ابن سلمة فما نسيناه . فاذا لم يقتله المنذر قتله رسولنا عروة فهو على كل حال لن يعود . ومع ذلك فقد تداركت الامر مــــن كل وجوهه اسمعي :

ان حاجب المنذر . بعد ان يروي روايته لابن جبلة ، يجيء عروة بعد ايام فيقول للملك : كنت يا مولاي ابيع الصوف في الحيرة. وبينما انا على الفرات ، رأيت ضيفك القضاعي ماشياً في موكب المنذر اللخمي وعليه لباس الحجاب... وتمر الايام، فيقوم قيس بن ثابت يوماً فيقول: ان تجار العرب الراجعين من العراق الى الشام . يحدثون الناس بحديث الحاجب الجديد .. ويثبت للحارث ان القضاعيـــين انصار خصمه وقد خدعوه . فيثور ثائره ، ثم يأمر بطردهم او بقتلهم على الاثر فنستريح من دائهم الحسناء . أفهمت يا سليمى الآن ؟ وعندئذ ينسى المنذر سفانة التي وعدها الملك بولاية العهد ويصبح ابوها الذي جعله الحـــارث نديمه وصاحب سره قتيلا او مغضوباً عليه .

واما انت فتمسين ولية العهد .

: ومتى وعد الملك سفانة بولاية العهد ؟

– في صباح اليوم ، وبعد الظهر جعل اباها نديمه ، واخويها اخوين لانجاله . لا يتقدمهم احد في الركوب والجلوس غير اسرة الملك . فافهمي جيداً . وأفهمي اخاك هذا الابله . انه – وهو اخو المنذر بالرضاع ورفيقه في القتال . وابن ثعلبة قائد الجيش – لا يجوز له بحضرة الملك ان يتقلد سيفه . والقضاعيون الطالبون احساننا يلعبون بحمائل سيوفهم في مجالس الملوك !! نعم . لقد شاء عدل الحارث ان يحرم رجاله وخاصته هذا الرضى . ويخص به اضيافه الذين لم يستطيعوا العيش في البحرين وفي نجد واليمن فاقبلوا علينا مادين ايديهم الاستعطاء ، تلك ارادة المليك الذي اخلصنا له الطاعة . وبذلنا نفوسنا ونفوس ابنائنا في سبيله.

غير ان عاصماً كان كالطود الراسخ ، لم تتزعزع ارادته ولم يهتم لاقوال ابيه . فلم يقل كلمة .

فقالت سليمى :

– ومن يضمن لنا ان المنذر ينسى سفانة ؟

فقال ثعلبة : قد لا ينساها يا سليمى ولكنه يضطر الى الرضى بفتاة من قومه صوناً لمصلحة العرش . ومع ذلك فلينقض امر بني جناب كما اشاء وعليّ الباقي .

ثم التفت الى عاصم وقال :

– أرضيت الآن يا بني ؟

فاجابت سليمى قائلة :

ـ انا لراضون بما ترضاه يا مولاي .

ـ ولكني اسأل عاصماً رأيه فتجيب سليمى

ـ نعم ولو لم نكن متفقين على الرضى لما اتيناك عنـد نصف الليل .
فامدد عليّ يا ابي نص الكتاب الذي ستبعث به الى ملك العراق

ـ اعد اني لا ابعثه قبل ان تريه

ـ حسنا . ومتى يسافر ابن زهير ؟

بعد بضعة عشر يوماً على ما اظن

ـ وكيف رضي ابن سلمة ان يترك ولي العهد وهو اتبـع له من ظله؟

لم يكن مخيراً في امر السفر بل اكرهوه .

مسكين . فهو لا يعلم انه سائر الى الموت .

ـ ليمت . فان ابن سلمة من اخبث العرب . والآن ، فما هو رأي
الاميرة كوكب في قضية الزواج ؟

ـ انها تبذل نصف عمرها لمن يجعلني ولية العهد .

ـ اذن يجب ان نطلعها على السر .

ـ اياك ان تفعل . فبنت الملك جبلة لا تخون اخاها .

ولكن نحن لا نسألها ان تخون الملك

ـ على كل حال فالاميرة اكبر من ان تتآمر على احد .

ثم نهضت سليمي فقبلت يد ابيها وقالت :

ـ وفقك الله ياأبي في جعل سليمى ولية العهد، وعاصم سيد البلاط ..
والتفتت الى عاصم تشير اليه بالذهاب .

فقام اخوها وهو لا يدري كيف يودع اباه
ولكنهم سمعوا قرعاً خفيفاً على الباب .
فظن ثعلبة ان الطارق قيس بن ثابت فقال :
ـ ليدخل الطارق .
ففُتح الباب وظهر على عتبته ولي العهد بيده سوطـــه الغليظ وهو باسم الثغر .
فبهت الثلاثة وجحظت عيونهم من شدة الذعر .
وقال عاصم في نفسه : لقد سمع ولي العهد كل شيء وانقضى الامر
أما سليمى فقد خبأت وجهها بيديها كي لا ترى ذلك الجمال الفتان .
وتدارك ثعلبة موقفه ، فنهض يريد أن يقبل ثوبه فمنعه المنذر قائلاً:
فلـّـب هذا المسك فتفوح رائحته ومدّ يده اليه مسلماً .
ثم التفت الى الاخوين وقال :
سلـّـمنا ان سليمى لا تريد ان ترى وجهنا أفــيرفض أخونا عاصم أيضاً أن يرى هذا الوجه ؟
فعاد الى عاصم رشده وقال :
عفوك يا مولاي فنحن لم نكن ننتظر قدومك الآن
فاجابه قائلا : لقد انتظرناك في قاعة السباع حتى مللنـا الانتظار . فطفنا حجرات القصر وأروقته فلم نرَ من يهدينا اليك. فأتينا أخيراً نسأل قائد جيشنا عنك فاذا انتم في مجلس عائلي لا يجوز لاحـــد ان يسمع ما يقال فيه .

فقال عاصم :

اعذرني يا مولاي فأنا المذنب، بل سليمى هي المذنبة لانها اكرهتني على المجيء معها كما اكرهتني على البقاء حتى تعود .

قال : حسناً فعلت يا أخي . ولو كلفتنا سليمى ان نرافقها الى ابعد من حوران لفعلنا .

فتلفظت سليمى بكلمة شكر لم يسمعها أحد .

فقال ثعلبة :

أما نحن فلا نكلفكم شيئاً يا مولاي

قالها بلهجة فيها نغمة عتاب .

فنظر اليه المنذر نظرة استغراب وقال :

وما معنى هذا ؟

قال : معناه انكم أنتم الملوك يا مولاي ونحن العبيد .

ــ واذا كنا ملوكاً ؟

ــ اذا كنتم ملوكاً فالعبيد لا يكلفونكم قضاء الحاجات

فازداد المنذر استغراباً وقال :

ــ انه لمنطق غريب يا أبا عاصم !

ــ ولكنه حقيقي يا مولاي

فرأت سليمى أن تصلح الخطأ .

فرفعت رأسها وقالت :

الملوك والعبيد متضامنون يا مولاي . ولكن العبد عادة لا يجرؤ

ان يكلف مولاه شيئا

– ومن يقضي امور العبيد ؟

فقال ثعلبة : تقضيها التقادير يا مولاي .

فقال : اذن فانتم تعرّضون بالملك .

– لا يا مولاي ولكنه عتاب

– ان الرعية لا تعاتب الملك بل تطلب حقها منه .

– اذا كان لها حق ..

فلم يشأ المنذر أن يتمادى في الحديث لانه عتابٌ على قضية الزواج كما ظنّ بل قال لعاصم :

أما الليلة فقد مضت ، وغداً نجتمع قبل الظهر .

ثم أومأ اليهم بالســـلام وخرج

• • •

وتوكأت سليمى على ذراع أخيها عائدين الى قصر كوكب

وكانا ساكتين الكآبة تملأ نفسيهما ، والنار تضطرم في الاحشاء . حتى وصلا الى القصر .

وكانت كوكب ووصائفها وعبيدها قد استغرقوا في النوم .

فلم يقع نظر الاخوين . الا على وجه أشدّ سواداً من الليل . هو وجه ذلك العبد العريض الكتفين . رسول الاميرة الى حفال بن سلمة

فقالت له سليمى :

ـ أنامت الاميرة ؟

فقال : بل نام الجميع يا سيدتي حتى الغلمان

فتجاوزوا الرواق الى الغرفة. وهناك تنهدت سليمى وقالت لعاصم:

ـ والآن فماذا تقول ؟

ـ ليس لي ما أقوله الا كلمة واحدة هي اني سأظل مخلصاً للملك حتى اموت .

ـ وكيف تظهر هذا الاخلاص دون ان تفضح أباك

لا اعلم الآن لاني لست من اصحاب الرأي في المحن . ولكني اعرف شيئاً واحداً هو ان اليد التي تمتدّ الى الملك بسوء أقطعها بهذا السيف . والرأس الذي يفكر في خيانة العرش انزعه من جسم صاحبه ولو كان أبي

فبكت سليمى ساعة ثم قالت :

ـ وهذا القلب الذي صرعه غرام المنذر لا يعرف ان يخون .

ـ اذن نحن متفقان على الاخلاص للعرش ولم يبق الا ان نعد وسائل الدفاع .

ـ نعم ولكن الامر دقيق يحتاج الى التفكير . فاسمع يا اخي . ان في قصر الملك اليوم فئتين ، فئة تسعى لتحطيم العرش الغساني وقتل المخلصين له وهي أبي وشركاؤه . وفئة تسعى لصيانة هذا العرش وحفظ حياة الابرياء . وهي انا وانت ، ولكن فئتنا ضعيفة لا يكتب لها الفوز الا اذا مدّ اليها رسول الملك يد المعونة .

– رسول الملك ؟

– نعم . فليس في حوران من يستطيع أن يمنع وقوع الخيانة والقتل الا هذا الرسول .

اذن لا بدّ لنا من فضيحة المتآمرين

– لا . ولكن نتفق مع الرسول دون ان نفضح أحـــداً او يشعر أحد بهذا الاتفاق .

– وكيف ذلك ؟

لا أقدر ان أقول شيئاً قبل ان أقرأ كتاب ابي الى ملك الحيرة. وأدرس خطة سفيره عروة .

– وهل تعرفين عامر بن زهير ؟

– لاأعرف أحداً من هؤلاء القضاعيين حتى الان .

وكيف .تتفقين معه وانت لا تعرفينه ؟

أحاول ان أرى وجهه قبل سفره وهذا يكفى .

فتحير عاصم في أمره وقال

– أراك تحدثيني بالالغاز يا سليمى كما كان يفعل ابي منذ ساعة

– أخطأت يا أخي فأنا أكره الغموض والابهـام ، ولكني لم أضع خطتي بعـد .

– ومتى تضعين هذه الخطة ؟

– لا أضعها الا بعد ان اقابل ابي ثانية كما قلت ، واعرف اليوم بـل الساعة التي يسافر فيها رسول الملك

ـ ولكن الملك عيّن اليوم موعد السفر اذ قال لجلسائه: ان عامراً يسافر بعد عشرين يوماً على الاكثر .

ـ ذلك لا يكفي ، فهل سألت ولي العهد ؟

ـ سألته فقال ، ان الملك سيعين موعد السفر في وقت آخر

ـ اما انا فأقول كما قال ولي العهد ، ن هذا الرسول قد يسافر فجأة بعد يومين ، او بعد شهر او شهرين

ـ وعلى اي شيء تبنين هذا الحكم ؟

ـ أبنيه على تدابير الملك الخاصة وسياسته

ـ وهل تقوم سياسة الملك بتقديم السفر او تأخيره ؟

ـ أنا لا أعني التقديم والتأخير ، ولكني عنيت ان الملك سيبعث رسوله في ساعة لا يعرفها الا ولي عهده . فأي رجل من رجال البلاط عرف الساعة التي سافر فيها عتبة بن هند ، ويزيد بن عمرو ؟ لقد قيل لكم انهما سيكونان سفيري الملك الى بلاد العرب وهذا كل ما عرفتموه . وأما متى يصدر الامر بسفرهما فهذا لا تعرفونه .

ـ وانت كيف تعرفين هذه الاسرار ؟

ان الاميرة تعرف كل ما يجري في البلاط ، وهي التي تقصّ عليّ اسراره

ـ وماذا تفعل الان ؟

ـ أسألك امراً لا اسألك سواه .

ـ وما هو ؟

ـ هو ان تستدرج وليّ العهد الى الاقرار بموعد السفر
ـ ولكن وليّ العهد لا يعرف هذا الموعد .
ـ اذا لم يعرفه اليوم فسيعرفه غداً لان الملك لا يكتمه امراً من سياسته الخاصة .
ـ واذا رفض ان يبوح لي به ؟
ـ يفوز المتآمرون ويقتل الرسول البريء .
ـ إذن فنحن لا نفوز الا بهذا الشرط .
كما اننا لا نفوز الا اذا رأيتُ وجه عامر بن زهير
ـ هذا امرٌ هين ولكن الاخر ...
ـ تريد ان تقول ان الاخر صعبٌ .
ـ : نعم . فقد يكون المنذر مثل أبيه كتوماً لاسرار العرش . فيعين لنا موعداً غير الذي يعينه الملك ، ولكني ارى ـ في مثل هذه القضية ـ ان تستعيني بالاميرة كوكب ، الخبيرة بشؤون القصر كما تقولين .
ـ ولكنها حلفت انها لا تسأل الملك شيئاً الا اذا سألها هو رأيها فيه
ـ إذن لم يبق في القصر من يطلعه الملك على اسراره الا الاميرة حليمة
ـ أصبت فحليمة تعرف كل شيء ، ولكني اخجل ان اوجه اليها مثل هذا السؤال لئلا تظن ان لي غرضاً فيه .
ـ انا اتولى عنك هذا الامر لان حليمة لا تردّ لي طلباً .
ومع ذلك فستقول في نفسها ان لنا غايةً من وراء هذا السؤال .
ـ وكيف العمل إذن ؟

ـ نستعين بالحيلة انفوز

وماذا اقول لحليمة ؟

ـ تقول لها انك تريد ان ترى رسول الملك قبل اليوم المعين لسفره؟

واذا سألتني عن السبب ؟

ـ قل انك ستوصيه ليبتاع لك طيباً من اطياب اليمن يبيعونه في نجد او فرساً عربياً تهديه الى مولاك .

ولكنها حيلة لا تنطلي على بنت الملك ، لانها تعلم اننا نقدر ان نوصي الرسول بذلك قبل موعد السفر بأيام ؟

بقي عليك ان تقترح غير ذلك

فاطرق عاصم قليلاً ثم قال :

اراك نسيت المتآمرين يا سليمى

وأي دخل لهم في الموضوع ؟

ان ابي ثعلبة سيكون احرص الناس على معرفة موعد السفر ليرسل رسوله في ذلك الموعد

فظهرت الابتسامة على ثغر سليمى وقالت :

ـ اجل فقدنسيت وسأعرف هذا الموعد من ابي. فاكتم الخبر الان وسترى كيف يحبط مسعى المتآمرين .

ثم عادت الى البكاء

فسألها عاصم : لماذا تبكين يا سليمى ألاجل خيانة ابيكِ ؟

فقالت : ابكي لاجل اثنين . ابي وقلبي ...

في الجنـــاح الجنوبي من القصر الابيض . حيث الحجرات الواسعة المزينة بالنقوش وصور الاسود والطيور . حيث الاروقـــة الفخمة والقاعات الفسيحة. اقام زهير بن نـديم الملك مع ولديه عامر وقيس . تحيط بهم من كل جانب عناية الحارث وعطف المنـذر وتقوم بخدمتهم طائفة من الغلمان

والنديم الجديد . من افصح الناس حديثاً واصدقهم روايةً كما علمت . يجالس الملك على شرابه . ويروي له الاخبار والشعر . فيستلذّ الملـــك عشرته وحديثه ويجزل له ولولدية العطاء

وكان ولداه عامر وقيس. يعيشان في القصر كابناء الملك أنفسهم. اذا ركب هؤلاء للصيد ركبا معهم . واذا دهمت حوران حرب كانا أسبق من فتيان غسان الى امتشاق الحسام

وأنت ترى . ان ما توقعه اولئـك المتآمرون . قيس بن ثابت . وثعلبة بن هنب . وحاجب الحـارث الخائن . قد تمّ كله . فاصبح ابن جنـاب صاحب الرأي الاول والقول النافذ وأمست بنته سفانة والناس ينظرون اليها نظرهم الى فتاة الغد وصاحبة التاج

وكيف لا يكون ذلـك وقد اصبحت اختاً لحليمة كما تقدم ولما

الجواري والخدم والخيـــل . ولكنها لم تكن ترى ، في ذلك القصر الحافل باهل النبالة من فتيان العرب وامرائهم . غير فتىً غرّ الشمائل . بطل الشعب الغساني باسمه . ويكاد الجند يعبده لرفقه به وحلمه .

وكان أحبّ شيء اليها — وهي في وسطها المفعم بمظاهر العظمة والعز . أن تشارك حليمه في اعداد السهام للجيش والطيب للقصر . وان تجلس الى حبيبهـــا المنذر في ساعات فراغه . يرتشفان كؤوس الهوى مترعةً بخمرة الصبابة والشباب

- ١٩ -

وشاع في القصر الابيض بعد ايام .ان مندوب الملك الى بلاد العرب لا يسافر اليها الا في الخريف المقبل

وكانت الاشاعة صحيحة ، ففي ليلة من ليالي الصيف ، وقد بسط القمر نوره على سهول حوران وصخورها السوداء ، جلس الملك في قبة المرمر على السور ، ودعا اليه عامر بن زهير وقال له :

— اجلس ايها السفير فنحن في خـــلوة لا يسمعنا فيها احد من رجال القصر .

فجلس عامر وقال : بماذا يأمر مولاي ؟

فقال : دعاك مولاك في هذا الليل ليفضي اليك بسياسته الخاصة قبل ان يبعثـــك الى نجد . لان السفير الذي يمثل مولاه في بلاد الناس لا يحسن التمثيل الا اذا اطلعه الملـك على سره واطلق يده في الامر . فاعلم يا عامر ان المهمة صعبة كما قلت لك وان البلاد التي ستذهب اليها هي بلاد الحرب والنار ، الهفوة الواحدة فيها تؤدي بك الى الموت

— . نعم يا مولاي

— . فاذا رايت الان ان تعدل عن سفرك ارسلنـا سواك وحفظنا

لك هذا الاخلاص الذي اظهرته لمولاك

ـ . ولكن قد يكون اخلاصاً كاذباً يا مولاي لانه لم يتجاوز صدري

ـ ان الملك لراضٍ بهذا الاخلاص الكاذب

ـ أما نحن فلا نرضى . لقد اصبح بنو جناب ، بفضل الملك ، من رجال الشأن في دولته ، فعلى بني جناب ان يثبتوا لهذا الملك . انهم أهل لنعمته واحسانه ، فارسلني الى ابعد من نجد يا مولاي، ابعثني الى اليمن، بل اجعلني رسولك الى المدائن لآتيك برأس كسرى ، تجد اني ذلك الرسول الامين الذي لا يعرف ان يظهر طاعته لا باقتحام الشدائد والاخطار ، اجل يا مولاي، نحن لا نرضى ان نتمرغ في نعمتك ونعيش في قصرك عيش الخاملين الجبناء ، بل يلذ لنا خوض المعامع في سبيلك وبسط نفوذ التاج الغساني ـ اذا استطعنا ـ على كل قطر عربي . فانا . انا عامر بن زهير . اريد ان اكون رسولك ، فاستقبل الموت مطمئناً اذا كان في هذا الموت نفع لعرشك

انه لشرفٌ لبني جناب يا مولاي ان يتنازل الحارث الوهاب الى الوثوق بنا فيجعلنا ندماءه واصحاب سره . ويرسلنا الى امراء العرب ندعوهم الى طاعته . فافض الي يا مولاي بسرك . فالصدر الذي تودعه هذا السر لا ينطبق على الخبث والرياء بل على الصراحة والاخلاص

فظهر البشر على جبين الملك واستدناه .

فنهض عامر وجثا على ركبتيه امام اقدامه .

فقبّل الملك جبينه وقال :

ـ لتكن قبلة الملك سلاحاً لرسوله الامين لانها علامة حبه ورضاه .

ثم قال :

لو اصدر الملك اليك امره بالسفر دون ان تراه فماذا كنت تصنع ؟

ـ لا اذهب حتى ارى الملك .

ولماذا ؟

لاني لم اعرف مهمتي كما يجب ان يعرفها السفير يا مولاي .

ـ ولكني ذكرت لك ولرجال البلاط هذه المهمة ونحن في المجلس .

ـ تلك اقوال لا يتقيد بها السفراء يا مولاي .

ـ وبماذا يتقيدون اذاً ؟

بتدبير خاص يفضي اليهم به الملك في خلوة

ـ كما هي الحال الآن ؟

ـ نعم يا مولاي

فقال الملك في نفسه . يظهر ان سفيرنا لا تنقصه صفة من صفات السفراء .

ثم قال له :

ـ قل الصحيح يا عامر . ماذا قام في ذهنك من أمر مهمتك ؟

ـ قام في ذهني يا مولاي ان الملك يريد الاستيلاء على نجد

ـ أتعرف لماذا ؟

ليكون سلطان الملك اوسع من سلطان عدوه ابن ماء السماء

ـ ولكنك اخطأت هذه المرة يا بني

ـ اني لم افهم يا مولاي

ـ اجل ولذلك دعوناك فاسمع . كان ابي جبلة لا ينظر الى نجد الا كما ينظر الفاتحون الى بلاد لم تخفق فوقها اعلامهم ولم يخضعوها لسلطانهم وكان يقول دائماً لجلسائه . ان الاستيلاء على نجد لا يصعب علينا ولكننا نخشى ان نضيع مالنا ونخسر شعبنا ثم تنبذ نجد طاعتنا كما نبذت من قبل طاعة الملوك والامراء . وكانت وفود العرب ورواتهم والشعراء يقصون عليه اخبار تلك البلاد ويصفون له اخلاق سادتها وشعبها فلا يجد في تلك الاخلاق غير التقلب الدائم والفساد المستمر . فأهمل امر نجد وولىّ وجهه شطر طبرية وغور بيسان يريد ان يضمها الى بلاده ولكن حروب الروم حلفائه حالت دون ذلك فلم يخمد الروم ثورة ولم يخضعوا بلداً في هذا القطر الا بسيفه . فلما استتب لهم الامر . وهمّ جبلة بتوسيع ملكه ، عاجله القضاء رحمه الله وقد امحت من مخيلته صورة نجد بل صورة الجزيرة جمعاء .

على انه ، قبل ان يلفظ روحه ، دعاني اليه وعنده بعض رجاله وقال لي : « انّا راحلون عنك وتاركون لك ملكاً واسعاً وجاهاً عريضاً بين العربان ولكن ارادتنا الاخيرة ان تضم الى هذا الملك طبريه والغور لانهما أهراء البلقاء » . فتولينا الملك واستولينا بمساعدة حلفائنا الروم على تلك الارض الواسعة المترامية الاطراف . ولكن صورة نجد عادت الى مخيلتنا كما كانت في مخيلة جبلة ابينا . فخذنا ندرس أمورها . ونتبين سياستها وأخبارها . فبدا لنا ان خضوع بعض القبائل لخصومنا اللخميين ــ

وان يكن خضوعاً مزعزعاً لا اخلاص فيه ، يهدد العرش الغساني وقد يقضي على آل غسان الى الابد . فلم يبق امامنا الا ان نحارب هؤلاء الخصوم قبل ان يوطدوا نفوذهم في نجد . وقبل ان يجيئونا برجالها الخاضعين لهم وهم أكثر من رمال الصحراء ، غير ان الزمان يخلق ما ليس بالحسبان . فان ظهور الكندي ، الحارث بن عمرو ، وتربعه في عرش العراق . غيّرا رأينا في الحرب فأخذنا نراقب هذا الملك الجديد ولا غرض لنا غير الدفاع وقد عدلنا عن الفتح . ولكن الحارث لم يطل ملكه ، فعاد المنذر الى عرش آبائه وكسرى يسند هذا العرش ، فعاد الهم الى هذا الصدر ، ولم نرَ بداً من ان نبعث الى القبائل من يدعوهم الى طاعتنا تحب طيّ الخفاء . انتدبناك يا عامر لهذه المهمة منذ ايام وعينا لك موعد السفر ، افلا تذكر ذلك ؟

ـ : اذكر يا مولاي

ـ : ولكن فكراً فجائياً عرض لنا منذ ليلتين ، وكأننا سمعنا هاتفاً يقول لنا ، ونحن مستغرقون في النوم « اشتر سكوت النجديين لا خضوعهم فهم يتظاهرون بالخضوع ثم ينقلبون عليك » . فخيل الينا ان ابانا رحمه الله تحدثنا روحه ، وارواح الاموات تعلم ما لا يعلمه الاحياء ، فتحيرنا في الامر ، ومنذ يومين ونحن نفكر في ما سمعنا ولم نرد ان نبتّ فيه قبل ان نراك ، فماذا ترى يا عامر ؟ أترى ان نشتري سكوت القوم ام خضوعهم ؟

فقال عامر وما معنى هذا السكوت يا مولاي ؟

ـ : معناه ان يقعدوا عن نصرة المنذر اذا حاربناه

ـ : وهل ينوي مولانا الملك ان يشهر الحرب ؟

ــ : اجل فالدم لا يغسله الا الدم ، وسينقضي الامر بيننا هذه المرة بواحدٍ من امرين ، اما ان يقتل الحـــارث بن جبلة او يقتل المنذر ابن ماء السماء

ــ : قتل الله عدوّك يا مولاي ، ومتى يكون ذلك ؟

ــ : لا نجرد السيف الا بعد رجوعك

اي بعد خضوع النجديين لمولانا الملك

فاخفض الملك صوته قائلاً .

لا يا بني، فسواء أفزت في مهمتك اولم تفز فلا بد من الحرب . اذا خضع لنا القوم، فسنفاجيء المنذر بحربٍ لا تقوم له بعدها قائمة، نحاربه في عقر داره ، في الحـــيرة عاصمة ملكه على شاطيء الفرات ، وان لم يخضعوا لبسنا دروعنا. وشحذنا سلاحنا واحطنا بلادنا بنطاق من الرجال حتى يجيئنا المنذر برجاله ، وهو لاشك فاعل، فنقتحم غمرات الردي ولا نبالي ، فاما ان يكتب لنا النصر او تصبح ارض الشام خاضعةً لاعدائنا ملوك العراق .

لقد ذكرنا الان قول ابيك يا بني ان نجداً لا تخضع لاجنبي ولا تثبت على ولاء ، اذن فنحن لا نغامر في سبيل اخضاعها بالمال والرجال، بل نجرب ان نستميل سادتها بالحسنى ، وننفخ في صدور امرائها الكنديين روح الشرف والاقدام فينتصروا لابيهم الحارث المتحجب كاللص، وينزلوه في ارضهم بالرغم من ارادة الملك اللخمي . آه انهم متقلبون يا عامر ، وشعب نجد تسيره الاهواء والاغراض ، ولولا ذلك لخفقت اعلامنا من بحر القلزم الى خليج فارس ، ومن الربع الخالي واليمامة الى

بحر الروم، على اننا على كل حال ،سنسبر غور القوم ، وندرس نفسيتهم واخلاقهم ، فقد يجود الزمان غداً بما يبخل به اليوم ، فاشتر حيادهم يا بني ، حيادهم فقط . ولا نريد ان يكون في القضية جدال او مساومة بل فليشترطوا ما يشاؤن ونحن راضون ، وليبعثوا الينا رسلهم لقبض المال ان المال وحده دواء الجبناء المستضعفين

فقال . اذا كان لا بدّ من بذل المال يا مولاي ، فليبذل في سبيل الطاعة لا في سبيل الحياد

– اذن نضطر الى بذل ضعف ما نبذله لاجل الحياد

– ليأخذوا مال حوران كله وليخضعوا

– ولكنهم يهزأون بنا بعد ان يقبضوه

– وهكذا يفعلون ايضاً اذا تظاهروا بالسكوت ، فليغامر الملك اذاً بماله لاجل خضوع دائم ، اولى من المغامرة لاجل سكوت لا يطول امده .

فهزّ الملك برأسه وقال :

منذ بضع عشرة سنة والملك يفكر في الاستيلاء على نجد ، وهو يعلم ان خضوعها يؤدي حتماً الى خضوع هذا الشرق بما فيه من دول وملوك غير ان في الصدر سراً لم نبح به لاحد قبلك الا لولي العهد ، هو ان هذا الاستيلاء حلمٌ لا يصدق وابن ماء السماء حي ، هو وحده الحائل دون هذا التبسط في النفوذ ، وهو وحده الذي يردّ سيوفنا الى اغمادها كلما جرّدناها للزحف على العربان، نحن لا نخشى، كما كان يخشى والدنا جبلة ، ان ينقلب علينا اهل نجد فحسبُ ، فالسيف لا يترك لا عاصياً ولا

متمرداً ، ولكننا نخشى ، عند هذا الانقلاب ، ان نخوض مجال الحرب فيتصدى لنا ملك الحيرة وهو اكثر منا قوة واوسع صوتاً في الجزيرة ، ويتحد علينا الشعبان ، شعب نجد وشعب العراق فتطوقنا الجيوش من كل جانب ، فتنطرح رجالنا جثثاً فوق رمال تلك السهول الجرداء .
هذا ما نخشاه يا بني ، فلا يغرّك ما نتظاهر به امام قوادنا ورجالنا من الاستخفاف بقوة المنذر ، فللمنذر في تلك البلاد اضعاف ما لنا من المنعة والرجال ، فمن الحكمة ان نعدل الآن عن حرب نجد ، ونتفرغ لقتال الغسيين بكل ما عندنا من قوى ، حتى اذا غلبناهم زحف جيشنا الظافر على النجديين يملي على سادتهم ارادته التي لا تردّ ، اذن لا يقضي على نجد الا اذا قضي على ابن ماء السماء ، وهذا الملك لا يقضي عليه في الحرب الا اذا كانت قبائل نجد على الحياد . فضع بين هذه القبائل وبين المنذر فاصلاً ، اسكتها ، اجعلها على الحياد ، ونحن نضمن الفوز على عدونا الطاغية ولو حاربناه كما قلنا في عاصمة ملكه ، أفهمت الآن يا بني اننا نخاف الشعبين اذا اجتمعا ولا نخشاهما منفردين، ففرق بينهما ما استطعت ابذل المال بسخاء ، واستعمل اللين والدهاء ، وعد القوم بما تشاء ، واخلب البابهم بفصاحة لسانك وسحر بيانك ، حتى ينبذوا طاعة المنذر ويستسلموا اليك ، وعند هذا الحد ، عند حد استسلامهم ، ينتهي عملك ويبدأ عمل الملك ، ولكن لا تنس لا تنسَ ان تمر بالحيرة بعد رجوعك من نجد ، فترى بعينك جيش العراق وما في الحيرة من كتائب الفرس ، وتحصي على المنذر ورجال جيشه انفاسهم ، حتى اذا عدت الينا عدت وفي صدرك الخبر الصادق الذي نبني عليه خطتنا في الحرب .
— اي خطة الهجوم او خطة الدفاع

ـ اجل ، ولا نعلم ذلك الا بعد رجوعك ، فكن اذاً ذلك الرسول الداهية الذي يبذل خبرته ودهاءه في سبيل خدمة مولاه

ـ ومتى أسافر يا مولاي ؟

ـ لقد رأينا ايضاً ان نؤجل السفر الى اول الشتاء .

ـ اتسمح لي ان اسأل لماذا

ـ لان الفقر يسود في نجـد اليوم ، الحرب اضعفت قوى القوم وشلت ايديهم ، والزرع ساخ في الارض تحت حوافر الخيل ، فاذا اقبل الشتاء واحس الناس بالحاجة ، هانت عليك مهمتك الصعبة ، واشتريت حياد الامراء او خضوعهم بالقليل من المال .

ـ وكيف يعيشون اليوم يا مولاي ؟

ـ انهم ينفقون غنائم الغزو والبقية الباقية من مؤونة العام الذي مضى ، ولكن لا ينقضي الصيف حتى تنفذ المؤونة والغنائم ، فيخرج الحارث بن جبلة عندئذٍ من عزلته ، ويخيرهم بين سعـة العيش وحياة الحاجه والجوع ، فاكتم خبر سفرك لاننا لا نريد ان تعرف حوران اسرارنا، واذا سألك احد عن السفر فقل له ان الملك لم يعين موعده بعد.

اما رفيقك ابن سلمة ، فهو فتى المروءة والاخـلاص ، والرفيق الظريف الذي لا يقع اختيار الملك على اصدق منه واكثر وفاءً ، فسلم اليه اسرارك وشاوره باعمالك ، فان لم يكن ابن سلمة صاحب اقدام فهو صاحب الرأي .

ونهض الملك فجأة فطبع قبلة ثانية على جبين الفتى وانصرف الى القصر.

- ٢٠ -

بين الحب والواجب

وبعد ظهر اليوم الثاني ، جاء غلام من غلمـان القصر الابيض يقول للاميرة كوكب .

نديم الملك الجديد وبنوه يستأذنون مولاتنا الاميرة في المقابلة، فمتى تأذن في ذلك ؟

فقالت : بعد ساعة على الكثير

ولما انصرف الغلام قالت الاميرة لوصائفها وهي تضحك : بعد ساعة يستقبل هذا القصر ملكة الغسانيين ...

فخفق فؤاد سليمى ورفعت عينيها الى السماء وقالت : قوي ضعفي يا رب لينتصر الواجب على الحب ...

واجتاز بنو جناب الرواق الكبير قاصدين قصر الاميرة .

فلما اقبلوا عليه، اصطف الغلمان يحيون نديم سيدهم وبنيه. وخرجت الوصائف يستقبلن الفتاة البدوية .

فصافحتهن سفانة وهي تنحني امامهن بوقار وادب ، كما انحنى لهن زهير وبنوه .

فدهشت الوصائف لجمالها الساحر ، ولأبتسامات اخويها الجذابة

وكانت الاميرة في قاعتها المعروفة ، على مقعد الخزّ الناعم ، وبين وسائدها الفاخرة

فحياها القوم كما يحيون الامراء ، فردت تحيتهم باحسن منها ، واسرعت سفانة فقبلت يدها وتراجعت الى الوراء

فدعتهم كوكب الى الجلوس وقالت :

يسرّنا ان نستقبل نديم اخينا الملك واولاده ، ونبدي لهم ارتياحنا الى ما ما ظهر من اخلاصهم لعرش آل غسان ، الست انت يا عامر سفير الملك الى نجد والعراق

فقال : لقد عرفت من امر هذه السفارة يا مولاتي ما تعرفه الاميرة وما يعرفه رجال البلاط ، واما اني عرفت غير ذلك فلا ...

فاصغت سليمى الى الحديث ولكنها لم تستفد شيئاً منه

فقالت الاميرة : وفقك الله على كل حال فنحن لا نبحث في امر سفرك لان ذلك من شأن الملك

ثم التفتت الى ابيه وقالت :

وكيف انت يا ابا عامر ؟

قال : اطال الله بقاء الملك يا مولاتي فانا واولادي بخير من فضله

ـ وهل نادمت الملوك قبل اليوم ؟

- : نعم . نادمت ملكين من ملوك اليمن ، كما اني كنت عاملها
على نجد

- وكيف كنت نديماً لهما وانت بعيدٌ عنهما

كنت انادمهما ايام الفتوح والحروب في اثناء طوافهما في البلاد

- ومن هما هذان الملكان ؟

- معدي كرب ينعم ، ومرثد اللات

اذن فأنت خبير بعادات الملوك واخلاقهم

- قد تتشابه اخلاق الملوك يا مولاتي . واما العادات فهي تختلف
باختلاف الطبائع والتقليد

- ومن افضل من نادمت أملوك اليمن ام اخونا الحارث ؟

على الملك اولاً يا مولاتي اذا كان راضياً عن نديمه فحسب العبد
رضى مولاه

اما سفانة واخوها فكانوا ساكتين

فذكرت الاميرة اسماء وصائفها وقالت :

هؤلاء وصائفي يا سفانة بنات الامراء وقواد الجيش

فحنت سفانة رأسها ثانيةً وقالت :

بورك فيهن يا سيدتي انهن مثال الرصانة والادب

وكانت سليمى تخالس سفانة النظر وهي تقول في نفسها : لقد وضح
عذر المنذر في هواه

ثم أحست ان الدموع تكاد تتفجر من عينيها . فضغطت عواطفها

واخذت تقلّب المسك المفتوت في وعاء من ذهب

وعادت الاميرة ونديم الملك الى الحديث

فاستولى على سليمى الذهول ولم تسمع ما دار بينهما منه

ثم انتفض جسمها فجأة لخاطر فجائي خطر لها ، واخذت تحدّق الى عامر تحديقاً غريباً كأنها تحاول ان تطبع صورته على صفحات ذهنها المضطرب .

وكان الناظر اليها ، يحسبها العاشقة المفتونة التي تيمّها غرام الرسول الشجاع

غير ان دم الخجل ظهر في خديها عند ما التقى النظران

واستعرض عامر ذاكرته فلم يجد في حوادث ماضيه فتاة نظرت اليه بمثل هذا الشكل الغريب ، بل بمثل هذا الاشفاق

فخفق فؤاده ، وتحير في امر هذا الخفقان

اجل ، في تلك القاعة الفسيحة التي تماثل في شكلها وفخامتها قاعات العروش ، اجتمعت العاشقتان ، سليمى وسفانة ، وسفانة لا تعلم ان وصيفة الاميرة التي أحسنت استقبالها الان، حاولت من قبل ان تصيد قلب المنذر فخسرت المعركة

وكانت الاميرة تعتقد في تلك الساعة ان الغيرة تمزّق صدر سليمى، وانها لاتطيق النظر الى تلك الفتاة البدوية التي جاءت من شمالي الجزيرة تزاحمها على قلب ولي العهد

وهذا هو الصواب. فان العاشقة سليمى ، سليمى المتأملة ، ذكرت

في ذلك الاجتماع غرامها الهاوي ، واملها الضائع ، وعند ما رأت بنت زهير تحتــلّ القصر وقلب رب القصر ، نهشت فؤادهـــا الغيرة نهشاً ، واستيقظ ذالك الغرام الكامن في قلبها الخفاق

ولكنها ثورة ساعة ، فلم يستسلم قلبها الى الغيرة ، حتى ملأت نفسها وذهنها فكرة اخرى ، فكرة شريفة سامية ، هي فكرة الدفـاع عن العرش والوقوف في وجه المتآمرين عليه

اجل ، انهـا حاولت ان تمنع يد ابيهـا من الانغماس في الدم فرأت ذلك الوالد لا يلين ، فلم يبق امامها الا ان تمنع وقوع الجريمة بتدبير خفي من وراء الستار ، بحيث لا يشعر احد ان لها يداً في القضية

على ان ذلك الواجب المقدس كان صعبا جداً ، بل هو لا يتم الا اذا قدمت قلبها ذبيحةً للعرش ، وبذلت غرامها في سبيل الملك والوطن ، وماذا ينفعها الوطن وقلبها عالق في شرك الحب، والبدوية الغريبة تسلبها ذلك الحبيب ؟ بل ماذا ينفعها الحب اذا كان ابوها خائناً وقاتـلًا ، وما قيمة الحياة ان لم تكن حياة اباء وشرف ، ومروءة واخلاص ؟؟

عاطفتان تنازعتا قلب سليمى في تلك الساعة، عاطفة واجب وعاطفة حب، وذلك القلب الكبير المتألم، يدفع غرامه حيناً ويستسلم اليه حيناً، حتى انتصر الواجب، فاقدمت سليمى على التضحية ، أقدمت عليها بضمير هادىء ونفس راقية ، وجنان ثابت ، لم يبـدُ على وجهها دليل تردّد او ضعف ، الا ما كان يرى في عينيها الذابلتين من آثار الدموع

نعم كانت مصلحة العرش في نظرها، فوق كل مصلحة وكل حب، فلم تنظر الى سفانة بعد ذلك الاقدام، الا كما تنظر الى الضيف الغريب العادي

وكلما ذكرت حبيبها وجال الدمع في عينيها ، حوّلت مجرى افكارها بسرعة وحزم ، الى تلك المؤامرة الهائلة التي تقضي على البيت الذي ترعرعت فيه وحجبت صورة الوطن صورة الحبيب الذي لم تلاقي غير الفشل في هواه

وحدثت الاميرة ووصائفها اضياف القصر بما شئن، اما هي فحافظت على الصمت ، ليس عن هم وخجل ، بل لان خطتها التي تحاول فيها انقاذ العرش و منع القتل ؛ كانت تقضي عليها بالسكوت لئلا يسمع صوتها عامر ابن زهير رسول الملك .

وخوفاً من ان يكرهها المقام على الكلام ، همست في اذن الاميرة تستأذنها في الذهاب ، فلم تمانع الاميرة عند اعتقادها ان الفتاة يكاد يقتلها غرامها المذيب

- ٢١ -

قال المنذر لابيه عند ما اجتمعا :

ان بني هنب عاتبون يا مولاي

ـ : ولماذا ؟

ـ : الا تعلم لماذا ؟

ـ : لا . فهناك امران اثنان يدعوانهم الى العتب

ـ : احدهما امر سليمى واما الآخر ؟

ـ : اما الآخر فاحساننا الى اضيافك

ـ : وكيف ذلك يا مولاي ؟

ـ : كل احسان يقوم به الملك يوغر صدر ذلك الحسود ابن هنب ، الم ترَ كيف ارتجفت شفتاه واصفرّ وجهه عندما جعلنا زهير بن جناب نديمنا الاول ، وجعلنا ولديه نديمين لك ولاخويك ؟

ـ : ولكنه قائد الجيش الثاني واول رجل في البلاط ، وابنه عاصم اخو ولي العهد

: وكل ذلك لا يكفيه يا بني ، فهو يريد ان يكون قيم القصر والقائد الاكبر والنديم الاول ، وصاحب السلطان المطلق في بلاد الشام بل يريد لو استطاع ان يخلع الحارث بن جبلة عن العرش ويلبس تاجه .

ـ : اذن فاخلاق عاصم غير اخلاق ابيه

ـ : أجل فذلك الفتي يفضل جميع فتيان غسان باخلاصه للعرش .

ـ : كما انه أصدق الفتيان في الحرب

: وكيف عاتبك القوم ؟

ـ : سمعت تعريضاً لا تصريحاً أفتعتقد يا مولاي ان احسان الملك الى الاضياف هو الذي دعا ثعلبة الى ذلك التعريض ، أم قضية سليمى هي الباعث على ذلك ؟

: الاثنان يا بني ، لان ثعلبة لا يعتقد ان في رجال الدولة واحداً أعظم منه ، او رجلاً يستحق المكافأة والاحسان الا هو ، فهو يفاخر القوم دائماً بحسبه ونسبه ، بجاهه وقوته ، بطيب عنصره وجمال ابنته ، بل هو الفخور بفضله على العرش ، نعم ، لقد سمعنا ذلك من كثيرين وسكتنا ، سكتنا على غل ، ونحن نفكر في امر هذا الرجل الذي ولیناه قيادة الجيش اكراماً لزوجته مرضعك رحمها الله ، تلك المرأة الفاضلة التي لها عليك فضل الام ، فتملكه الغرور ، وراح يظن انه اذا اعتزل القيادة فليس في رجال الحارث بن جبلة من يصلح لحمل السيف وقيادة الجيوش ، ذلك هو الجهل بعينه ، ونحن لولا ان تسود الفوضى قبيلة هنب ويشمل رجالها الاضطراب ، بل لولا أخوك عاصم الذي حجبت محاسنه مساويء أبيه ، لقابلنا تيه ثعلبة وغلوه بعزله عن القيادة ، وجعلنا أبن عمنا لبيد بن عمرو قائداً لجيشنا فهو احق منه ، وثعلبة أضعف من ان يبارزه في نزال ، افلم ترَ ماذا جرى له مع لبيد « يوم الجمار » في العام الماضي ؟

ـ : نعم يا مولاي

ـ : اذن فانت تذكر كيف سبق لبيد بن عمرو رجال الجيش ، وكيف غلب ثعلبة المغرور بالمباراة

ـ : ومتى يكون « يوم الجمار » في هذا العام يا مولاي ؟

ـ : بعد قليل ، وسندعو اليه الفرســان من بصرى ، واذرح ، والسويداء ، وقسطل ، ومعان ، والاضياف النازلين بيننا من بني جذيمة وفلسطين ولبنان، كلهم سيشتركون هذا العام في المباراة، كما اننا سنشهد قتال نديمنا ابن جناب وولديه عامر وقيس في الميدان

ـ : والنساء يا مولاي ، الا تأذن لهنّ في السباق ؟

ـ : بلى ، وسنرى ايضاً كيف تلعب سفانة على ظهور الخيل

فاصفر وجه ولي العهد ولم يجب ، فلحظ الملك تغيره فقال :

ـ : ألا تريد ان تشارك سفانة نساءنا في المباراة

ـ : واذا كانت لا تحسن ذلك يا مولاي ؟

ـ : سألناها فقالت « انها تحسن ركوب الخيل كما يحسن الناس المشي على الاقدام » واخبرتنا اختك حليمه انها من اصدق الرماة

ـ : ومن أين لحليمه ان تعرف ذلك يا مولاي ؟

ـ : ان ابن عمنا لبيد بن عمرو ، أهدى الى حليمه فرسه « الوردة » التي ارسلوها اليه من بيت المقدس ، فسألت سفانة ان تركضها في فناء القصر ، ففعلت ، فاذا هي على ظهرها كقطعة الفولاذ لا تتزعزع ، ثم ناولتها القوس وسألتها ان ترسل السهام الى قطعة من خشب جعلوها في أعلى القبة البيضاء فوق البرج الغربي ، فاثبتت فيها بضعة عشر سهماً لا

يبعد الواحد عن الآخر اكثر مما تبعد الاصبع عن اختها

فاشرق وجه المنذر وقال :

ـ : ومتى كان ذلك يا مولاي ؟

ـ : أمس عند الغروب

ـ : ومن يدعى من النساء ؟

ـ : نساء القصر فقط ، حليمه ، وكوكب ، والوصائف الثلاث ، سليمى ورضية ، وفاتنة ، وليلى بنت سلمة

: وهل يشترك الملك مع اللاعبين ؟

ـ : لا نعم الآن فقد يحدث ما يدعو الملك الى خوض المجال ، وبعد يومين ، نبدأ بدعوة الاعيان والابطال ونعلن ذلك في المجلس ليستعد القوم ، اما يوم الجمار فسيكون عظيماً جداً في هذا العام يا بني .

: ولماذا ؟

ـ : لان عندنا أضيافاً كثيرين وسيقبل اليه الفرسان من اطراف المملكة ، وهناك شيء آخر يجعله عظيماً هو ان الحسد يغلي في صدور رجالنا فسيظهرون كل ماعندهم من قوة وفنّ في صنوف القتال، ليصفق لهم الحاضرون ويصافحهم الملك

ـ : وما هي جائزة الفائز يا مولاي ؟

فهزّ الملك برأسه وقال :

أما جوائز الفائزين فعظيمة ايضاً ، سنبعث ابن سلمة ينادي بالقوم فيقول : كل من يفوز في يوم الجمار يجعله الملك من حرسه الخاص

: واذا فاز خمسون او ستون من الرجال ؟

ـ : يقيمون جميعهم في القصر ويكونون من حراس الملك

ـ : وما هي الحكمة في ذلك ؟

ـ : نزيد الناس رغبة في فن الحرب فيصبحون جميعهم على التوالي حراساً للملك ، اي نخبة الفرسان والابطال

ـ : ولكنها جائزة تزيد الحسد قوة وانتشاراً

نعم ، وهذا ما نريده يا بني ، لان هذا الحسد يبعث الحياة الى شباب لسان ، فاذا لم يهيء الملك سبل التحاسد بين شعبه على هذا الشكل ، اصبحنا بعد قليل أمة خاملة يسودها الترف والنعيم ، وليس بعد هذا الصنف من الحياة غير الذل والهوان

ـ : والنساء ؟

ـ : اما النساء فلا يطمعن بمثل هذه الجائزة لانهنّ نساء القصر على كل حال .

فاخذ المنذر يطوي سوطه بيديه وهو يفكر

فقال الملك :

اراك تفكر في أمر يا ابا كرب

ـ : نعم يا مولاي ، وأنا أتردد في اظهار هذا الامر

ـ : وما يدعوك الى التردد

ـ : خوفي من الخيبة

ـ : اذن تريد ان تسأل الملك شيئاً

ـ : نعم واخشى ان يخيب رجائي

فابتسم الحارث لولده وقال :

ـ أفي مصلحة الدولة ما تسأل ام ماذا ؟

ـ : في مصلحة الدولة يا مولاي وحفظاً لهيبة ولي العهد

: قل اذن ما تريد يا بني

ـ : فقال : ان عاصم بن ثعلبة أخي بالرضاع يا مولاي

فاستغرب الملك قوله وأجاب :

ونحن نعلم ذلك

ـ : وانه ذلك الاخ البار الذي يفدي أخاه المنذر بدمه

ـ : لقد اعترفنا بالاخلاص والوفاء

ـ : ولكن ولي عهدك يرجو منـــك الآن أن تزيد امراً على هذا الاعتراف

فقطب الملك حاجبيه وقال :

ـ : وبماذا يطمع ابن ثعلبة فوق رضى مليكه ؟

ـ : هو لا يطمع بشيء يا مولاي ولكن ..

ـ : ولكن ماذا؟

ـ : ان ولدك أبا كرب هو الفتى الطامع الكثير الادلال على ابيه

ـ : والملك بدوره راضٍ بهذا الطمع وهو الادلال ، فسل ما تشاء

: وحاجتي مقضية ؟؟

ـ : يظهر ان الامر خطير أكثر مما نظن . نعم ، وحاجتك مقضية

بلى اذا كان فيها حفظ هيبتك بين القوم

فقال المنذر : كان الذين يتقلدون السيوف أيام السلم في مجلس الملك اربعة رجال يا مولاي ، أنا وأخي جبلة ، واخونا الحارث ، وابن عمنا عبيد بن عمرو

فرفع الملك رأسه واصغى اليه وقد ادرك ماذا يريد

ثم قال المنذر :

اما اليوم فقد اصبحوا سبعة اذا اضفنا اليهم نديم الملك الجديد وولديه

: نعم

ـ : أفلا يجوز ان تضيف الى هذا العدد اثنين آخرين ؟

ـ : أي ان نأذن لثعلبة بن هنب وولده عاصم في حمل السيف بحضرة الملك ، أليس كذلك ؟

: نعم يا مولاي

فضحك الملك طويلاً وقال :

يظهر انك لم تقدّر احساننا الى اضيافك يا ابا كرب

ـ : بلى فان احسانك الى الاضياف احسان الي يا مولاي ، ولكن ثعلبة قائد الجيش وله المواقف التي تشهد باخلاصه ، كما ان اخي عاصماً رفيق صباي وصاحب سري فهما يستحقان مـــا استحقه النديم الجديد وولداه ، لا سيا وقد فشل بنو هنب في امر سليمى ، فيحسن بالملك ان يعطف عليهما من وجه آخر

فقال الملك :

أما عاصم فلا نجادلك في امره . واما ثعلبة، وان يكن قائدجيشنا ، فهو رئيس عشيرة ورؤساء العشائر لا يتقلدون السيوف في مجلسنا ما دمنا احياء .

- أتحسن الى الولد وتبخل على الوالد يا مولاي ؟

- اجل وعلى الوالد ان لا يغمط النعمة، وكيف نمنحه هذا الحق ونمنع رؤساء العشائر واخوالنا بني سعد اياه ؟؟ أيليق بالملك ان يجعل بين رجال بلاطه سبيلاً الى التقول والعتب او ان يضع الشيء في غير موضعه اكراماً لرجل يفتخر على اخوالنا وابناء عمنا بشرف اصله؟؟ ان هذا لايكون ابداً ، اما اذا احسنا الى نديمنا وولديه بما لم نحسن به الى رجال القصر فذلك لكي نبث في صدور المخلصين للعرش روح التضحية والوفاء ، ولكي نعلّم الطامعين المتعنتين كيف يكافيء الملك الامناء وان كانوا غرباء ، فبشر اخاك عاصماً بهذا الاحسان ولنا في ذلك عذرنا انه اخو ولي عهدنا ورفيقه في مواقف الفخار ، ويجب ان يعلم ابن هنب، ان عتابه كفران بنعمة الملك ، وانه اذا عاد الى مثل ذلك التعريض عزلناه عن القيادة وارسلناه يرعى نوق الملك ، وغنمه في غوربيسان

ثم نادى الملك حاجبه « الخائن » وقال له:

عليّ بثعلبة بن هنب

فنهض المنذر يحاول الانصراف

فقال له ابوه : ابق حتى يجيء الرجل فتسمع حديثه

- : وأي شأن لي اذا كان الملك يريد ان يفاتحه في الامر ؟

ابق ليلقي عليك الملك امثولةً في الدهاء

ولما ذهب الحاجب «الخائن» ليدعو ثعلبة ، اعاد عليه حديث الملك كما جرى فمشى ثعلبة ليقابل مولاه ، ونار الغيظ تتأجج في صدره

فلما مثل بين يديه ، قال له الملك :

– لقد قرب موعد يوم الجمار يا ابن هنب ، وسيشترك فيه اضيافنا وقواد الالف في الجيش وابطال البلقاء وحوران ، فاعدّ للناس ما يحتاجون اليه في ذلك اليوم من صنوف السلاح ، واختر بنفسك جلود الثيران والسنجاب لنجعلها اهدافاً للسهام ، فأنت تقوم هذه السنة مقام ابن هنا لبيد بن عمرو في تدبير الامر

فظهرت ابتسامة الرياء على ثغر ثعلبة وقال :

–: وكم هو عدد الفرسان الذين يتبارون في ذلك اليوم يا مولاي ؟

– : مئة على الاقل ما عدا النساء وهن سبع ، وليكن جفال ابن سلمة معاوناً لك في عملك لانه كان يعاون لبيداً وهو خبير بامثال هذه الشؤون .

– : ولكن ابن سلمة سيسافر مع رسول الملك الى نجد

– : لا ، فلا يكون السفر قبل يوم « الجمار » وفوضنا اليك ان تذكر للملك اسماء الفائزين لنجعلهم حراساً للقصر

فقال ثعلبة في نفسه :

انه احسان ، العبيد اولى به من القواد

ثم قال : ولكن لا استحق عطفك يا مولاي

- : بل تستحق اكثر من ذلك يا قائدنا الباسل ، ثم استطرد قائلاً :

وجعلنا عاصما حاجب الملك الاول ومرافقه وحامل سيفه» وهو لقب شرف عند الحارث »

فانحنى ثعلبة حتى كاد يلامس ركبتيه

وقال الملك

ولهذا الحاجب العزيز ان يتقلد سيفه في مجلس الملك منذ الان

ولكن ثعلبة لم يغرّه هذا الدهاء « لان الحاجب كما تقدم كان قد نقل اليه حديث الملك »

فتظاهر بالفرح واثنى الثناء الطيب على مولاه

اما الملك فعاد الى الحديث قائلًا :

ولو جاز لغير الملك وولي عهده ان يكون القائد العـــام لجعلناك يا ثعلبة ذلك القائد لانك أهلٌ للثقة والحب ، ومع ذلك فنحن نسميك الان القائد الاكبر ولكن ينوب عنك ولي العهد في القيادة

فقبل ثعلبة الارض بين يدي الحارث وقال :

اي انك جعلتني ملكاً يا مولاي ولكن ينقصني العرش والتاج

ـ : نعم فيكفي ان يقول الناس انك ملك

قالها الحارث وكاد ينفجر غضبه

فقال ثعلبة : حسبي أن يقول الناس اني من عبيد الحارث بن جبلة

ـ : اما نحن فحسبنا ان نقوم باكثر ما علينا فلا نسمع عتابك يا ابن هنب .

لخفق قلب ثعلبة من الخوف .

ولكن الحارث أزال خوفه بقوله :

كلما عتبتنا يا ابن هنب قابلنا عتابك بالاحسان

قم الآن فانصرف

فلما خرج ثعلبة التفت الحارث الى ولي العهد وقال :

الويل لهذا الرجل من يوم ٍ يفرغ فيه الصبر

- ٢٢ -

الاسير ووفد اليمن

عند الملك

من عندك من الاضياف اليوم يا ابن سلمة ؟

ـ : عندي الكثيرون يا مولاي ، فكلما كثر مال الملك كثر اضيافه .

ـ : ولكن هذا المال يقل ولا يكثر ، ومن اي بلاد هم ؟

ـ : من كل مكان ، من الشرق والغرب ، والجنوب والشمال ، بينهم السريان والروم ، واثنان من اليمن يريدان ان يقابلا الملك

ـ : غداً او بعد غدٍ ننظر في امر الاضياف

ـ : ولكن اليمنيين هما وفدٌ اليك من ابرهة الاشرم ملك اليمن

: وما عساه ينقل الينا هذا الوفد ؟

: انه يحمل البخور والقرفة والمرّ والدارصيني هدايا للملك

ـ : يظهر ان صاحبنا ابرهة لم يذكرنا الا لحاجة له وسنعلم ذلك بعد قليل ، ومن عندك ايضاً ؟

ـ : فقال جبلة ابن الملك :

عنده ضيف من بني النمر بن قاسط

فاهتزّ الملك على سريره وقال :

ـ ضيف من رجال المنذر بن ماء السماء على الحارث بن جبلة ؟ اني لا اصدق هذا القول

ثم التفت الى رجال المجلس وقال :

ـ وما رأيكم في هذا الضيف

فقال جبلة : ليس الرجل ضيفاً يا مولاي ولكنه اسير

ـ : ومن اسره ؟

ـ : اسرته امس يامولاي وراء «تلّ الطراد» وهو يحاول الاختباء او الفرار ، ولما عدت ليلًا وكلت امره الى ابن سلمة لتنظر اليوم في امره

وما هي صفات الاسير ؟

ـ : انه غريب الاطوار يا مولاي ، وقد اعترف لنا انه قدم من الحيرة وانه جاسوس ابن ماء السماء

ـ اذن نراه قبل ان نرى الوفد اليمني ، احضره يا ابن سلمة

وبعد ساعة احضر الاسير بين رجلين

فاذن له الملك في الدخول

وكان الاضطراب بادياً على وجوه رجال المجلس والغضب ظاهراً في عيني الملك

فدخل الاسير

فوقعت انظار القوم على فتىً في الثلاثين من عمره، اسمر اللون براق العينين ، يلبس لباس اهل البادية ، وقد ضفر شعر رأسه جدائل وارسله الى قفاه وجانبي رأسه وخديه

فلما توسط القوم ، اجال بصره يمينا وشمالاً ثم قال :

مرحبا يا ابن جبلة !

فابتسم ذلك الملك الداهية وقال :

مرحبا يا أخا العرب ، اجلس وقل لنا ممن أنت

فجلس الفتى وقال :

من بني النمر بن قاسط

— : وما اسمك ؟

— : عوف

— : واسم ابيك ؟

— : لا اعرف لي ابا

— : اكرم به من نسب شريف

ومن ارسلك الينا ؟

— لست رسول احد ولكني خرجت على وجهي اطوف بلاد العرب حتى اذا طاب لي المقام في بلد مكثت فيه حتى أموت

ولماذا لا تقيم في قومك ؟

ـ لان قومي استسلموا الى عدوي وانا لا أطيق الاقامـــة بينهم بعد الآن .

ـ ومن هو عدوك ؟

ـ المنذر بن امرىء القيس ابن ماء السماء ، الملك القاسي السفاح

فقال الحارث في نفسه :

انها حيلة تنطلي على المغفلين

ثم قال : وكيف استسلم القوم ؟

ـ ان أميرنا سلمة بن الحارث الكندي سلم اليه سيفه وانقضى الامر .

ـ أفي حربٍ فعل ذلك أم ماذا ؟

ـ في فتنة تشبه الحرب

ـ ولماذا لم تلجأ الى الامراء اخوان سلمة وبلادهم اقرب اليك من كل بلد عربي ؟

ـ لان هؤلاء كانوا أسبق من اخيهم الى الاستسلام

ـ وكيف جرى ذلك ؟

ـ ان معدي كرب امير قبائل قيس عيلان جعل طوائفه جنوداً لابن لخم .

ـ : واخوه شرحبيل

ـ : وشرحبيل ابدى لهذا الملك خضوعه ايضاً

ـ : وكذلك فعل اخوهما حجر ؟

ـ اما حجر فقد عزل نفسه عن امارة بني غطفان ليولي عليها ابن ماء السماء من يشاء .

ـ اذن فملك العراق اليوم سيد القبائل دون منازع

ـ نعم ، وقد أصبح الامراء عمالاً له لا يخالفونه في شيء

فضحك الحارث وقال :

أتعرف المنذر يا عوف ؟

ـ رأيته مرةً واحدة في بلاد بكر بن وائل وحاولت ان أقتله

ـ ولماذا ؟

ـ لانهم قالوا لي انه قاتل أبي وأمي

ـ تقول انك لا تعرف لـك أباً ، ثم تقول ان ابن ماء السماء قتل أباك ، فمن هو أبوك اذن ؟؟

فتلجلج صوته وقال :

لا أعلم

فاحمرت عينا الحارث ، فعرف القوم ان دور الحلم قد انقضى .

قال الملك : الست من رجال الحيرة يا فتى ؟

ـ وكيف اكون من رجالها وانا من بني النمر

ـ وماذا قلت للذين أسروك امس ؟

ـ لم اقل لهم شيئاً

فقال جبلة :

اعترف انه من الحيرة وانه جاسوس المنذر

فقال : ولكني كذبت فالمنذر عدوي وسيموت من يدي

قال الملك : أتعرف ما هو جزاء الكذوب ؟

= ليكن جزاؤه القتل فلا أبالي

فالتفت الملك الى لبيد بن عمرو وقال له :

اقطع لسانه بسيفك يا لبيد

فقال : القتل خير من قطع اللسان يا ابن جبلة

= اذن فاضرب عنقه يا ابن العم

فقال لبيد : أفي مجلس الملك ؟

= أجل فالكاذبون يجازون على الفور

فجرّد لبيد سيفه ولبث ينتظر الكلمة الاخيرة

فلما رأى الفتى السيف يلمع فوق رأسه ، مد يده اليمنى الى إبطه الايسر ، بشكل لفت نظر الملك ، فقال :

= ان هذا الفتى يخفي في إبطه شيئاً ففتشوه

فامتدت اليه الايدي ، فاذا هو يخفي في مؤخر كمه جراباً اسوداً مشدوداً الى منكبه بخيوط من جلد

فأخذه لبيد وجعل يقلبه بين يديه وهو لا يعرف ما فيه

فقال له الملك : افتحه يا لبيد

فقطع لبيد خيوطه بسيفه ، ومدّ يده الى داخله فلامست جسماً صلباً

فاخرجه فاذا هو خنجر قصير الشفرة مشحوذ ، يبرق الموت من حـديه ولا قراب له ، فوضعه على سرير الملك

ثم مدّ يده ثانية ، فأخرج رقاً مطويا ، فنشره فاذا هو بضعة رقوق صغيرة كتب عليها بالحرف النبطي(١)

« الى قبائل العرب الخاضعة للحارث بن جبلة »

« ندعوكم الى نبذ طاعة الحارث والانقياد الى المنـذر ابن ماء السماء قبل ان تصبحكم الخيل »

والكتابة لا توقيـع فيها

فاستوى الملك في مجلسه وقال للقوم :

خذوا مجالسكم

وكانوا قد اوثقوا الفتى ، فقال لهم :

= فكوا الاسير

فاطلق لبيد يديه

= فقال الملك : أتعود الآن الى الكذب ؟

= لم يبق لي فائدة منه فسل ما تشاء

= قل الآن من ارسلك ؟

= : ارسلني صاحب الكتابة التي قرأت

= : من هو ؟

---

(١) اقدم كتابة عربية كان يكتب بها عرب الشمال « العرب قبل الاسلام »

= : المنذر ابن ماء السماء

= : وبماذا اوصاك ؟

= : اوصاني بأن انشر هذه الرقوق بين القبائـل الخاضعة لك دون ان يشعر بي احد

= : وهل ألقيت شيئاً منها ؟

ـ : ألم ترها مطوية في الجراب ؟ !

ـ : حسنا وبعد ذلك ؟

ـ : بعد ذلك اعود الى الحيرة وقد نفذت امر مولاي

ـ : وهذا الخنجر من سلحك به ؟

ـ : هوخنجر لي اشتريته من الحجاز من عشرة اعوام

ـ : ألم يدفعه اليك مولاك لتغرزه في صدر الحارث بن جبلة ؟

ـ : ان مولاي لا يعلم اني املك مثل هذا الخنجر

ـ : أراك تلجأ دائماً الى الكذب فلا بد من قتلك

ـ : لا تخوفني بالموت يا ابن جبلة فقد أيقنت الان اني مقتول وانا أقول الصدق ، وكيف يجوز للملك مثلك ان يتهم ابن ماء السماء بالغدر، أتراه لا يقدر ان يرديك بسيفه في ساحة الحرب ؟

فأيقن الحارث عندئذٍ ان الرجل صادق فيما يقول ، فقال له :

أتذكر الان اسمك ؟

ـ : لقد ذكرته وكفى

ـ : وبماذا توصي لاهلك ؟

فابتسم ذلك الفتى المستهين بالموت وقال :

– أراك تهزأ بي في ساعة موتي ايها الملك ، اتبعث رجلاً الى الحيرة ينقل كلامي الى قومي ؟؟ ألا فاعلم اني وحيد لا قوم لي ولا اهل

فأعجب الملك برباطة جأشه وصدق عقيدته وقال :

– واين يقيم مولاك الان ، افي الحيرة ام في جوارنا وسيصبحنا بالخيل . . . ؟

: لا تستصغرني يا ابن جبلة فهذا الفتى الذي يموت الان لا يخون مولاه .

: واذا عفونا عنك ؟

: لا احسبك فاعلاً بعد ان ُقتل رسولك الى الحيرة

فبغت الملك وعقد الخوف لسانه فلم يجب

فقال ولي العهد :

واي رسولٍ تعني يا عوف ؟

: رسول ملككم الى الحيرة ، واسمه عتبة بن هند

ومن قتله لا ام لك ؟

ذبحه ابن ماء السماء على شاطىء الفرات وقذف بجثته الى الاعماق

فزفر الملك زفرةً طويلة وقال

أفعلها المنذر ؟

فقال الفتى : نعم فخذ دماً بدم

فهلعت قلوب القوم ولم يجسر احد ان يقول كلمة

وبعد هنيهة ، رفع الملك رأسه وقال :

نعم ، دماً بدم ، ولكن دم مولاك نفسه لا دمك ايها الاسير ، ان ابن جبلة لا يقتل اسيره ، قم فأنت حر

ثم التفت الى ابن سلمة وقال له :

اعطه فرساً من افراس الملك وابعث معه من يرافقه الى تدمر ، اما الخنجر يا عوف فسنبقيه عندنا اثراً ثميناً من آثار الغادرين ...

فلما عرف الاسير انه حرّ ، رفع صوته قائلاً :

يجدر بالملوك ان يأخذوا عنك آباء النفس يا ابن جبلة

قال ذلك وخرج

فاتكأ الملك على وسائد السرير ووضع رأسه بين يديه واستغرق في التفكير

- ٢٣ -

اما رجال المجلس فلم يستغربوا عفو الملك عن عوف فالعفو عن اسرى الحرب وأسرى السياسة كان من عادته ، يستجوبهم ماشاء دهاؤه ومصلحة عرشه ثم يطلقهم ، فكان في ذلك الحلم الفريد وذلك الكبر ، افضل ملك بين ملوك العرب

ولكن الغم استولى على القلوب ، وساد المجلس صمت رهيب تكاد تسمع فيه انفاس القوم

اما ثعلبة فكان قلبه يرقص في صدره من شدة الفرح ، وقيس بن ثابت يقول في نفسه : سيكون مصير صاحبنا ابن زهير ، مثل مصير عتبة بن هند

وبعد قليل رفع الملك رأسه وقال :

ليبد كل واحدٍ منكم رأيه فيما سمع الآن

فقال ثعلبة : الاسير صادق يا مولاي فلو لم يكن المنذر ذبحه في الحيرة كما قال لما عرف اسمه

وقال قيس : وقد يكون الامراء سلموا سيوفهم الى ابن ماء السماء

فلم يبق لنا مطمع بنجد

فقال الملك : وانت ايها النديم ما رأيك ؟

قال : ان ما ذكره الاسير عن استسلام نجد فتلك رواية قصها علينا كما املاها عليه مولاه ، ليلقي الرعب في قلوب الجيش الغساني

ان ابن ماء السماء قد يخضع نجداً ولكن بعد ان تجري الدماء انهاراً وتمتلىء سهول نجد من جثث الناس

هذا ما يقوم في ذهني يا مولاي ، واما ان يستسلم القوم في مثل هذا الشكل الشائن وهذا الذل الفاضح فذلك ما لا اصدقه لاني اعرف طبائع الشعب في نجد وقد خبرت بنفسي تمردهم على كل سلطة ونزوعهم دائما الى الاستقلال حتى ان امراءهم يا مولاي ، الامراء انفسهم يجارون هذا الشعب الذي يحكمون ويوافقونه في معظم رغائبه وميوله خوفا من ان يثور عليهم يوما فيثل عروشهم ويجعلها موطىء الاقدام ، ان الشعب الذي لا يسلم نفسه الى اميره ، لا يسلمها الى الغريب الا اذا اكرهته القوة والحرب .

اجل ان بعض بني تغلب والنمر بن قاسط خاضعون لابن ماء السماء ولكن خضوعهم لا يعني خضوع القوم جميعا - بين ليلة وضحاها - لهذا الملك المستبدّ .

واما قتل عتبة ، فأنا لا اعرف ملكا يقتل اسيره ولو طـــال اسره الى الابد .

فقاطعه لبيد قائلاً :

الا ملوك الحيرة فهم لا يحفظون عهداً ولا يرعون حرمة ، اتري ابن ماء السماء يشذ عن قاعدة جده الاسود وهو الغـادر النذل الذي قتل امراؤنا وهم في اسره ، باغراء نسيب له شاعر يقال له ابو اذينة ؟؟(١)

قال عامر :

ــ اليست هي الحادثة التي ذكرهـا مولانا الملك يوم اذن لنا في مقابلته الاولى ؟

قال الملك : بلى وهي حادثة يبقى اثرها في غسان ما بقي الغسانيون.

ــ ومتى حدثت يا مولاي ؟

ــ منذ اكثر من ثمانين سنة

ــ اذن فالاسود هو جدّ ابن ماء السماء

ــ لا بل هو جدّ ابيه، خدمه الحظ في واقعة بينه وبين جدنا الحارث الرابع ، وكانت قبائلنا تسودها الفوضى ، فاسر بعض امرائنا وانصرف بهم الى بلاده لينظر في امرهم ، فقال له بعض قومه : « اطلقهم ايها الملك فهم امراء الشام » فاراد ان يعفو عنهم فمانعه ابن عمه ابو اذينة لعنه الله ، واغراه على قتلهم بقصيدة من شعره .

ثم تنهد الحارث ووجّه حديثه الى قيس بن ثابت وقال :

ــ اذكر يا قيس بعض ابيات هذه القصيدة السامة التي نفثها من فمه

---

(١) هو الاسود بن المنذر تولى الملك من سنة ٤٧٣ الى سنة ٤٩٣ ، ثم خلفه اخوه المنذر الى سنة ٥٠٠ ثم ابنه النعمان بن الاسود الى سنة ٥٠٤ ،ثم امروء القيس بن النعمان الى ٥١٤ ، ثم ابن ماء السماء « ابن امرىء القيس» الى سنة ٥٦٣

ذلك الشاعر النذل ابو اذينة

فلفظ قيس مطلع القصيدة وهو هذا :

« ما كل يوم ينال المرء ما طلبا   ولا يسوغه المقدار ما وهبا »

«وأنصف الناس من ان فرصة عرضت   لم يجعل السبب الموصول مقتضبا »

الى ان قال :

« والعفو إلا عن الاكفاء مكرمة   من قال غير الذي قد قلته كذبا »

« قتلت عمراً ونستبقي يزيد لقد   رأيت رأياً يجرُّ الويل والحربا »

«لا تقطعن ذنب الافعى وترسلها   ان كنت شهما فاتبع رأسها الذنبا »

قالها قيس والملك ترتجف شفتاه من الغضب ثم قال :

هكذا يقتلون ملوكنا ونحن نعف عن قتل عامتهم، ولكن اجدادنا لم يعلمونا الغدر، وذو الخلق العالي لا يجرد سيفه على الاسير المقيّد اليدين

لقد دنت الساعة التي تصطدم فيها الخيل، فنقابل المنذر وجهاً لوجه ، ونثأر للدم الزكي الذي انغمست فيه يداه وتخضبّ به عرشه، ذلك الدم المسفوك على عتبة قصره وعلى شاطىء فراته ظلما وغدراً ، فلهفي عليك يا ابن هند ، يا قتيل المروءة ويا ضحية الواجب ، يا أصدق الرجال وأبرّ المخلصين ، ولهفي على الغسانيين الابرياء الذين طوتهم مياه الفرات قبلك ضحية اللخميين الظالمين

واستولى الغمّ على قلب الحارث فأخذ يضغط وسادة السرير ويقول: مسكينة أمه.. تلك الارملة العجوز.. من يعزي قلبها الجريح ومن يغمض عينيها بعد عتبة ..

ثم نسي انه ملك فاستسلم الى عواطفه وذرفت عيناه الدموع

عندما خرج ابن سلمة بامر الملك ليعد فرسا لعوف ، خرج ، وهو يهزأ بهذا العفو ويقول :

« اذا كان الحارث بن جبلة عفاعن هذا الاسير العراقي اللعين، فجفال بن سلمة لا يعفو عنه »

ولما اجتاز الباب الخارجي والاسير وراءه ، رأى الناس ، نساء ورجالاً يملأون ساحة القصر الفسيحة الجوانب وهم يتحدثون عن الاسير ولا يعلمون ما يكون مصيره

وكان امر هذا الاسير قد ذاع بين الناس ، فلما رأوا ابن سلمة اقبلوا عليه يسألونه عنه ، فأومأ الى رفيقه وقال :

هذا هو اسيركم جاسوس ابن ماء السماء وقاتل عتبة بن هند

فثار ثائرهم وضجوا قائلين :

أ ُقتل عتبة ؟

قال : نعم ايها المجانين وهذا هو قاتله

ـ : والى اين تسير به ؟

ـ : الى مربط خيل الملك أختار له فرساً من افراسه يحمله الى الحيرة وأبعث معه جندياً غسانياً يرافقه الى تدمر ، لقد زاد مليككم في الحلم ايها الناس ، يقتلنا اهل العراق وهو يعفو عن القاتلين، ثم يهب لهم افراسه ويجعل رجاله حراساً لهم حتى يخرجوا من بلاده ! ، تلك حكمة لا يعرفها ولا يريد ان يعرفها غيره من الملوك ، ولكنها حكمة شاذة وعفو غريب ، انظروا الى هذا العراقي قتل عتبة على الفرات ، ثم أقبل من

الحيرة يبث بأمر سيده روح العصيان بين العشائر وهو يحمل في جرابه خنجراً مسموماً يطعن به صدر الملك ، ومع ذلك ، مع ذلك فاحترموه ايها الناس لانه في جوار الحارث وقد اصبح ضيفه ... وقولوا لام عتبة أن تستقبل ضيف الملك الذي هو قاتل وحيدها بما يليق بمقامه من الاجلال.

وأتم جفال خطابه بهذه اللهجة المؤثرة ، فهاج القوم ، وانبرى منهم فتىً في الخامسة عشرة من سنيه يطالب بقتل الاسير

فاسكته ابن سلمة بقوله :

— وكيف تقتله وهو في جوار الملك حتى يصل الى تدمر ؟

ففهم الناس ان ابن سلمة يغريه على قتله خارج الحدود

فسكت الفتى الغساني وتفرق القوم

ولكن ابن سلمة أراد ان يضرم نار الهياج فارسل من يقول لام عتبة « ان وحيدها قتل في الحيرة وان الملك اطلق قاتله »

فعلا صياح هند، واقبلت نساء الحي يلطمن الخدود ويقرعن الصدور حزناً على ذلك الفقيد الذي قتله اقدامه واخلاصه.

• • •

وكان الملك يسمع اراء القوم في مجلسه

ففتح الحاجب باب القاعة وقال :

بالباب ام عتبة وطائفة من النساء يستأذن في الدخول

فبغت الملك وقال :

ام عتبة ؟ اذن جاءت تسألنا عن القتيل، لتدخل

فدخلت هند تتهادى بين فتاتين ، وخلفهـــا سبع من النساء بينهن زوجة عتبة ، يذرفن الدموع ، وقد أرسلن شعرهن على الاكتاف

فارتسمت الكآبة على وجوه القوم ، عندما وقع نظرهم على هند ، تلك العجوز الدامعة العين الصفراء الوجه المنحنية الظهر ، فتوكأ على ذراعين ، وتجرّ قدميها بالرغم مما تحمله على منكبيهـا الضعيفين من اثقال السنـــين .

فنهض الملك ، ومشى بضع خطوات يستقبل الارملة الثكلى وهو لا ينهض عن سريره الا لعظماء الروم والامراء .

اما هند فلم تبصر الملك لان الدموع كانت تضع حجاباً بينها وبينه

فقالت لها احدى الفتاتين :

هذا مولانا الملك يمدّ اليك يده يا هند

فحاولت ان تجثو على ركبتيها فلم تقدر فـــانطرحت على قدميه وتناولت رداءه فوضعته على رأسها وقالت :

أسألك بالله يا مولاي ان تبعثني الى الحـيرة فارقد في اعماق الفرات حيثما يرقد عتبة

فسقطت دمعة على خد الملك وقال :

لعن الله الحيرة والفرات فهما موطن الغادرين ، لقد كنـا سبباً لقتل عتبة يا هند ولكننا نقسم بتربة أبينا جبلة ، لنجعلنّ دم ابن ماء السماء ثمناً لدمه ، فاجلسي يا سيدتي ، اجلسي أيتها الام التعيسة واشترطي علينا بدم عتبة ما تشائين

فقالت وهي تشهق بالبكاء :

وكيف عفوت عن قاتله يا مولاي ؟

ـ : عفونا عنه لانه بريء من دمة والقاتل هو ملك العراق نفسه ، ومع ذلك فهي أنه القاتل أتطلبين يا هند ان يقتل الملك اسيره ؟

: لا يا مولاي ولكنني اطلب ان تثأر له قبل ان اموت

فمسح الملك دموعه وقال :

اعلمي يا هند ان حزن الملك على عتبة لا يقل عن حزن امه ، وهذه الدموع التي ترين سوف لا تجف حتى يرتوي السيف من دم اللخميين فالليه ، فابكي يا هند فقيدنا عتبة أبكيه ما شئت، واتبكيه نساء حوران حتى تتقرّح العيون ، ولكن لا تتهمي الملك بالقعود عن الاخذ بالثأر ، فسيأتي يوم هو قريب تجدين فيه عظماء بني لخم تحت حوافر الخيل ، وملكهم الخائن الظالم هدفاً لنبال الغسانيين .

لقد كنا نستطيع ان نقطع رأس اسيرنا ونسلم اليك ذلك الرأس ، ولكنها شيمة الخونة ، ودم صعلوك عراقي لا يفي بدم نبيل من بني غسان ، فاصبري اذن اصبري على جور الزمان ان الحارث بن جبلة نفسه بستعين بالصبر الان، والويل لملوك العراق من يوم تتكسر فيه السيوف والرماح .

ثم قام الملك فجرد سيفه وقال لرجاله :

أقسموا بسيف الملك ان دم عتبة لا يضيع

فردّد القوم قول الملك وضجوا بالدعاء : ليحيا العرش ، ليحيا الحارث بن جبلة .

وتلك كانت عادتهم اذا جرّد الملك سيفه ، ونـدبهم الى امر اوالى حرب .

وقال لبيد بن عمرو :

اقسم برأس الملك وسيفه اني لا آخذ بدم عتبـة الا رأس ابن ماه السماء .

فالتفت الملك الى هند وقال :

أراضيةٌ انت الان يا هند

فبرقت عينا هند ورفعت رأسها وقالت :

اما انا فراضية يا مولاي ، لقد بكيت ولدي لاني امه وجئت اسأل الملك ان يثأرله، ولكني غسانية والغسانيات لا يبكين اولادهنّ اذا هم قتلوا في سبيل الواجب ، ليمت عتبة يا مولاي ، ان موتـه شرَف لامه ولقومه ، ومجد لعشيرته واهله ، اجل ليمت في سبيلـك فالرجال الذين يمشون فيركابك الى الحرب ليسوا اصدق عزيمةمن هذه العجوز المنحدرة الى هوة القبر .

فتيان غسان يحصدهم السيف وتخترق صدورهم النبال وهم يدافعون عن العرش ، افلم يكن موقف عتبة في العراق ، موقف دفاع عن قومه وبلاده وقد آثر الموت علىخيانة ملكه ؟؟ فاجعلني يا مولاي من صف رجالك المحاربين الذين كلما ابتلعت الحرب ابناءهم صاحوا قائلين : ليحيا الحارث بن جبلة ليحيا العرش ..

ثم تاه نظرها في فضاء تلـك القاعة ، فمدت يديها الى الامام تخاطب عتبة قائلة :

ولدي ، يا وحيد امك هند ، لئن متّ في الحـــيرة فانت حيٌّ في حوران وكما طوى جسمك الفرات هكذا تطوي ذكرك صدور الرجال فاصبر يا بني اصبر لاضمك الى صدري قبل ان تموت واطبع على جبينك الزاهي قبلة الام قبل ان يذبحوك ... لقد عشت يا بني غسانياً شريفا ، ومتّ غسانيا شريفا فليكن موتك ياعتبة عبرةً لقومك وحياةً لهذا البلد الذي احببت ...

ثم طوقت الهواء بيديها المرتجفتين كأنها تضم عتبة ووقعت على الارض وقد صرعها الحزن

فقال الملك لرجاله :

ان الملوك لا ترثي اولادها كما رثت هند فتاها البار

ثم اومأ الى النساء ان يحملنها الى جناح القصر الغربي حيث تقيم حليمة وسفانة .

وقال للحاجب : قل لحليمة ان تعتني بهـــا كما تعتني بالملك لان بين اضلاعها قلبا اكبر من قلوب الملوك

والتفت الى لبيد ابن عمه وقال :

اجل ان موت عتبة سيكون حياة لحوران

• • •

وكان ابن سلمة قد نفذّ امر الملك كما احسن تنفيـذ خطته الخاصة ، فلما عاد بعد ساعتين الى القصر ، كان الملك قد عاد الى نفسه ، وعـادت الى وجهه ملامح الرصانة والجلال

فقال لجفال : متى سافر عوف يا ابن سلمة ؟

ــ منذ ساعة يا مولاي فلا اعاده الله

ــ وهل قمت بما عهدنا فيه اليك ؟

ــ نعم يا مولاي

ــ واي فرسٍ اعطيته ؟

ــ ذلك الفرس الاعرج الذي يقطع فرسخاً كل يومين ...

وكان جوابه مضحكا ، غير ان القوم لم يجسروا على الضحك

فقال الملك : أتقول الصدق يا ابن سلمة ؟

ــ نعم يا مولاي فمتى كان ابن سلمة كاذباً

ــ وهل توجد الافراس العرج بين خيول الملك ؟

ــ لا يا مولاي ولكنها توجد بين الافراس التي تنقل المياه الى القصر

فأظهر الملك الغضب وقال : أفعلتها يا خبيث ؟

ــ نعم يا مولاي لان الفرس الكريم لا يستحقه النذل اللئيم

ــ ولكن امرناك بأن تعطيه فرساً من افراس الملك

ــ اي انك جعلتني حراً في اختيار الفرس الذي اريد

وكيف ذلك ؟

ــ لان كل شيء في حوران ، حتى الافراس العرج هو للملك ، فالفرس الذي أخذه عوف إذن ليس من افراس المسكين ابن سلمة بل من افراس الملك

ــ ولماذا فعلت ذلك ، الاجل الانتقام من اسيرك ام ماذا ؟

ليس في الامر انتقام يا مولاي ولكنه توفير . . .

فعضّ الملك على شفته كي لا يبين ثغره الضاحك

وقال جفال في نفسه : والله لاخرجت من هـذه القاعة حتى يضحك ابن جبلة

ثم قال الملك :

اذن لو جعلناك في بيت المـــال ياابن سلمة لمسّنا الجوع !

ـ انا لو كنت في بيت المال لجعلت تراب حوران والبلقاء ذهباً

ـ واطعمت اضياف الملك ترابا ايها اللعين . . قل من ارسلت مع الاسير من الرجال ؟

ـ فتىً من سقاة النوق يا مولاي نعم وجعلت سلاح الاسير عصـا من عصي الرعيـــان ، وملأت جرابه المشؤوم من سويق الشعير يمزجه بالماء ثم يضعه في الشمس حتى يجفّ ثم يأكله

ـ لعنك الله لقد جاوزت الحد في الجود

ـ كما جاوز اللخميون الحد في الغدر يا مولاي ، ولولا خوفي من الملك ، اي والله لولا خوفي منـــك ، لضربت عنق عوف وجعلتها في جرابه ، وبعثتها الى مولاه ابن ماء السماء يشرب عليهـــا الصبوح على شاطىء الفرات

فضحك الملك ضحكاً عاليا وقال :

لوفعلتها لامرنا لك بمئة وخمسين جلدة

فضحك ابن سلمة بدوره وقال :

سبحان من جعلك جواداً بالجلد يا مولاي كما انت جواد بالمال

ثم تمتم يقول :

ان الملك قد نسي الان عتبة ،فما اسرع ما تنسى الملوك شقاء البشر..

• • •

وتنفس القوم الصعداء عند ما رأوا شفتي الملك قد انفرجتا ووجهه قد عاد الى الاشراق

وجاء دور الوفد اليمني ، فقال الملك :

اتسمح لنا يا ابن سلمة ان نقابل وفد اليمن ؟

فقال : نعم ، ولولا احسانك بالجلد لقلت لا ..

ــ ولماذا ؟

ــ لاني أخشى ان تبعث الى اليمن بما بقي لك من الافراس ..

قال : لا تلق على الملك امثولةً في البخل يا خبيث فقد تعوّد ابن جبلة ان يشمل باحسانه جميع طبقات العرب ولو نفذ آخر درهم من بيت المال ، اذهب وقل لليمنيين ان يحضروا

فخرج وهو يقول : ما رأيت ملكاً يبغض ماله مثل هذا الملك فهو لايحسب حساباً للفقر والافلاس

ثم عاد وقد أقبل اليمنيان وراءه

وقبل ان يدخلا الى قاعة الجلوس، سلمّا الى جماعة الحراس ، باشارة ابن سلمة ، سيفيهما المذهبين القصيرين

ثم تجاوزا الباب الى الداخل وخرّا ساجدين امـام الملك دون ان يقولا شيئاً

وتلك كانت عادة اليمنيين في الدخول على الملوك

فأومأ الملك اليهما بالجلوس قائلًا :

أأنتما من اليمن ؟

فقال اكبرهما سناً وقد جاوز حد الكهولة :

نعم يا مولانا وقد اوفدنا ملكنا ابرهة نحمل اليـك رسالته هذه ، وهدايا الدارصيني والقرفة وغيرهمـا من الطيوب «الدار صيني خشب مثل القرفة »

ومدّ اليمني يده بالرسالة ؟

فتناولها الملـك وقرأها ثم وضعها الى جانبه والملامح الهادئة مرتـسمة على جبينه

ثم قال يخاطب الرجل :

اتحبون ملككم ابرهة ؟

ـ انه ملكنا يا مولانا على كل حال

ـ لقد كثرت في ايامه خيرات اليمن كما كثرت اطيابها ، وهل تجني العرب هذه الاطياب بتعب كما كانت الحال منذ القديم

ـ نعم يا مولانا الا المر فالحصول عليه سهل ولا توجد هذه الاطياب الا في بلاد العرب

ـ وكيف يجنونها اليوم ؟

- كما كانوا تحنونها من قبل ، تنبت القرفة في بحيرة قليلة المياه يعيش حولها حيوان كالخفاش يصيح صياحاً هائلاً وهو شديد الاذى ، فيتقي العرب اذاه بجلود المعز والثيران يغطون فيها ابدانهم ووجوههم الا الحدق ، والمر صمغ يسيل من شجرة فيجمد فيأخذونه دون عناء ، اما الدار صيني فلا يعرفون اين ينبت ولكنهم يجدون عيدانه في جبل وعر تأخذها الطيور لتبني أعشاشها بها وهناك اللاذن يا مولانا وطريقة جنيه أعجب من هذه لانهم يجدونه « كما يزعمون » في لحى التيوس ، كالعفن الذي يتولد على الخشب فيدخلونه في تحضير طيوب كثيرة ، والعرب يا مولانا يتطيبون باللاذن اكثر منهم ببقية الاطياب ، «قالها هيرودوتس»

- اانتما من العامة ام من رجال الدولة ؟

من رجال الدولة يا مولانا ، فانا احد « اذواء » اليمن واسمي « ذو مغار » اما رفيقي فاسمه يحصب(١)

- واين تقيم يا ذو مغار افي قصرك ام في قصر الملك ؟

- في غمدان ، قصر الملك يا مولانا ، الا بعض ايام السنة اقضيها في مغار

---

(١) كانت اليمن في زمنها القديم تقسم الى محافد ، جمع محفد ، والمحفد الى قصور ، وكانت قصورهم كالحصون أو القلاع تبنى داخل الاسوار ويقيم فيها شيخ أو أمير حوله الاعوان والحاشية والخدم كما كانت حكومات بابل قديماً « او كما كان نظام الاقطاع في اوروبا في الاجيال الوسطى » ويعرف صاحب المحفد او القصر بلفظة«ذو» أي صاحب ، يضيفونها الى اسم المحفد فيقال « ذو غمدان » أي صاحب غمدان، وذو مغار أي صاحب مغار ، وتعرف هذه الطبقة من الحكام بالاذواء او الذوين — وهم كالبارونية او اللوردات في نظام الاقطاع ، ومحافد اليمن كانت كثيرة لكل محفد منها

وكم يقيم في غمدان من الناس

ثلاثة آلاف رجلٍ يا مولاي ما عدا الحامية

فصغر القصر الابيض بل صغرت قصور البلقـــاء وحوران في عيني الملك فقال :

ــ اذن غمدان وحده مدينة من مدن اليمن

نعم وهو من الاعاجيب يا مولاي وتحفة من تحف الدهر

صفه لنا « يا ذو مغار » لان الروايات التي يروونهـا لنا عن هذا القصر لا تصدق

قال : انه يا مولاي قصر كالجبـــل ، لا زيادة في قولي ولا غلوّ ، بناه أليشرح يحصب «من ملوك القرن الاول للميلاد» وجعله عشرين سقفاً « اي عشرين طبقة مثل اعظم ابنية العالم المتمدن اليوم » بين كل سقفين عشر أذرع ، وجعل في اعلاه غرفة أطبق سقفها برخامة واحدة شفافة ، وكان يستلقي على فراشه في تلك الغرفة فيمر به الطائر فيعرف الغراب من الحدأة وهو تحت الرخام .

وفي القصر يامولاي اربعة تماثيل من نحاس مجوّف تمثل اربعة أسود ،

« حكومة مستقلة أشهر هذه المحافد او القصور ، غمدان وتلفم وناعط وصرواح وغيرها البر ، وبقي بعض هذه القصور الى ما بعد القصور الى ما بعد الاسلام وذكره العرب في كتبهم ووصفوه ، وقد تجتمع عدة محافد يتولى شؤونها امير واحد يسمى « قيل » جمعه أقيال ، فلما فتح الحبشان اليمن ابطلوا حكم الاذوء على قدر ما استطاعوا وبقيت لهؤلاء قصورهم واسماؤهم دون ان يبقى لهم حكم او سلطـان ، ومجموع المحافد يسمونه « مخلافاً » وهو كالقضاء عندنا او المحافظة يحكمه « قيل » اي ملك صغير « العرب قبل الاسلام وابن خلدون عن الطبري » .

رجلا الاسد في الدار ورأسه وصدره خارجان من القصر ، وما بين فمه الى مؤخره حركات مدّبرة ، فاذا هبّ الريح فدخلت اجواف الاسود سمع لها زئير كزئير الاسد ، والغرفة العليا التي هي مجلس الملك ، اثنتا عشرة ذراعاً ، ولها اربعة ابواب قبالة الصبا والدبور والشمال والجنوب وعند باب كل منها تمثال من النحاس اذا هبت الريح زأر ، وفيها مقيل من الساج والابنوس وستورٌ لها اجراس اذا ضربت الريح تلك الستور سمعت اصواتها عن بعد ، وفيه يا مولانا أشياء كثيرة لا اعرفها لاصفها لان الذي يقيم في القصر عشرين سنة لا يستطيع ان يلمّ بكل ما فيه

ويلي غمدان بالعظمة والشهرة « قصر ناعط » وهو محفد مؤلف من عدة قصور وهي اقدم من غمدان موقعه على رأس جبل «تنين » بهمدان وضمن قصوره قصر المملكة الكبير الذي يسمى يعرق[1]

وعدّ ذو مغار قصور اليمن وحصونها وقلاعها

الى ان قال :

اما صنعاء يا مولانا فهواؤها طيبٌ وماؤها عذب ، وملكنا أبرهة يفضلها على جميع مدن اليمن ولا يخرج منها الا ليدرس احوال دولته ويخضع المتمردين والعصاة من عماله ورعيته

وهؤلاء العمال ؟ أمن الحبشة هم ام من اليمن ؟

– معظمهم من اذواء اليمن يامولانا ولكن الرقابة شديدة وجواسيس الملك كثيرون ، وابرهة قاسٍ يا مولانا ، قاسٍ جداً الى حد انه يخيف

(١) الهمداني ، وقد شاهد بقايا قصور اليمن وسدّ العرم بنفسه ووصفها وصفاً مطولاً اثبته علماء الآثار الذين زاروا تلك البلاد من الفرنج .

في قسوته، لا يعرف الشفاعات والرجاء ولا يستسلم الى صاحب او رجل من رجاله ، وهو سيء الظن بكل الناس حتى بأولاده وزوجته ، واعداؤه كثيرون ، ولكنهم ضعاف وهو قوي ، وجبناء وهو شجاع جريء ، وحامية قصره يا مولانا الف بني عليهم عشرون رئيساً من الحبشة طوال القامات غلاظ الرقاب ، وهو ملك مسرف يعيش عيش الترف والبذخ ، عنده عشرون فيلًا لا يعلو ظهورها الا هو ، وله المركبات تجرها الخيول او الافيال ، وابراده ومعاطفه التي يلبسها كلها محوكة بالذهب ، كذلك اسيافه وصنوف سلاحه ، وقد أنفق على كنيسته «القليس» التي بناها في صنعاء اموالاً لا تحملها عشرة افيال ، كما اتفق مثلها على ترميم «العرم» الذي هو حياة اليمن

— لقد ساعدناه في ترميم هذا السدّ العظيم وبعثنا اليه من انواع الحبوب ما يوازي نصف غلة طبرية وبيسان ليطعم العمال المشتغلين بالترميم

— اجل يا مولانا وهو يذكر لرجال دولته فضل الحارث بن جبلة

فقال الملك: نحن لم نفعل ذلك ليذكر لنا فضل ، البلاد بلادنا وتهدم سد العرم كان سبباً لهجر آل غسان اليمن ، نحن من اليمن يا ذو مغار ، ولكن لا نعرفها بل لا نعرف من احوالها الا ما نسمعه من وفود العرب

تهدّم «العرم» حوالي تاريخ الميلاد فأصلحت ملوك حمير ما تهدم منه، ثم تهدّم ثانية فرمّوه، وعاد فتهدم فأهملوه حتى جاء ابرهة فأعاده الى ما كان عليه، فاذكر لنا شيئاً عن هذا السدّ[1] الذي كلما تهدم مرة جرف

(١) العرب اول من اصطنع الخزانات وهي الاسداد واعظمها جميعاً سد العرم في مأدب كما تقدم

ماؤه الجبل والسهل وانزل المصائب في اهل البلاد

ـ وماذا اذكر لك عنه يا مولانا ، انه بحر بين جبلين، ولولاه، لولا هذا البحر الفياض لكانت ارض اليمن رمالاً محرقة وجبالها قاحلة جرداء، ان الاسداد كثيرة في اليمن ولكنها لا تذكر جميعها اذا ذكر العرم، فالجبال والسهول في مأرب زاهية زاهرة بالبساتين والغياض والاغراس والرياحين والحنطة والازهار، كلها يسقيها العرم يا مولاه ورجال اليمن اصحاب اقدام وجدّ، انهم لم يدعوا وادياً في البلاد يمكن استثمار جانبيه بالماء الا حجزوا سيله بسدّ، فكثرت الاسداد بتكاثر الاودية حتى تجاوزت المئات « واشار شاعرهم الى اسداد ناحية من نواحي اليمن تدعى «يحصب» بقوله :

«وبالبقعة الخضراء من ارض يحصب   ثمانون سداً تقذف الماء سائلا»

وكل سد يسمونه باسم خاص، او يضيفونه الى البلد الذي يجاوره، فسد العرم يقال له ايضاً سد مأرب ، لانه يجاور هذه المدينة العظيمه التي هي اشهر مدائن اليمن وقد جرف بعض ابنيتها السيل (١)

ثم اخذ ذو مغار يصف ذلك السد او الخزّان بقوله :

في الجنوب الغربي من مأرب، جبال تمتد نحو الشرق الشمالي مئات من الاميال، وبين هذه الجبال اودية تنتهي الى واد كبير «يسميه العرب

---

(١) وتسمى مدينة مأرب ايضاً «سبا» واليها والى سيل العرم اشار القرآن الكريم بقوله ـ لقد كان لسباء في مسكنهم آيـة جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور ، فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم الى آخره ـ

الميزاب الشرقي» هو اعظم اودية الشرق على الاطلاق

فاذا امطرت السماء، انحدر السيل ينساب في تلك الاوديـــة حتى يصبح اخيراً في وادي اذنه «وهو يعلوا عن البحر ١١٠٠ متر» وهناك، قبل الوصول الى مأرب بثلاث ساعات، مضيق بين جبلين يبعد فيه الجبل من الآخر ستمائة ذراع، وبين المضيق ومأرب، في سفحي الجبلين، متسع من الارض مساحته اكثر من ثلاثمائة ميل، كان قبل وجود العرم ارضاً قفاراً، فامسى بعده الموضع الخصيب

فاستلذ الملك حديث اليمني وقال :

اتعرف من بنى السدّ يا ذو مغار ؟

قال : لم يستأثر في بنائه ملك واحد يا مولانا، ولكنهم يقولون ان سمهعلي نيوف بن ذمر علي ملك سبا، هو واضع الحجر الاول فيه وهو الذي بنى الحائط الايسر، ثم خلفـــه ولده يثعمر فبنى الحائط الآخر «وكلاهما من اهل القرن الثامن قبل الميلاد» ثم قام خلفاؤهما فبنى كل منهم جزءاً منه، وهكذا على التوالي حتى تمّ البناء

فقال الملك ؟

وكم يبلغ طول السد ؟

ـــ طول حائطه من الشرق الى الغرب، ثمانمائة ذراع، وعرضه مئة وخمسون، اما علوه فاثنتا عشرة ذراعاً، وكل ما في السد يدعو الى العجب يا مولانا، فلو رايت وادي اذنه، ذلك الوادي العظيم الذي لا تملأ جوفه جبال اليمن، لحسبته بحراً، ولكنه هادي لا تتلاطم امواجه ولا يهيج، ولرايت الجبال الجبارة تغمس اقدامها في ذلك البحر وترفع رؤوسها الى

السحاب، انه لاثر ينطق بحكمة بانيه وعظمته، فاليمن مثل معظم بلاد العرب لا انهار فيها ولا مياه، ولا حيلة لاهلها في الاستقاء الا بمياه المطر يجمعونها حتى اذا زادت عن حاجتهم تغلغلت في الرمال وذهبت ضياعاً، وقد تفيض السيول في الشتاء فتجرف المدن والقرى، فاذا انقضى فصل الشتاء جفت الاغراس وظمىء القوم، فعمدوا الى بنــــاء الاسداد في الاودية لترتفع المياه الى سفوح الجبال فترتوي ارضهم من الجانبين، هكذا بنى ملوك سبا العرم يا مولانا، بنوه في عرض الوادي كالسور العظيم يقف في طريق السيل كالجبـــل المستعرض ويصده عن الجري، فتجتمع مياهه وترتفع حتى يمتلىء ذلك الوادي ماء، فاذا جاء الصيف، اخذ القوم حاجتهم من ذلك الماء، من منافـــذ تنفرج داخل العرم ثم تضيق خارجه، يسقون به سفحي الجبلين والسهول الواسعة على الجانبين.

– مثلك من يصف بلاده وقومه ياذو مغار، ولكن ليس في كل ما ذكرت وجه للغرابة لان عندنا – في بعلبك وتدمر – هياكل وقصوراً تنحني امام عظمتها وفنها رؤوس اولئك الملوك الذين تركوا في ممالكهم آثارهم الخالدة، ان الدول ايها اليمني، لتستطيع على مر الزمان ان تشيد قصوراً اعظم من غمدان وتبني اسداداً اكبر من العرم، غير ان وجه الغرابة، هو ان البناء مهما عرض واستطال لا يقدر ان يصدّ السيل المنحدر بقوته وسرعته من اعالي الجبال، على المرور واذا صدّه يوماً زعزعه السيل في اليوم الثاني، فكيف ثبت العرم في موقفه كل هذا الزمان، وما هو السر الذي جعل ذلك السدّ العظيم يتماسك بناؤه حتى ليهزأ بالسيل القوي الذي يجرف المدن ويزعزع الجبال ؟؟

قال : ان ذلك البناء العظيم الذي يصد الماء عن الجري ، مسندٌ الى حائطٍ آخر لا يقل عنه ضخامة وقوة وطرفاه مسنـــدان الى عضادتين ترتفعان ارتفاع الحائطين اي اثنتي عشر ذراعاً ، والعـارفون يقولون يا مولانا انالذين بنوا أسس العرم ذوبوا النحاس والرصاص بين كل حجر وكل جدار حتى اصبحت الجـدُر قطعة واحدة لا ينفذها الماء ، يثبت ذلك يا مولانا ان ملكنا ابرهة فعل مثل ذلـكِ عند الترميم فذوّب من الرصاص والنحاس ما يملأ قصر غمدان(١)

ولكن الملك اكتفى بما ذكره الرجل عن قصور اليمن واسدادها فتناول الرسالة وقال :

ما رأيك في هذه الرسالة ياذو مغار ؟

– ليس لي في ذلك رأي يا مولانا

– قال : أترى مولاك يريد ان ينفرّ عرب الحجاز فيقوّض اركان عرشه ؟ اسمعوا ايها القوم ، ان ابرهة يخبرنا في رسالته انه سيهاجم مكة ويهدم الكعبة بيت العرب .

فقال ولي العهد : وهل يدعو الى نصرته يا مولاي ؟

– لا يا بني ولكنه اراد ان يشرّفنا بثقته فاطلعنـا على قصده ، هو يسألنا في رسالته ان نقبل هداياه وفي الوقت نفســه يقول انه سيهدم الكعبة ، خذ الرسالة فاقرأها

---

(١) كل ما قيل عن السدّ ذكره الهمداني واثبته المستشرق الفرنسي أرنو الذي زار مأرب سنة ١٨٤٣ والذي وافقه في قوله هاليفي وغلازر سنة ١٨٧٤ وعثروا في اثناء ذلكعلى نقوش كتابية في خرائب السدّ تحققوا بها خبره «العرب قبل الاسلام»

فتناولها المنذر فقرأها ثم قال :

لا اظن ابرهة يحارب لاجل هدم الكعبة وحده ، ولذلك سبب يعرفه ذو مغار لانه من خاصته والمقربين اليه

قال الملك : ايطمع مولاك بالحجاز ياذو مغار ؟

ـ لا يا مولانا ولكنه يريد ان يجعل كنيسته القليس بيتاً للعرب يحجونه كما يحجّون البيت الحرام

فأظهر الملك الاستغراب قائلًا : ومن نفحه بهذا الرأي ؟

ـ الرأي رأيه يا مولانا وافقه فيه ابناء جنسه الحبشان الذين يلتفون حوله ، كان يقول دائماً ، لاجعلن القليس بيتاً للعرب ، ولم يكن لهرأي في هدم الكعبة ، غير ان العربان تناقلوا قوله هذا ، فغضبوا لبيتهم ، وقدم منهم رجل من بني فقيم فنجس القليس بالاقذار وعاد الى بني قومه ، فلما علم ابرهة ثار ثائره وحلف ليهدمنّ كعبتهم ، ثم بعثنا نحمل اليك يا مولانا رسالته التي قرأت

فقال جبلة لابيه : ومن هو القائم بأمر الكعبة يا مولاي ؟

ـ عبد المطلب بن هاشم الذي هو كبير قريش(١) والكعبة يحترمها معظم العرب الاحترام كله لانها هيكل عبادتهم ومقر الهبل صنمهم الاعظم،واني لا اذكر اسم الرجل الذي ادخل الوثنية على عرب الحجاز، ولكني اذكر انه من بني خزاعة من عرب اليمن،اتذكر اسمه ياذو مغار .

فقال رفيقه يحصب وكان ساكتاً :

اسمه عمر بن لحي يا مولاي

(١) هو جدّ النبي العربي الكريم

قال جبلة : الا يستطيع عبد المطلب بن هاشم ان يدافع عن البيت؟

ـ لا يا بني فليس عنده من الجند ما يستطيع معه الدفاع ، ولكن أبرهة لا يستفيد من هدم الكعبة الا بغض العرب ونقمتهم وغضبهم لبيت اصنامهم ، ثم يدسون الدسائس حول عرشه فيحطمون العرش ، ومع ذلك فليفعل ما هو فاعل ، ان مكة بعيدة عنا لا مصلحة لنا فيها ، واليمن بلاده وامرها بيده ، فليهدم الكعبة وليحطم اصنامها ، ولتقوّض العرب اركان العرش اليمني وليحطموه ، ان ملك البلقاء وحوران عنده من المتاعب ما يكفيه

وكأنه ذكر عندئذٍ ان قبائل نجد تحج مكة في كل عام وتعظّم امر الكعبة فلم يشأ اغضابها بما يظهره من العطف على القضية ، كما انه لم يشأ ان يبعث الى أبرهة بهدايا جديدة لئلا تعرف نجد

فقال للبيد بن عمرو :

اكتب يا ابن العم كتاب شكر الى صاحبنا أبرهة

ثم التفت الى الرجلين وقال :

وانتما ، اقدمتما من اليمن على الخيل ام على الجمال ؟

فقال ذو مغار : على الجمال يا مولاي

فقال لابن سلمة :

أعطهما بعيرين للركوب يا ابن سلمة وبعيراً يحمل الماء والزاد ، وانت يا لبيد قلدهما سيفين واعطهما عشر بدر من المال

ثم قال لهما : امكثا عندنا خمسة ايام لتستريحا ، وقولا لمولاكما ان

الحارث بن جبلة يدعو له بالتوفيق والنصر ، خذهما يا ابن سلمة ، وان كنت انزلتهما في بيوت الاضياف فانقلهما الى المنزل الذي نستقبل فيه امراء العرب والروم ، وفي هذه الليلة ياذو مغار تشربان معنا وتأكلان على مائدتنا .. أهلاً باذواء اليمن واشرافها .. ومرحباً برسولي أبرهة وصاحبي سره .. ولكن .. هل مررتما بنجد ؟

فقال يحصب : لا يا مولانا ، وماذا نفعل في نجد وهي تضمر العداء لليمن .

- ولمن تحفظ الولاء ؟ ؟

- لا احسبها تحفظ الولاء لاحد، كما انها لا تثبت على حال ، فلا نكاد نراها خاضعة لليمن حتى نراها رعية لبني لخم،ثم تملهم فتحشد السلاح وتعود الى الاستقلال ، وعندما لا تجد قبائلها من تحاربه وتغزوه ، يعمد بعضها الى تقتيل البعض الاخر بسبب ناقة او فرس او فتاة ، والاغرب من كل ذلك يا مولانا ، ان اهلها ينقسمون دائماً على انفسهم فترى هذا الفريق يؤيد اللخميين ويخضع لسلطانهم والفريق الاخر يشهر عليهم الحرب

- سمعنا اليوم انهم يتقاتلون

- ومتى كان الصلح والسلام يخيمان في نجد ؟ القتال دائم والسيوف لا تعرف الاغماد

فقال الملك في نفسه :

ذلك رأي جميع النـــاس في تلك البقعة الكبيرة من الارض التي يسمونها نجداً

ثم اومأ الى جلسائه قائلاً :

– انصرفوا انتم عنا وابق يا لبيد

فلما اختليا ، طرح على لبيد الرسالة وقال :

يظهر ان هـذا الحبشي داهية في السياسة يا لبيد ، فليس لليمن علاقة بحوران ولم نكن حلفاء هذا الملك واعوانه في حروبه ، افلا ترى ان وراء رسالته غرضاً يريدان يقضيه فيمثل هذا الاسلوب الجذاب الناعم ؟

وكان الملك يثق بلبيد كل الثقة ، فقال لبيد :

نعم يا مولا واحسب اني عرفت هذا الغرض

– وما هو ؟

– هو انه يرغب في نيل عطف الملك على قضيته فيأمن على نفسه

– اصبت وهذا هو رأينا يا ابن العم، ولكن اتراه ينال عطف ابن ماء السماء على هذه القضية و معظم القبائل التي تخضع لهذا الملك تحج الكعبة وتحترم « الهبل » صنمها الاكبر ؟

– لينل عطفه يا مولاي ففي نيل هذا العطف مصلحة عرشك ، ان العرب يثور ثائرهم كما تعلم لأقل الاشياء ، فاذا رأوا ابن ماء السماء على أبرهة هادم كعبتهم ومحطم اصنامهم تبرأوا منه ثم قاتلوه فيكونون في ذلك اعواناً لنا من حيث لا يريدون ولا يعلمون،لقد احسنت يا مولاي في كتاب الشكر الى ابرهة وسكوتك عن امر الكعبة فموقف الحارث بن جبلة هو غير موقف المنذر ملك الحـيرة اولئك قومه فليدافع عن كعبتهم او فليجار ابرهة في هواه، اما نحن فعلى الحياد في كل معناه ، لا نظر العداء لملك اليمن ولا نجارية في امره ، وعلى كل حال ، اذا جاز لنا – في سبيل التوسيع والنفوذ – ان نقاتل ابناء جنسنا العرب ، فلا يجوز

وليس من مصلحتنا - وان اختلفت الاديان - ان نشهر السيف على عربي خدمة لاولئك الحبشان الذين لا تربطنا بهم رابطة صحبة او رابطة جنس ، ولا تجمعنا بهم بلادٌ ولغة وعادات ، وليس لنا مطمعٌ باليمن يا مولاي كما ان ملككها لا يطمع بحوران ، غاية ما هنالك ان يبقى هذا الحبشي صاحبنا كما نحن اصحابه وان ندافع عن العنصر العربي عندما نرى ان مصلحة العرش تقتضي ذلك الدفاع

فقال الملكِ : لقد تشابهت افكارنا يا لبيد فكأننا اتفقنا من قبل على هذا الرأي ، وسنعرف بعد قليل ماذا يحدث بين قريش وبين ابرهة من رسولنا الى الحيرة ونجد عامر بن زهير ، وكيف رأيت بني جناب يا ابن العم ؟

- : رأيتهم اهلاً لثقة الملك واحسانه ، وانا اعترف لك يا مولاي اني لا احب قيس بن ثابت لاني رأيته يبغض كل الناس ولا يحبّ الا ذلك المنافق ثعلبة بن هنب

- : احذر ان يدبّ في صدرك الحسد يا ابن العم ...

- : ولاي سبب يا مولاي ؟

- : لوجود ابن هنب في وظيفة القيادة .

- : ولكني لا اعترف بقيادته يا مولاي ولا اعرف لي في الحرب قائداً الا الملك او ولي العهد ، اما الحسد فابن عم الملك لا يعرفه ، وسليل آل غسان المتمتع برضى مليكه لا يحسد عبده ، أتراني في الحرب يا مولاي اقاتل الى جانب ثعلبة ام الى جانب الملك ؟ وهل يجرؤ هذا الماكر ان يوجه اليّ في ساحة القتال كلاماً او يصدر امراً ؟؟ والله

لاصفعنه اذا فعل امام الجنود ولو غضبت لكرامته عشيرته وقومه

فابتسم الملك وقال :

سليل الملوك لا يقدم على امر هو منتهى الجنون، أفهمت ، ان ثعلبة هو قائد الجيش الاكبر بعد الملك

فتراجع لبيد الى الوراء وقال :

وولي العهد يا مولاي ؟؟

فتابع الملك حديثه قائلاً :

ولكنه القائد الاكبر بالاسم فقط يا ابن العم ، كذلك سيكون ثعلبة سيد القوم في يوم « الجمار » المقبل ، وسيتولى عنك في ذلك اليوم ادارة الشؤون

فبغت لبيد وقال :

وماذا ابقيت لابن عمك يا مولاي ؟

ـ : أبقينا له رضى ابن عمه الملك

فقال : حسبي هذا الرضى يا مولاي ولكن ذلك كثير ...

ـ : اجل، والملك يريد بهذا الكثير ان يختبر اخلاص الرجل وصدقه

ثم قص عليه حديثه مع ثعلبة بحضور ولي العهد

فاطرق لبيد ساعة ، ثم رفع رأسه واخفض صوته قائلاً :

ـ : إذن فاسمح لي انقل اليك حديثاً سمعته وكنت احب كتمانه

ـ : وماذا سمعت ؟

ـ : سمعت احدهم يقول لثعلبة بن هنب « ان الملك لا يحبك »

فبدت على وجه الملك دلائل الغضب وقال :

ذلك قول خائن غام فمن هو ؟

فاستطرد لبيد قائلاً : وسمعته يروي له حديثك مع ولي العهد ثم دعاه ليقابلك ، وانت تقول الآن انك انعمته برتبة القيادة الكبرى ...

— : ان حاجبنا الخاص هو الذي بعثناه ليدعو ثعلبة

فابتسم لبيد وقال: وهو نفسه الخائن الذي اعاد حديثك على ابن هنب.

فتمتم الملك قائلاً حاجبنا خائن ..!

وهل تقيم الخيانة ببابنا كل هذا الزمان ونحن لا ندري ؟!

ثم صفق بيديه فاقبل الحاجب ، ففاجأه بقوله :

سمعنا عنك اشياء لا نصدقها الا اذا اعترفت بها انت ، أفتقول الحقيقة ام مــاذا ؟

فارتجفت اعصاب ذلك الخائن من الخوف وتلعثم لسانه

فاسند الملك رأسه بيده وقال له :

قل لنا ولا تعمد الى الكذب ، أتروي للناس الاحاديث التي يحدث بها الملك رجاله وخاصته ؟

فبلغ من تأثير الملك في حاشيته وخدمه ان ذلــــك الحاجب اجاب قائلاً : نعم يا مولاي

— ولماذا تفعل ذلك وأنت حافظ بابنا والامين على أسرارنا ؟

فلم يجب

فأعاد الملك عليه السؤال ولكنه لم يسمع جواباً

فقال لابن عمه :

خذ سيفه يا لبيد

فأخذ لبيد السيف ووضعه أمام قدمي الملك

فقال الملك للحاجب :

قل لنديمنا زهير ان يبعث الينـــا ولده قيساً وارجع انت معه ، اذهب حالاً

فذهب الحاجب ثم عاد وقيس وراءه

فقال الملك لقيس :

دعوناك لنحسن اليك احساناً آخر

قال : لقد غمرنا مولانا الملك باحسانه

ـ وأنتم أهلٌ لذلك ، لقد جعلنـاك وجعلنا عاصم بن ثعلبة حاجبين لنا تتناوبان على الحجابة كل اسبوع ، واعلم يا قيس ، ، انه لا يدخـل احدٌ على الملك بدون اذنه الا أختنا الاميرة كوكب ، اما انجالنا فيستأذنون ، وانه لا يجوز ان يعـلم احدٌ ما يدور من الاحاديث بين الملك وبين زائريه ، الامانة قبل كل شيء .. ويجب ان يكون سلاحك الوحيد الصدق والاخلاص فنحن لا نقيم الحجاب عـلى ابوابنا ليحفظوا حياتنا بل لينفذوا أوامرنا ويصدقوا في طاعتنا ، ان الملك الذي لا يخاف الموت في ساحة القتال لا يخافه وهو في قصره

ثم أومأ الى حاجبه الخائن وتابع حديثه قائلا :

أتعلم يا قيس لماذا عزلنا هذا الرجل عن الحجابة ؟

ـ لا يا مولاي

ـ لانه خان مولاه وباح للناس باسرار القصر

ثم تناول السيف وقال للبيد :

فلدّه السيف يا لبيد ودّله على غرفته الجديدة
فأخذ لبيد السيف وقبّله ثم ردّ حمالته الى كتف ابن زهير
فجثا قيس على ركبتيه أمام الملك وقال :
اقسم برأسك ورأس ابي يا مولاي اني لا أجرد هـــذا السيف الا في طاعتك
قال هذا ومشى الى موقفه عند الباب وهو يقول :
لقد أصبحت حاجب الملك منذ الان
فهمس الملك في اذن لبيد قائلًا :
كل حركة من حركات هؤلاء القوم تدل على عظمة وادب
ثم تغيرت لهجته وقال لحاجبه :
اتعرف جزاء الخائنين وتخون ؟ ؟
فقال : ولكني مغفلٌ يا مولاي وقد وسوس لي الشيطان
ـ اتبوح باسرارنا لكل الناس ام لثعلبة بن هنب وحده ..
فأراد ذلك الخائن ان يخلّص ثعلبة فقال :
ابوح بها لكل الناس يا مولاي عند اعتقادي انها ليست أسراراً
اذن ليس لك في الخيانة شريك معلوم
ـ لا يا مولاي ولكني طويل اللسان فقط ..
ـ حسناً وكان علينا ان نجعله قصيراً قبل الان ... ومع ذلـــك فعندنا لهذا الداء دواء .. لقد غرّك ايها اللعين حلم الملـــك وعفوه عن الغرباء فحسبت اننا نعفو عن المقربين والخاصة الذين يعيشون من احسان الملك ويخونونه .. تقول انك طويل اللسان ، ولكن الملـك يعلم انك

كثير الطمع حتى ان المال الذي يجود عليك به مولاك لا يكفيك ، لتمتع بمال شركائك ، واحفظه لبنيك من بعدك ارثاً ثميناً يطلعهم على خيانتك ، ولكن يجب ان تعلم قبل ان تنصرف الان ، ان الملك سيكون اباً لاولادك لانك ستموت . وكم هم اولادك ايها اللعين ؟

فارتخت ركبتا ذلك الشقي ووقع على الارض وهو يقول

بنتان يا مولاي لا معين لهما

— وكم لهما من العمر ؟

— : الكبرى بنت احدى عشرة سنة والثانية لم تبلغ التسع

: اذن فهما تصلحان للخدمة في القصر ، اجعلهما يا لبيد خادمتين لحليمة وسفانة ، واعط امهما زوجة هذا الخائن بدرة فيها الف درهم كل شهر ، اجعل ذلك ديناً لها على بيت المال ما دامت حية ، اما البنتان فاذا نهجتا منهاج ابيهما فالويل لهما ، وخذ هذا الخائن فاقتله لان كل من يخون الملك من حاشيته ورجاله يجب أن يموت

ومشى الملك يريد الذهاب

فتردد لبيد في تنفيذ الامر وهو يحسب ان الملك سيعفو عن الرجل . فالتفت اليه الملك واعاد قوله بلهجة رصينة هادئة كالقاضي يلفظ حكم الاعدام قائلاً : نفذ حكم الموت الليلة بهذا الرجل ولا تتردد

ثم قال : ولكن موته يجب ان يبقى من الاسرار

فاراد لبيد ان يقنع الملك بالعدول عن عزمه فقال :

مولاي أتأذن لي في القول ؟

— : قل

— : نحّ هذا الرجل عن القصر وابقِ حياته

— : ولكنه خان الملك وهو في قصره أتراه يـــترك الخيانة وهو بين النـــاس ؟

— : ارسله يا مولاي الى فلسطين ، او الى دمشق ، او الى بيروت، وليقم هناك حتى تحضر ساعته، افعل ذلك رحمةً بولديه يا مولاي وليكن حلمك أوسع من ذنبه .

ولكن الملك قاطعه قائلاً :

« الافعى السامة لا تحمل في جراب » خذه فاقتله فالملك كفيل ابنتيه ولا نريد ان يطلع فجر اليوم الثاني وهو حيّ .

وخرج الملك واغلق الباب وراءه

فأغمي على الرجل

فنادى لبيد قيساً وقال له :

ساعدني على حمله الى غرفته

فنقلاه الى الغرفة ولبيد يقول :

ليته يموت الآن فلا يتعذب

ثم قال : كن حارساً له يا قيس حتى يجيء الليل ...

• • •

وأصبح القوم في اليوم الثاني وهم يرون على باب الملك حاجباً جديداً فاستغربوا الامر ولكن لم يجسروا على السؤال

وخاف قيس بن ثابت وثعلبة بن هنب خوفاً شديداً

ولكن الملك كان يبسم لهما على عادته

واشاع لبيد ان الملك اوفد حاجبه بمهمةٍ خـاصة الى يوستنيان ملك الروم، وان قيس بن زهير وعاصم بن ثعلبة يقومان بالحجابة حتى يعود

فصدّق القوم الا ثعلبة فظل خائفاً

ومنذ ذلك الحين ، لم يرَ الناس لذلك الحاجب الشقي وجهاً ...

- ٢٤ -

عند ما قابل ثعلبة ولده عاصماً قال له :

لقد جعلك الملك مرافقه الخاص وأذن لك ان تحمل السيف في مجلسه، فأذهب واشكر مولاك على هذه النعمة

وكان عاصم قد عرف ذلك من ولي العهد ، فقال لابيه :

أليس لك حديث غير الملك ؟

فقال : لا ، ففرامي به يبلغ حد الجنون

ـ : ولكنك تلعب بالنار وسيؤدي بك هذا اللعب الى الهلاك

ـ : اصبت فذلك يدعو الى الخوف لو لم تكن من المقربين

ـ : وما معنى ذلك ؟

ـ : معناه انك تشفع لي عند الملك اذا هو أراد ان يرسلني الى حيث أرسل حاجبه المسكين

ـ : اذن انت لا تريد أن يوليك الملك ثقته فيجعلك رسوله في المهمات

ـ : بلى على شرطان يبعثني الى بلد قريب لاني لا احب السفر الشاق

ـ وهل تبعد القسطنطينية كثيراً عن حوران ؟

فابتسم ثعلبة ابتسامة الصفراء وقال :

ولماذا تسأل هذا السؤال ؟

ـ : لان سعداً حاجب الملك سافر اليها

فضحك حتي بدت نواجذه وقال :

اسكت ايها المغفل فالموضع الذي أرسلوا اليه ذلك التعيس ابعدمماتظن

ـ : واين يقيم ملك الروم؟

واي دخل لملك الروم في بعثة سعد ؟

ـ : لان سعداً يحمل اليه كتاباً من الملك

ـ : بل يحمل في صدره تذكارات مؤلمة ينقلها الى ملك أعظم من يوستنيان ويشكو اليه ظلم الحارث بن جبلة ..

ـ ومن هو هذا الملك ؟

ـ : هو خالق هذا العالم الذي يدين الملوك

فاصفرّ وجه عاصم وقال :

أمات سعد ؟

فقال : لم يمت حتف أنفه ايها الابله ولكنهم قتلوه .. أفهمت الان ؟

ـ : ومن قتله ؟

ـ : قتله الملك ، فحكم الموت تقذف به شفتـــاه المقدستان وتنفذه أيدي الجلادين وما أكثرهم في قصره

فتمتم عاصم يقول :

أُقتل ذلك المسكين سعد ، ولماذا قتلوه ؟

ـ : لماذا ؟! لان ابن جبلة يقتل الناس لرغبته في القتل

ـ ولكن أخفض صوتك يا ابي فأنت تلوم الملك

فتنهد ثعلبة تنهداً طويلاً وقال :

أجل، فالصوت الذي يرتفع في لوم الملك يختنق في صدر صاحبه... للملك أن يسلبنا ارواحنا واموالنا وعلى الرعية ان تسكت صاغرة، أليس كذلك ؟

– ولكنه لا يقتل الا الخائنين...

وفي أي شيء خانه سعد .

– اما أسباب الخيانة لدى الحجاب فكثيرة جداً، يخون الحاجب مولاه بافشاء سره، او بالافساد بينه وبين خاصته، بل قد يخونه بأن يشارك المتآمرين على العرش... ومن يعلم، فقد يكون سعد من صف المتآمرين...

– اراك عدت الى ذكر المؤآمرات يا بني، أنسيت انك وسليمى من جملة المتآمرين ؟

فعاد عاصم الى نفسه وقال :

لم انسَ شيئاً يا ابي ولكني حسبت ان احسان الملك اليك غيّر رايك في الامر

فهزّ ثعلبه رأسه قائلاً :

اما ذلك الاحسان فغريب في بابه... ومع ذلك فلو ألبسني الملك تاج ملكه فأنا خصمه، والان قل لي: أليس الحاجب الجديد من اصحابك؟

– بلى فالنديم وولداه اصحاب لي

– وسفانة ألست تعرفها ؟

– ومن يجهل سفانة ياابي وهي لؤلؤة القصر الابيض واميرة الحسان !

ـ وخطيبة المنذر اليوم وصاحبة الامر غداً !... اما والله لا ادع هذه البدوية تختلس التاج ولو ذبحوا بني هنب واحداً واحداً امام عيني.. وكيف يقضي حاجب الملك وقته ؟

ـ يقضيه واقفاً كالصنم لا يرفع يداً ولا ينقل قدماً الا بامر مولاه

ـ ولكنه يستطيع على الاقل ان يطلعنا على موعد سفر اخيه

ـ وكيف يعرف هذا الموعد؟

ـ ان الحجاب يسمعون، اذا شاءوا، كل ما يدور من الاحاديث في قاعات الجلوس وحجرات الملك، وهب انه لم يسمع فأخوه عامر يخبره بذلك

ـ اذا كان الحاجب يسمع كل ما يقال عند الملك فلسنا بحاجة الى بني جناب.. وهل كان سعد ينقل اليك اسرار مولاه ؟

ـ نعم وهذا هو ذنبه على ما اظن

ـ اذن فانا اقوم مقام سعد في نقل الاحاديث

ـ وكيف ذلك ؟

ـ الا تعلم ان الملك جعلني وجعل قيساً حاجبين له نتناوب على حجابة بابه

فوثب ثعلبة وضمّ ولده الى صدره وقال :

اتقول الجدّ يا عاصم ؟

فحاول ذلك الفتى الهادىء الرصين ان يبتسم لابيه فلم تظهر الابتسامة على ثغره

فاجاب قائلاً: نعم اقول الجدّ وقد ابلغ اليّ امر الملك لبيد بن عمرو

– اذن فأنت حاجب الملك في القصر ومرافقه خارج القصر ؟

– ولكن لبيداً يقول ان امر هذه الحجابة لا يطول

ولماذا ؟

– لاننا نقوم مقام سعد حتى يعود

– ولكن ذلك المسكين لن يعود

قال : اراك تقول ذلك وانت واثق يا ابي

– اجل فقد عيّنوا من بيت المال لزوجة سعد، بدرة فيهـــا الف درهم كل شهر

– وهذا معناه انها تتناول هذا المعاش ما زال زوجها غائباً

فعاد ثعلبة الى الضحك وقال :

اما الحارث فأبوك يعرفه اكثر مما تعرفه يا بني، ولماذا جعلوا طفلتي سعد خادمتين لحليمة وسفانة؟ الآن اباهمـــا في سفر؟ لا، ولكن الملك قتله ثم اراد من جهة اخرى، تكفيراً عن ذنبه، ان يضمن مستقبل الزوجة والطفلتين ومع ذلك فبنو سعد احق منا بالغضب لقتيلهم فهم اخوال الملك وسعدٌ منهم فليفعلوا ما يريدون... ومتى يجيء دورك في الحجابة ؟

– اسبوع لي واسبوع لقيس، هكذا قال لي لبيد وانا لم اقابل الملك بعد، الا تزال مصراً على تنفيذ خطتك الاولى ؟

– وزادني قتل سعد اصراراً على ذلك

– واذا عدل الملك عن ارسال ابن زهير؟

ـ ننظر عندئذٍ في تدبير آخر، فانتبه انت لموعد السفر وهذا كل ما اريده منك

فقال عاصم في نفسه :

أجل وسأكون اكثر انتباهاً من ذي قبل ، لان هذا الموعد هو الذي تسعى سليمى لمعرفته

وودّع أباه وخرج قاصداً سليمى

• • •

واخبر عاصم اخته بكل ما جرى له ولابيه

ثم قال :

اما الآن فقد تغيرت الحال وأعتقد ان أبي صـــادق فيما ذكره عن لمثل سعد .

فقالت : انا من رأيك فيظهر ان الملك أحسّ بالمؤآمرة

ـ : لو كان ذلك صحيحاً لما ترك بقية المتآمرين

ـ : من يعلم فالملك سياسة لا تدركها العقول ، وعلى كل حال فو الدنا ماض في عمله والفضيحة لا بدّ منها ، فالويل لنـا من يوم يعرف فيه الملك خيانة رجاله

: وما حيلتنا يا سليمى وقلب ابيك كالصخر الاصمّ لا يسمع ولا يرى ؟ انه ، كلما زدناه رجاءً ، يزداد اصراراً على تنفيذ غايتـه ، فليفعل اذن ما يشاء ونحن نعمل من جهة اخرى على احباط مسعاه ، وما رأيك يا عامر ؟ أنطلع والدنا على موعد سفره

— : نعم ، وليس في ذلك خيانة للملك، ولكن ، لا تنس ان تخبرني به في حينه لان على هذا الموعد وحده يتوقف النجاح

وقبل ان ينصرف عاصم ، همس في اذن اخته قائلاً .

— : ألا تزالين تفكرين في ولي العهد يا سليمى وتتعللين بالبكاء ؟

فأبتسمت تلك الفتاة الباسلة ابتسامة الفوز وقالت .

اما الآن فقد انتهى دور الغرام وجاء دور الواجب .

- ٢٥ -

الصيد في الحراء

وأعد العبيد والغلمان ، الحراب والسهام للصيد

وكان الليل الماضي قد انطوى ، وانطوت معه تحت الثرى ، في ذلك الظلام جثة ذلك الحاجب المنكود الحظ ، وولي العهد ورفاقه لا يعلمون شيئاً .

وعند الصباح مشى موكب الصيد الى ضواحي الحراء حيث تكثر السباع وحُمرُ الوحش والغزلان

أما أمير الصيد فهو المنذر أبو كرب ، واما الموكب فهو مؤلف من حليمة وسفانة وليلى وعامر بن زهير وجفال بن سلمة ، كل منهم على فرسه ، وخلف كل فارسٍ حرابه وجعبة سهامه

وستة جمال تحمل الخيام والزاد والماء ، يسوقها أربعة من العبيد ، ووراءهم فتىً في الثامنة عشرة من عمره يركب حماراً خلف قطيع صغير من الغنم .

الطريق طويل متعب ولكنه كان في نظر المنذر وسفانة ، اقصر من ليل العاشقين ، وركوب الخيل في مثل هـذا السفر الشاق ، ألذّ عندهما من الاستلقاء على وسائد الحرير في قبة من قباب القصر الابيض

كانا يتحادثان وفرساهما النعامة والخطاف ، يمشيان جنباً الى جنب ، وذلك الفتى الظريف الهزال ، جفـال بن سلمة ، يطرب القوم باحاديثه المضحكة ويسمعهم اقاصيص الحب ..

وكانوا ، كلما مشوا مرحلة ، انفرج السهـــل امامهم وانبسط حتى انصف النهار وتعبت الخيل .

فقالت حليمة :

متى نستريح يا ابا كرب ؟

ولكن الامير ، في سكرته التي تشبه الذهول ، لم يكن ينتبه لمـا يقال حوله .

فقال ابن سلمة :

اعذريه يا مولاتي فهو غائب عن الوجود ...

فحدجه الامير ببصره وقال له :

ولكننا نسمع ما تقوله يا خبيث

ثم ادار وجهه وعاد الى حديثه

فقال جفال للاميرة :

أتريدين ان يستفيق الامير من غفلته ؟

قالت نعم ولكن أخشى ان ينقلب مزاحه الى غضب

فقال لها : اما انا فلا أخاف

ثم صاح بصوتٍ عالٍ . يا مولانا الامـــير ، ان المسكين ابن سلمة لقد جاع ...

فارتفعت أصوات القوم بالضحك ، أما الامير فلم يجب

فأعاد ابن سلمة النداء قائلًا :

اشفق على رفاقك يا وليّ العهد ..

فظل الامير ساكتاً

فتنهد ابن سلمة وقال :

وماذا يهمّ ولي العهد ان جاع رفاقه ؟ ان العـاشقين لا يخافون الله .

فضحك المنذر وقال :

انك لست جائعاً يا خبيث ولكنك عطشان الى الخمر

ــ : اصبت يا مولاي فأنت سيد الامراء

ــ : كما انك سيد السكارى يا صاحبنا العزيز

فالتفت ابن سلمة الى حليمة وقـال : كلانا سكران يا مولاي وقد اقلقنا الآن ...

• • •

في ذلك الموضع الذي يسمونـــه بئر الجن ، نصب القوم خيامهم وقضوا ليلتهم .

وعلى كثيبٍ من الرمل ، مشرفٍ على ذلـك السهل جلس الحبيبان يتشاكيان الهوى ويتعاهدان على الوفاء من جديد

وكانت عينا سفانة شاردتين في ذلك الفضاء اللابس حلته السوداء

فقال لها المنذر :

لقد قرب موعد زواجنا أيتها الحبيبة ،

فنظرت اليه بعينين دامعتين وقالت : ولكني خائفة ايها الحبيب .

— : وأي شيءٍ تخافين

— : أن يخلق الله ما يمنع هذا الزواج

فابتسم الامير قائلًا: ان أبي الملك جعل موعده بعد شهر على الاكثر أي قبل انتقال بلاطـــه الى بصرى ، فلم يبقَ من سبيل الى الخوف ، هكذا قال لي عندما استأذنته في المجيء الى الحراء ، وهو يريد أن يتم الزواج على أثر يوم السباق ليشهده الامراء والاعيـــان المدعوون في ذلك اليوم .

— : ومتى يسافر عامر ؟

— : يحضر السباق وحفلة الزواج ثم يسافر بعد ذلك ، وأنت ياسفانة ستحضرين السباق وتلعبين مع اللاعبين ، وانا واثقٌ انـك ستسبقين نساء القصر وتفوزين بالرمي والركوب فيقول الناس ان عروس المنذر سيدة الفرسان وأميرة الخيل

— : وكيف تستطيع الفتاة الضعيفـــة القوى ان تجاري في ذلك اليوم أبطال الدولة وفرسانها المجربين ؟

— : ان الحب يقوي الضعفاء يا سفانة

— : وان لم أفز ؟

— : تبقين في نظري تلك الفتاة الفتانة التي يفديها ولي العهد بدمه

— : ولكن الملك يستصغر هذه الفتاة التي فضلتّها على فتيات غسان

ـ : لا تخافي ايتهـــا الحبيبة فكوكب اخت الملك لا تفوز دائماً في السباق ومع ذلك فقواد الجيش يشهدون لها بالقوة ، كذلك حليمة اختي التي هي سيدة نساء غسان تخوض المجال كل عـــام ولا تبالي أتخسر ام تفوز ، فلتكن عروس المنذر مثل عمته واخته لا تهتم الفوز او الفشل في سباق تشارك فيه بنات الاشراف في الدولة ، فتشدّدي يا سفانة واعلمي ان المرأة التي ستنحني لها رؤوس القوم بعد ايام ، يجب ان تهزأ بالصعاب وتكون في عظمة نفسها قدوة للرجال والنساء

وكانت روح سفانة في ذلك الحين ، تسبح في سماء الخيال ، كأنها ترى من خلال اشباح الظلام ذلك الشقاء الذي يكتنف حياة المحبين

انها لم تكن تكترث للساق تكثر ادواره وتشترك فيه رجال الحرب، ولكنها كانت تخاف شيئاً واحداً ينقبض صدرها كلما فكرّت فيه ، هو ان الملك قد يغيّر رأيه فيها اذا هي خسرت في الميدان فلا تزفّ الى ذلك الحبيب الذي تربط حياتها بحياته،عاطفة حب لا تؤثر فيها صروف الزمان

اجل ، كان الملك وحده قادراً ان يمنع هذا الزواج ، وكانت نفسها الكبيرة الهادئة ، تعرف ان الملوك لا يطول رضاهم ولا تثبت اقوالهم

فقالت وهي تبتسم :

لو كنت ولية العهد لما كنت اخشى هذا السباق ولو جعله الملك على صفحات الفضاء.ولكني فتاة عاشقة وانا اخشى ان يخونني الحظ في غرامي فتلازمني الفضيحة والذل الى الابد

واختنق صوتها في صدرها واستخرطت في البكاء

غير ان المنذر اعاد اليها بعض الرجاء بقوله :

اقسم الك بتاج ابي انك ستكونين لي ، اتشكّين في يا سفانة ؟

فقالت : وهل يشك المرء في نفسه ايهـــا الحبيب ؟ ولكني اشك في الزمان الذي لا يصفو وفي الهناء الذي لا يدوم ، بـل اشك في الملوك تشغلهم السياسة عن الوفاء بالوعود . . .

— : اذن فأنت تشكين في الملك

— : لا اشك في حبه ورضاه فهو اصل نعمتنا ومعيد مجدنا ولولاه لم يكن لنا وجود في حوران،ولكني اخاف ان تسدل اشغال الملك حجاباً بينه وبين قضية الزواج ، فينسى هذه الفتاة التي جاءت من آخر الجزيرة لترث تاجه ، ثم تمر الايام وانا في القصر اتعلل بالمنى واعيش بالوعد

نعم يا حبيبي ويا مولاي ، اني خائفة ، وهذا الخوف لا يزول اثره حتى ترتفع يد الملك ابيك فوق رأسي ويعترف بي امام انجاله وعظـــماء دولته زوجةً لولي عهده ، ولولا حبك يا ابا كرب ، بـــل لو لم تكن اطمعتني بالحصول على ولاية العهد ، لاكتفيت بطيفك يزورني في الحلم وبخيالك يمرّ امام عينيّ ، اما الان فـلا اطيق الرجوع الى الوراء ، بل لا اطيق ان ارى فتـاةً تستمتع بك وترقد عند قدميك ولو كانت بنت بوستنيان ، فاقتلني ان شئت ، اقتلني ايها الحبيب قبل ان يختار الملك لك سواي ، ان الموت افضل من حياة لا يكون المنذر فيها ملكاً لي . .

وانطرحت على الرمل وقد تلاشت قواها وقرحت عينيها الدموع فاستولى الغم على قلب الامير وهو لا يعرف سبباً لهذه الكآبة ثم اسند رأسها بيده وقال :

اما الملك فقد وعد وانا واثق بوعده، واما ان يختار لي سواك فهذا ما

لا يستطيعه لاني لا اتزوج غير الفتاة التي اهواهـا وهي انت ، فابعدي عنك الاوهام ، واعلمي ان تركي ولاية العهد اهون من تركي سفانة بنت جناب التي وهبت لها هذا القلب

لقد عين ابي موعد الزواج ايتها الحبيبة ، فثقي ان هـــذا الموعد لا يتأجل الا اذا صـادق ولي العهد على هذا التأجيل، ومع ذلك ، فليجعله الملك بعد عام ، بل بعد عامين ، ان مرور الايام والاعوام لا يؤثر في غرامنا ولا يبعد الواحد منـا عن الاخر ، فـانهضي الان ولتنقضي ايام الصيد كما يريدها القلب المطمئن ، لا ذلك القلب الذي تسوده الكآبـــة وتستولي عليه الاحزان

ثم اخذ يحدثها بحديث غرامه ، ويصف لها شدة شوقه وهيامه ، حتى طابت نفسها وعاد الى قلبها الرجاء

وقبل ان ينصرفا قال لعبيده :

أوقدوا النيران حول الخيام وتناوبوا على الحراسة

ثم نادى شقيقته حليمة وقال لها :

كل شيءٍ في نظر سفانة الليلة اشدّ سواداً من هذا الظلام ...

فقالت حليمة :

ولكنّ الليل هادىء والسماء صافية ...

فاجابتها سفانة قائلة :

نعم ، لولا هذه الغيوم المتلبدة في عرض الافق ...

• •. •

وركبوا في اليوم الثاني يريدون الحراء ، وهناك ، في تلك البقعة

الوعرة الكثيرة الحفر والصخور ، بدأ صيدهم

الظباء وحُمُر الوحش في الحراء كثيرة جداً ، كالغنم في حوران ، ولكنها كثيرة الاحتراز شديدة الحذر فقدنفرتها جلبة الصيادين وسهامهم ، وجعجعة جمالهم ، وصهيل خيلهم ، وزاد في تنفيرها طريقة اعيان الروم في الصيد ، اولئـك الذين يترددون الى الحراء باذن الحارث يصيدون ظباءها والسباع ، كانوا اذا رموا سبعاً او ظبياً صاحت جموعهم صياح الظفر واندفعوا ينشدون اناشيد النصر

وفي شمالي الحراء ، حيث تكثر الصخور والاغوار ، كهفٌ كبير في منحدر الوادي كان الحارث بن جبلة وانجاله ورفاقهم يقيمون فيه حتى تنقضي ايام صيدهم ، وحول ذلك الكهف حاجز من الصخر يربطون في داخله جمالهم وخيلهم وما معهم من ماشيةٍ ودواب

فسار القوم الى ذلـك المنزل الصخري الذي يقيهم حر الشمس ورطوبة الليل ، وقضوا فيه ليلتهم الاولى في المسامرة والغزل

وعند الفجر خرجوا من كهفهم اثنين اثنين ، الامير رفيق اخته ، وعامر يرافق سفانة ، وليلى مع اخيها جفـال ، وخلف كل اثنين عبدٌ يحمل بعض الحاجات

وتوغلوا بين تلـك الصخور يحملون حرابهم وسهامهم ، كلصوص العرب يطرقون القبائل الآمنة

ولبثوا ساعةً وهم لا يبصرون شيئاً حتى كان الصبـاح ، فسمعت ليلى عواءً فقالت لجفال :

اترانا نطوف الحراء لنصيد ابن آوى ؟

فابتسم جفال وقال :

انه صوت الذئب يدعو انثاه

فاسندت ليلى ظهرها الى الصخر واخذت من كنانتها سهماً ووقفت تنتظر مرور الذئب

فهمس جفال يقول لها .

احذري ان ترميه قبل ان اقول لك

ثم سمعا عواءً آخر بعيداً ، فقال ابن سلمة : هذه انثى الذئب قد اقبلت

وفي تلك الساعة رأيا على بعد بضع خطوات ، ذئباً اغبر هائلًا واقفاً على صخر ، ثم رأيا في سفح الجبل الشرقي شبحاً ينحدر كالسيل ثم اخذ يثب فوق الصخور بخفة الغزال الشرود حتى اصبح الى جانب الذئب فاذا هو انثاه ، فقفزا جميعـــاً الى الجهة الثانية من الصخر واحتجبا من العيون

فقال ابن سلمة لاخته :

اتبعيني ولا تفوهي بكلمة

وزحف الاثنان زحفاً وراء تلك الصخور السوداء ،والعبد يتبعهما عن بعد حتى اشرفا على موضع الذئبين .

فاقشعرّ جسمها عندما وقع نظرهما على ذلك المشهـد الرائع ، مشهد وحشين ضاريين ينهشان جثة حمار وحشي ، وعندما سمعا تكسّر العظام تحت انيابهما الحادة .

فوضع جفال حربته على شماله ، واشـار الى ليلى ان تفعل مثله وهو يقول :

ان ابا جعدة « كنية الذئب » كثير الخبث كثير الغارات ، فاذا رميناه ولم نصبه وثب علينا وقلما يخطيء في وثبته ، فنقابله اذ ذاك بالحراب نجعلها بين شدقيه او في صدره ثم نعمد الى السيف فنحتزّ به رأسه ، فلا تخافي يا ليلى ، اني اقتل الاثنين بهذا السيف ، انظري ، هذه انثى الذئب الى جهة اليمين فارميها .

وانطلق السهمان ، فوثب الذهب وثبةً عظيمـــة لطم بها الصخر ثم هوى الى الجـــانب الآخر ينتفض جسمه وهو يموت ، اما الانثى فقد اصابها سهم ليلى في قلبها فوقعت فوق جثة فريستها المسكينة .

فالتفت جفال الى شقيقته وقال :

انك خير من رمى يا ليلى فلا تصيبين الا القلب

ثم تسلق الصخر والقى قصيدةً مؤثرة رثى بها حمـار الوحش الذي قتله الذئب ..

وكان عامر وسفانة قد رميا ثلاثة ظباء ، اما الامير واخته فقد فاتهما الصيد في ذلك الصباح لان الموضع الذي سارا اليه كانت قد مرّت به الذئاب قبلهما فنفرت الحُمُر والغزلان

وبعد شروق الشمس عادوا جميعاً الى الكهف ، وابن سلمة يروي لهم رواية « ابي جعدة » ويعيد على مسامعهم ذلك الرثاء الشعري الخلاب

فقال له الامير :

انك يا ابن سلمة شاعر فحل ، أفتحسن اعداد الطعام كما تحسن نظم الشعر .

قال : اجل يا مولاي ، وكما احسن شرب الخمر

فقال عامر : وما تصنع غداً بالخمر يا ابن سلمة اذا سافرنا الى نجد ؟

قال : يعطيني مولاي الامير زقين من الخمر أشرب مـــا فيهما على الطريق ، أليس كذلك يا مولاي ؟

فقالت له سفانة :

بل يعطيك مؤونة الرواح والمجيء يا ابن سلمة لانك من احسن الناس

قال : أتعدني بذلك يا مولاي ؟

فقال الامير : يكفيك وعد سفانة ايها الابله

وشوى العبيد الظباء الثلاثة فأكل القوم وشربوا حتى ترنحت الاعطاف

• • •

في الجهة الغربية من الحراء ، على بعد فرسخ من الكهف موضع يقال له « النقر » فيه حفائر مستطيلة تبقى فيها الى ايام الخريف بقية من مياه الشتاء ، فتشرب منها صنوف الحيوان في تلك الجهة الجرداء

وفيه ايضاً عين ماء ليس بالغزير ينساب الى حوض صغير نقرته في الصخر ايدي الصيادين ويتدحرج مايفيض منه الى حيث يبتلعه الرمل الحار

وكان المنذر ورفاقه ، الا عامراً وسفانة ، يعرفون « النقر » وقد شربوا من مائه ، وصادوا من ظبائه ، وقضوا اكثر من ليلة بين صخوره واوغاره .

والصيد عندهم طريقتان ، طريقـــة الطواف من الفجر حتى تطلع الشمس ، وطريقة الاستخفاء خلف الصخور من قبل الغروب حتى يخيم

الظلام ، يطوفون يوماً ، ثم يستخفون ليلة وهكذا على التوالي حتى تنقضي ايام الصيد

وقاعة السباع في القصر الابيض، تلك القاعة التي هي عشرون ذراعاً، مفروشة جدرها وارضها وسقفها من جلود الضواري التي يصيدونها في الحراء عدا ما يأخذه الصيادون من هذه الجلود الى بيوتهم ، وعدا هدايا الحارث واولاده الى اصحابهم عظماء الروم والقواد .

وصيد الضواري في الحراء الوعرة ، أقل خطراً من صيدها في السهل المنبسط ، ذلك لان معظم الضواري - كالاسد والفهد والنمر والخنزير البري وبعض انواع الذئب - اذا لم يصب الصياد منها مقتلاً في الضربة الاولى ، وثبت عليه تطلب ثأرها منه فيحتمي بالصخر ثم يعاجلها برمية سهم اخرى او بضربة سيف حتى تموت

ففي عصر ذلك اليوم قال المنظر لرفاقه :

ان ما فاتنا من الصيد في الصباح ، لا يفوتنا في المساء ان شاء الله فنحن ذاهبون الى «النقر»

فقالت سفانة . وهل يبعد هذا الموضع كثيراً من هنا ؟

فأجابها الامير قائلاً : مسيرة فرسخ واحد فقط ، وله طريق مهدته يد الانسان من ستة اجيال

فاعدّوا سلاحهم واخذوا ما يحتاجون اليه ، ومشوا بقيادة الامير الى ذلك الوادي الاجوف، يكمنون فيه الى ان ينشر الليل ظله الرهيب

كذلك العبيد الاربعة ذهبوا الى الصيد ، فلم يبق في الكهف غير

راعي القطيع الصغير يقوم عـــلى حراسة قطيعه ويتعهد ما ابقوه داخل الحاجز الصخري من خمر والزاد والخيول والجمال

ولكنه ضجر من وحدته ، فعلف دوابـه وخرج من الكهف عند المساء يتسلق الصخور العالية وهو يتغنى بشعر الشنفرى (١)

فقالو لقد هرت بليل كلابنا   فقلنا اذئبٌ عسّ ام عسّ فرعل

« الفرعل ولد الضبع »

ثم خيل اليه انه يسوق الابل في سهل حوران

فأخذ يحدو لها وهو مطمئن القلب

اما الامير ورفاقه ، فكانوا قد أمسوا في «النقر» واتخذوا لهم — وهم مجتمعون — مقاعد وراء صخر كبير له المنـــافذ والمرامي ، ينتظرون غروب الشمس

وبعد ساعة وردت الظباء ،فأصابوا منها عشرة،ثم اقبلت حمر الوحش

---

(١) هو ثابت بن أوس الازدي من أهل اليمن ، والشنفرى هو العظيم الشفتين، وهو شاعر من الازد من العدائين ، وفي العرب من العدائين « الذين يركضون » من لا تلحقهم الخيل منهم الشنفرى هذا وسليك بن السلكة وعمر بن براق وأسيد بن جابر ، وثابت بن جابر بن سفيـــان الفهمي الذي يقال له أيضاً « تأبط شراً » وكان الشنفرى حلف ليقتلن من بني سلامان مائة رجل فقتل منهم تسعة وتسعين ، وكان اذا رأى الرجل منهم يقول له : لطرفك ثم يرميه فيصيب عينه، واحتالوا عليه فأمسكوه وكان الذي أمسكه أسيد بن جابر « الذي مرّ ذكره » رصده حتى نزل في مضيق بمشرب الماء فوقف له فيه فأمسكه ليلاً ، ثم قتلوه فمرّ رجل منهم بجمجمته فضربها برجله فدخلت شظية من الجمجمة فمات منها ، فتمت القتلى مائة ، وله الشعر الحسن منه لاميته المعروفة بلامية العرب « والشعر أعلاه منها »

فنفذت سهامهم من اكباد ثلاثة منها ، ولو ارادوا ، لكثرة الظباء ، ان يرموا العشرين والثلاثين منها لاستطاعوا

فعمد العبيد الى خناجرهم القصيرة يسلخون جلود الحمر ، فلما انجزوا عملهم قال الامير :

احملوا ماتستطيعون من الظباء ولنعد الى الكهف قبل ان يجن الظلام

فمشت العبيد امام القوم وبين يدي احدهم جلد مشدود على اربعة اعواد يشبه الطبل وهو يقرعه بعصاه تنفيراً للسباع حتى اشرفوا على الكهف ،

فسمعت حليمة صوت فتيً يستغيث ، ثم ساد السكوت

فقال جفال : هذا صوت الفتى راعي الغنم ، ولكنهم سمعوا في تلك اللحظة صوتاً كالرعد ارتج له جانبا الوادي

فقال عامر : هذا زئير الاسد

فأسرعوا في الدخول الى الكهف وهم يتلفتون وقد قوموا حرابهم وجردوا السيوف

غير انهم لم يجدوا الراعي المسكين لان الاسد كان قد افترسه

وفي صباح اليوم الثاني وجدوا تحت صخر كبير بقايا جثته وبعض قطع من ثيابه ولم يجدوا للاسد اثراً

فترصدوه ثلاثة ايام متوالية فلم يروه ولم يسمعوا بعد ذلك في الحراء زئير اسد

فنسوا الراعي المسكين الذي قضى ضحية ، جهله وفي صباح اليوم السابع غادروا الحراء الى القصر الابيض وجمالهم تحمل جلود ما صادوه من الحيوان .

- ٢٦ -

يوم الجمار

ومرت الايام والمنذر وسفانة يزدادان جوى وغراماً ، وهمـــا بلنتظران يوم الجمار بل ينتظران يوم الزفاف بشيء من الصبر

وتوثقت عرى الولاء بين سفـانة وكوكب ، والوصائف الثلاث ، رطبة وسليمى وفاتنة ،فكن يجلسن معاً في قبة القصر يرمين الحداء بالسهام

ولكن سفانة لم تكن تشاركهن في سباق الخيل لان المنذر منعها من ذلك فكانت كوكب تقول لهـــا ، ان يوم الجمار قد قرب وستشاركيننا فيه

اما سليمى ، فكانت اشد اخلاصاً لسفانة « البدوية » من جميع نساء القصر ، وذلك سر من اسرار القلوب العاشقة والعواطف الوثابة ...

وامسى حاجبا الحـــارث ، قيس وعاصم ، كالاخوين في صحبتها ، يسهران على راحة الملك ، وينفذان اوامره ورغبـــاته والملك يثق بهما الوثوق كله ويبوح لهما ولعامر بمعظم اسرار القصر

وقد طرب ثعلبة لتعيين ولده حاجباً للملك ، وزاد سروره ، عندما قال الملك في مجلس خاص :

ان ثعلبة بن هنب هو قائد غسان الاكبر عندما يغيب ولي العهد واوشك الخريف ان ينقضي ، فقال الملك في ليلة لجلسائه :

بعد ثلاثين يوماً ينتقل البلاط الى قصر المشتى فاعدوا معدات الرحيل

ثم التفت الى ابن سلمة وقال

قل للوفود والاضياف النازلين علينا ان يستعدوا للسفر معنا اذا ارادوا البقاء في حوران، واذا احبوا ان يشتركوا في المباراة «يوم الجمار» فليهيئوا خيلهم وسلاحهم

ثم وجه حديثه الى ثعلبة قال :

ان يوم الجمار سيكون بعد عشرين يوماً فادع قواد الالف في الجيش ومن تشاء من اشراف البلقاء وحوران ليجتمعوا في اليوم المعين ، اما انت يا نديمنا فستشترك معنا في السباق هذا العام لانك رجل الحرب كما انت رجل المشورة والرأي ، أفلا يلذ لك ان تكون في يوم الجمار الى جانب الملك ؟

فقال زهير : كل ما يلذ الملك يلذ لخادمه يا مولاي ، ولكن ، أتأذن لي ان اسألك عن هذا اليوم ؟

قال من عادة اجدادنا ملوك الغسانيين ، انهم في كل سنة ، قبل ان ينتقل البلاط الى قصر المشتى ، يدعو الملك خاصته وقادة جنده ورجال البأس من اضيافه ، الى ملعب في « تل الطراد » يبعد عن هذا القصر ساعة الى جهة الشرق، فيقبل المدعوون على ظهور افراسهم وهم محجبون،

يحمل كل منهم عدة حربه ، سيفه ورمحه وقوسه ، فيقف الملك حوله بنوه وانسباؤه في خيمته في صدر الملعب ، ويقف الفرسان على الجهتين في صفين متقابلين فيختار الملك او الامير المفوض فارسين اثنين احدهما من هذا الصف ، والثاني من الصف الآخر ، فيعمدان الى المباراة في الطعان وضرب السيف والرماية ، ثم يحل محلهما اثنان غيرهما كما سترى ، وقد يتحجب الملك وانجاله فيشتركون في المباراة ، بحيث لا يبقى سافراً الا جماعات المتفرجين والامير الذي يدير السباق باسم الملك

— : ومتى يسفر الفرسان

— : لا يجوز لاحد اللاعبين ان يسفر الا بعد ان يباري رفيقه ، ليقف الفائزون الى يمين الملعب ، وينتحي الخاسرون ناحية الشمال وقد سفروا جميعاً وبانت الوجوه(١)

فقال زهير : ان السباق عادة شائعة بين القبائل يا مولاي ، فلكل عشيرة يومٌ تمتحن فيه شدة البأس وخبرة الرجال في مواقف القتال ، وفي قبائل معد ، تشترك بعض النساء في مثل هذا اليوم فيبارين الرجال في اساليب الرماية والركوب ، وقد تختلف هذه العادة ، باختلاف ميول القبائل وطبائعها فلكل قبيلة نوعٌ خاص في القتال لا تتعداه

قال الحارث :

اما الملك في غسان فلا يدعو الناس الى مثل هذا اليوم غير مرتين في العام ليس غير ، الاولى قبل انتقال البلاط الى قصر المشتى كما ذكرنا ،

(١) اما لفظة الجمار بفتح الجيم فمعناها الجماعة ولعلهم عنوا بقولهم يوم الجمار يوم الجماعة او يوم الاجتماع « واستجمر القوم اجتمعوا »

والثانية في بصرى قبل الرجوع الى القصر الابيض، واما الشعب فهو حر في المباراة اذا شاء جعلها مرةً او عشر مرات في الشهر لا يعترض له في ذلك احد ، وفي غسان كما في معد نساء يبارين الرجال في الميدان ، هذه اختنا كوكب وبنتنا حليمة ووصـائف القصر ، كلهن يشتركن في السباق كل عام

ثم ابتسم الحارث وقال :

ولقد عرفنا يا نديمنا العزيز، ان سفانة نشأت مع اخويها على ظهور الخيل فهي تحسن الرماية وضرب السيف كما تحسن صيد الايل في سهول نجد واليمن، أتراها تأبى ان تشارك نساءنا في ذلك اليوم؟

فعرف زهير ان الملك يعمد اذ ذاك الى اسلوبه الناعم الهادىء ليقرأ دخيلة نفسه فقال:

ان سفانة عبدة مولانا الملك، ولكن قد تعجز عن الظهور بمظهر الفرسان فتفضح عشيرتها واباها

فضحك الملك وقال :

ليست الحرب للنساء بل للرجال، فاذا لم تباري سفانة رجال غسان في السباق فليس في الامر فضيحة وذل، انها تباري على الاقل نساء القصر وكلهنّ من سلالة الامراء، واعلم يا ابن جناب، ان بنتك ستصبح بعد يوم الجار ولية العهد فالملك اذن يريد ان يرى بنفسه خبرة ولية عهده في فنون الحرب

فاغرورقت عينا ذلك الشيخ ودعا في حفظ حياة الملك

ثم قال الملك لابن سلمة :

اما الفائزون فسنجعلهم حراساً للملك، هكذا خبرّ الناس يا ابن سلمة، وكل رجل من حوران والبلقاء يركب فرسه، الا الاضياف والنساء فيركبون من افراس القصر، واعلم ان امير الجمار في هذا العام هو قائد جيشنا ثعلبة فكن له رفيقاً ونفّذ كل ما يقوله لك

فكاد ثعلبة يغيب عن صوابه عند ما عرف ان سفانة ستزف بعد يوم الجمار الى ولي العهد، فأخذ يجهد منذ ذلك الحين، في اختراع الوسائل التي تمنع هذا الزفاف

• • •

في ليلة شديدة الظلام اكفهر فيها وجه الافق، وملأت السحب السود فضاء حوران، دعا ثعلبة بن هنب بنته سليمى الى غرفة نومه في القصر الابيض وقال لها:

انظري الى هذا الرداء يا سليمى، انه رداء صاحبنا عروة الذي يحمل كتابنا الى ابن ماء السماء، فخذيه، واجعلي في ردنه من الداخل موضعاً عجيباً للرسالة لا يبدو له اثر للناظرين

فتناولت سليمى الرداء وقلبها يرقص من الفرح

فاذا هو رداء قصير الذيل واسع الكمين يغطي ثياب الرجل الى الساقين

فقالت لابيها:

وما هو حجم الرسالة يا ابي ؟

فأخذ من تحت وسادته رقاً صغيراً مطوياً وقال:

هذه هي الرسالة بعينها فاقرأيها

فقرأت سليمى :

« الى الملك العظيم المنذر بن امرىء القيس ملك العراق »

« حامل كتابي هذا يدلك على رجل في الحيرة يدعى عامر بن زهير ابن جناب ارسله الحارث بن جبلة ليأتيه برأسك ومعه رجل آخر يدعى جفال بن سلمة »

وفي ذيل الرسالة هذا التوقيع :

رئيس عشيرة هنب، ثعلبة

فأظهرت سليمى الارتياح وانصرفت الى قصر الاميرة تحمل رداء عروة وهي تقول: بقي علينا ان نعرف موعد السفر...

• • •

وبعد ايام اقبل ابن سلمة يقول للملك :

في حوران ضيفان جديدان من بني نهد بن زيد يقال لهما حزن وسهل يريدان ان يقابلاك

وكان الملك في ذلك اليوم راضياً فقال :

– وماذا يطلبان

– ما تطلبه وفود العرب من الحارث بن جبلة، انهما يطلبان احساناً

فقال الملك : مرحباً بطالبي احساننا اذا كانوا يستحقونه، احضرهما بعد الظهر

ولما ازف الوقت استأذنا في الدخول فأذن لهما ، فلما مثلا بين يدي الملك، قال احدهما:

لقد قلت فيك شعراً يا مولاي

فقال الملك: اترك الشعر الآن وقل لنا من انتما

قال: نحن ولدا رزاح من بني نهد بن زيد، واندفع يطلع الملك على نسبهما ويحدثه باحاديث العرب

فاعجب الملك به

ثم قال:

أأنتما من رجال الحرب؟

قال سهل: نعم ومن رجال الشعر

قال: اذن تكونان معنا في يوم الجمار، يا ابن سلمة، اعدّ لهما ما يحتاجان اليه في ذلك اليوم، ثم ننظر في امرهما بعد ذلك

• • •

وانتشر خبر السباق في حوران والبلقاء، فضمرّ القوم الخيول وشحذوا السيوف، وانتظروا ذلك اليوم العظيم بل ذلك العيد الوطني

والحراسة في القصر، لا يطمع بها غير قواد الجيش، فاخذ كل بطل يمني نفسه بالحصول على هذه الرتبة السامية

فلما بزغ فجر ذلك اليوم، اقبلت الخيل على ساحة القصر الابيض، بينها الاشهب والاحمر والازرق والدهماء، وعلى ظهورها فرسان حوران والبلقاء، والقواد والاشراف

ثم اخرجت العبيد «الصاعقة» فرس الملك من مربطها، وخلفها خمسة جياد من خيل ولي العهد، «وسلمى» فرس جبلة، والنجمة فرس لبيد، فاصبحت

تلك الساحة الواسعة معرضاً لكرائم الخيل

ومرت ساعتان والوفود تلي الوفود، وفي سرج كل فرسٍ قطعة قماش تشبه الملحفة يلفّ بها الفارس راسه ووجهه لا يبقى غير عينيه

وضجت الخيل بالصهيل والناس ينتظرون خروج الملك حتى طلع الصبح ، فاخذت العبيد الافراس الى فناء القصر الداخلي . ووقف غلام على سور القصر وقال : ايها الفرسان ، حجبوا وجوهكم فقد اقبل الملك.

فما كاد القوم يسترون وجوههم بالملاحف ، حتى انفتح فجأةً باب القصر الكبير وخرج منه ثلاثون حارساً يلبسون اثواباً من الخز الاحمر ، ووراءهم ثلاثون غلاماً بلباس الروم ، ثم اقبل حاجبا الملك الجديدان عاصم وقيس على فرسيهما واطلّ الملك بعدهما على «الصاعقة» وبيده مخفقة من الابنوس ، والصاعقة يتوهج الجوهر والذهب في سرجها وهي تتمايل كبراً وتيهاً بفارسها العظيم الجبار ، والى جانب الملك ولده الاصغر على مهر أدهم كأنه قطعة من الليل

وخلف هؤلاء أفراس المنذر الخمسة عليهــا الفرسان المحجبون ، ثم رجال القصر والندماء والخاصة كما هي العادة في مواكب الملك

فلما توسط الملك القوم ، جردوا سيوفهم وضجوا قائلين : يعيش الملك

فتجاوبت الاودية صدى ذلك الدعاء ، وردّ الحارث تحيتهم بابتسامة بدت على شفتيه المرتجفتين

ثم تقدم الفرسان المحجبون ومشوا أمام الملك . وتبعهم الفرسان السافرون الذين لا يشتركون في السباق ، ثم حملة السهام من الغلمان ، ثم الحراس فالملك وحاشيته كما تقدم

وعلى هذا النظام ، سار ذلك الموكب العظيم ، وأنوار الشمس الطالعة من وراء الحراء تنعكس على السيوف المجردة فتبرق كما تبرق الشهب في الدياجير .

اما الموكب فلم يقف الا في « تل الطراد » فتسابق القوّاد يعدّون سرداق الملك « خيمته » وهو السرداق الوحيد الذي يأوي اليه الملك في أيام الصفو والنعيم عُمُده الاثنا عشر من الابنوس ، مسوّرة من الاعلى الى الاسفل باساور الذهب والفضة ، والسرداق مبطّن بالديباج الاصفر وكرسي الملك الذي يجعلونه فيه من العاج ، وهو كرسي كبير يشبه العرش ، وحوله ثلاثة كراسي بالشكل نفسه ولكنها اصغر يقعد عليها انجال الملك ، ويتبع هذا السرداق اكثر من ثلاثين وسادة كلها من الديباج الاصفر أيضاً ، يجعلونها للخاصة والمقربين عند الحاجة

فجلس الملك على كرسيه ، والى جانبه الحارث الاصغر ، وامامهما على وسادتين النديمان قيس بن ثابت وزهير بن جناب .

اما النساء فلم يرَ القوم لاحداهنّ وجهاً

فوقف ثعلبة بن هنب خطيباً ، قال :

الافراس المعروفة لا يركبها اصحابها فهي تدل عليهم

فبدأ القوم يتهامسون ويتبادلون افراسهم

ثم قال : الحراسة في قصر الملك جائزة الفائزين

فارتفعت الاصوات بالدعاء : يعيش الملك

اما السافرون من رجال القصر فهم : الملك ، والحارث ولده ، والنديمان ، وثعلبة بن هنب ، وجفال بن سلمة ، وحاجبا الملك عاصم

وقيس يحرسان باب السرداق الملكي .

ووقف الفرسان صفين متقابلين يبعد الواحد عن الاخر مئة خطوة فأومأ ثعلبة الى العبيدان ينصبوا الاهداف ففعلوا ، وضعوا في الجانب الايمن على بعد ثلاثين خطوه من السرداق، غرارة حشوها تبناً، وشدوها بالحبال الى عودين غليظين حفروا لهما في الارض ، وجعلوا وراءها على بعد خطوة واحدة ، غرارة اخرى شدوها الى حجر كبير

وعلى بعد مئة خطوة في الجانب الايسر نصبوا جلد ثور في وسطه جلد سنجاب وخلفه على بعد خطوتين جلد شاة ، الغرارتان للرماح ، والجلود للنبال

ثم اقبلت العبيد تحمل قطعاً غليظة من امراس الكتان طول الواحدة منها شبران فتناول كل فارس قطعة منها وجعلها في يده اليسرى مع لجام فرسه .

فعاد ابن هنب الى الخطابة فقال :

اعلموا ايها الناس ، ان لكل فارس منكم جولتين اثنتين على ظهر فرسه لا يتجاوزهما ، من يقذف بقطعة المرس في الهواء ثم يقطعها بضربة من سيفه قبل ان تحاذي رأس فرسه فقد فاز، ومن يطعن بالرمح غرارة التبن فيخرقها السنان حتي يلامس الغرارة الاخرى فقد فاز ، ومن يرم جلد السنجاب فينفذه سهمه ثم يثبت فيجلد الشاة القائم وراءه يفز ايضاً، ضربة سيف واحدة ، وطعنتان بالرمح ، وثلاث مرات يرمي بها الفارس عن قوسه ليس غير ، فلنبدأ الان

واشار الى فارسين ثم تراجع الى باب السرادق

فتوسط الفارسان الميدان ، ثم اخذا يركضان فرسيهما ويلعبان

فقال الملك : ماذا ترى يا ابن جناب ؟

فقال : أرى فارسين ضعيفين يا مولاي

وضرب احدهما قطعة الحبل بسيفه فلم يؤثر السيف في الكتان ثم ضربها الاخر فلم يكن اسعد حظاً من رفيقه

فقال الملك : ليخرجا من الملعب ، فمن هما ؟

فسفر الاثنان ، فنادى ابن هنب قائلًا :

واحد من صيدا والاخر كالداني من الاضياف

ثم أومأ الى اثنين آخرين فجالا جولة عرف الملك منها احدهما فقال:

صاحب المهر الازرق حوراني وهو الذي يفوز ،ليبدأ بضرب السيف فضربا ، فقطع احدهما خيوط الكتان الا خيطاً واحداً ، اما الاخر فخسر ، فاشار ثعلبة الى الرمح فخسرا جميعاً ولما اخذ صاحب المهر الازرق قوسه ليرمي ، قال عاصم للملك : هذه ليلى بنت سلمة يا مولاي

فقال : أصبت فليلى تنحني عند الرماية

ثم افلت السهم فأصاب الهدف ونفذ منه الى جلد الشاة فغاب فيه الى نصفه

فصفق القوم ، وصاح الملك قائلًا :

من هو هذا ؟

فسفر الفارسان ، فقال ثعلبة : ليلى بنت سلمة ورجل من فلسطين

فقال الملك : تعالي يا ليلى فلو كنت رجلًا لجعلناك من الحراس

وتلفت ثعلبة فرأى افراس المنذر الخمسة في الصفين ، فقال في نفسه :

النساء بلباس الفرسان فلا نعرف سفانة

ثم رفع صوته قائلًا : عجلوا ايها القوم

فبرز اخران فخسرا ، ثم تلاهما غيرهما ففاز احدهمـــا وهو ضيف من لبنـان

ثم تواردت الفرسان ، هذا غـــالب وذلك مغلوب حتى توسطت الساحة ، النعامة والخطاف ، فرسا المنذر

فقال الملك لرفاقه : جاء دور أفراسنا ورجـــال قصرنا ، أتعرف الفارسين يا ثعلبة ؟

— : لا يا مولاي

وكان ذلك الخائن يفكر في سفانة ، فقال الملك : اما انا فقدعرفتها انظر يا ابن جناب الى النعامة والخطاف يكادان يسبحان في الفضاء ، ان صاحب الخطاف اخف من الآخر ، ولكن صاحب النعامة رصين هادىء في لعبه ، كلاهما من الابطال

ثم اتجهت العيون الى راكب الخطـــاف يضرب بالسيف ، ضرب قطعة الحبل فبراها برياً ، فدمعت عينا الملك من الفرح وقال :

ولكن خصمه سيد الابطال ، فليضرب

فقذف صاحب النعامة بالحبل ثم أهوى بضربتين قبل ان يحاذي الحبل رأس فرسه ، فاذا بالحبل يصبح قطعاً ثلاثاً بدلاً من اثنتين

فارتفعت اصوات الاستحسان

وقال جفال : سلمت يدك ايها الامير

ثم عمدا الى رمحيهما فطعن هذا الامير غرارة التبن فاثبت السنان في الغرارة الاخرى، ثم جاء دور الاخر ففعل كما فعل رفيقه ولكن الطعنة كانت اضعف

فقال الملك : اجل انه اضعف منه لانه اصغر سناً

وفاز الاثنان في الرماية ايضاً ، فأزاحا حجابيهما ، فصاح ثعلبة : الاميران ، جبلة ابن الملك ، ولبيد بن عمر

ثم اقبلا يلثمان يد الملك ، فقال الملك للبيد : انك رب السيف يا ابن العم فاجلس الى جانبنا ، ثم قال لجبلة : اما أنت يا بني فقد نازلت الآن البطل الاول في غسان

وكان ابن جناب في ذلك الحين يبتهل الى الله كي لا يفشل ولداه عامر وسفانة

ثم نزلت سلمى فرس جبلة ، والنجمة فرس لبيد ، فعرف الملك الفرسين وانكر الفارسين ، فتطاول ليراهما ، ثم قال :

هذا نوع من اللعب جديد لا يعرفه اهل حوران ، والتفت الى نديمه زهير فرأى عينيه قد ملأتهما الدموع

وأخذ الفارس منهما ينبطح حيناً على خاصرة فرسه ثم ينحدر الى البطن ثم يعود الى السرج بخفة النمر حتى حيرا العقول ، وكلا الاثنين يبتسم للآخر من وراء الحجاب ، فلما جالا جولتين ، أومأ احدهما « الطويل القامة » الى ابن سلمة ان يعطيه قطعة مراس اخرى غير التي يحملها بيده ، فاعطاه ، فلوح بالقطعتين ثم قذف بهما الى فوق وعاجلهما

بالسيف الواحدة تلو الاخرى فصيرهما قطعاً اربعاً ثم هوى الى الارض كالعقاب تنقض على صيدٍ فتناول احداهـا واستوى على سرجه فرمي بها على بعد عشر خطوات ثم ركض فرسه فبراها وهي فوق رأسه ، ثم جاء دور الآخر ، فحذا حذو رفيقه وفعل كما فعل كأن اليدين اللتين تضربان بالسيف يدٌ واحدة ، ثم طعنا الهدف فغيب كل منهما سنان رمحه في الغرارة الثانية وكادا يضعان سهميهما، في جلد الشاة ، في موضع واحد

فعلا ضجيج القوم وهتافهم

ونفذ صبر الملك فقال : ليسفرا

فقال ثعلبة وصوته يرتجف من الغضب : عامر وسفانة ولدا زهير بن جناب .

فظهر البشر على وجه الملك وقال :

ان اولاد ابن جناب هم اولاد الملك ، بارك الله فيك يا سفانة ، اجلسي الى جانب الحارث

فطوقها الحارث بذراعيه وقال :

اهلاً بعروس اخي ولي العهد

فكاد ثعلبة بن هنب يسقط على الارض

والتفت الملك الى عامر وقال :

اما انت يا سفيرنا العزيز فخير فتىً يحيي ذكر ابيه وقومه ، اجلس الى جانب جبلة ولبيد .

وعندما سفرت سفانة في الساحة ، رفع المنذر حجابه وهمز فرسه حتى دنا من السرداق فقال للملك :

ان ولي العهد سيلعب سافراً يا مولاي، فضحك الملك وقال : الساحة اضيق من ان تسع فرسك الشهباء الان ... افعل ما تشاء يا بني

فوثبت الشهباء وثباً الى الساحة واقبلت كوكب على «الباز» تباري ولي العهد .

فقال الملك : الاثنان فائزاً

فعمد ولي العهد الى اللعب فكان اخفّ من لعب ، ثم تناول السيف فقطع الامراس واحدة واثنتين كما فعل لبيد وعامر ، ثم اخذ رمحه وقناته من العاج ، فطعن به فمرق السنان من الغرارتين كما مرق سهمه من المدفين .

فصاح ابن سلمة يعيش الملك ويعيش ولي العهد

فردّد القوم كلامه ، ومشى ولي العهد الى السرداق بين عاصفة من الدعاء .

وكانت العبيد تستبدل الجلود المثقبة بالجلود الصحيحة

اما كوكب فقد فازت ولكنها لم تجاري ولي العهد ، كذلك فازت سليمى بنت ثعلبة كما فازت الوصيفتان الاخريان ، والضيفان الجديدان سهل وحزن ولدا رزاح

فاعجب الملك لعبهما على ظهور الخيل وهو يشبه لعب اهل نجد ، فاستدناهما وقال : لقد جعلنا كما من ندمائنا وحراسنا قبل ان نعرف عنكما شيئاً ، البسهما يا لبيد لباس الحراس عند وصولنا الى القصر ، كم هو عدد الفائزين يا ابن هنب ؟

فقال : اربعة وستون يامولاي ما عدا النساء، ومعظمهم من الجيش

قال : لقد أصبح القصر اذاً مسكناً لجيش الحراس ، لا بأس فالله مصدر الخير والنعم ، اجعلوهم كلهم حراساً للملك ، وخيّروا الاضياف بين الاقامة والرحيل ومن خسر من الجنود ؟

— : اثنان يا مولاي من قواد الالف

— : من هما ؟

فذكر ثعلبة اسميهما ، فقال الملك :

اطردوهما من الخدمة فالقائد الذي لا يفوز في يوم الجمار لا يفوز في القتال .

واخذت « الصاعقة » تصهل وراء السرداق فقال الملك :

لقد ملأت فرسنا السهل صهيلًا

فقال ولي العهد : لم تتعود الصاعقة ان تغير الخيل ، وهي موثقة بالرباط ، فاطلقها يا مولاي

قال : على شرط ان تجري معها « النعامة » يا ابا كرب

- أفي سباق يا مولاي ؟

— نعم

— لقد رضيت فما هو الرهان ؟

— ففكر الملك قليلا وقال وهو يبتسم :

اذا سبقت « النعامة » ألبسناك تاج الملك ثلاثة ايام فتصبح انت الملك ونحن الرعية ، وان سبقت « الصاعقة » منعناك ثلاثة ايام ايضاً من النظر الى سفانة ...

فضحك القوم ، وغطت سفانة وجهها من الخجل

فقال ولي العهد : رضيت بالشرط الثاني يامولاي ، اما الاول فالتاج لا يلبسه احد والملك حيّ

فقال ابن سلمة : لا مجال للخلاف يا مولاي فانا أشترط

فابتسم الملك قائلًا : انك لا تعرف ان تشترط يا ابن سلمة الا في مجالس الشراب ... وأنتم ايها القوم ، ماذا تقولون ؟

فقال ثعلبة : للملك ان يختار واحداً منا يضع الشروط

قال : لقد اخترناك انت اذاً ، فقل

قال : الا تزفّ سفانة بعد ايام الى ولي العهد ؟

— بلى

— اذن فليكن الرهان يا مولاي على موعد الزواج

— وكيف ذلك ؟

— للفائز ان يحدد هذا الموعد، اذا سبقت فرس الملك ، تأخر الزواج حتى يعود عامر من نجد ، وان كتب الفوز للنعامة كان ولي العهد حراً في جعل هذا الموعد بعد ساعة او بعد يوم

فخفق قلب سفانة من الخوف ..

اما ولي العهد فما وعد الا وفى

فقال الملك : ارضيت بهذا الشرط يا ابا كرب ؟

— : نعم يا مولاي فلا سبيل الى الجدال ، ومن يركب الصاعقة ؟

— : انا

فقال ولي العهد : اما انا فلا اسابق الملك

فالتفت الحارث الى جفال وقال:أليس لك راي فيهذا ايها الشيطان؟

قال : نعم يا مولاي ، يتسابق لبيد وعامر بن زهير ولبيد يركب فرس الملك

فقال الملك : اما الان فقد احسنت ، ضعوا رمح ولي العهد على بعد ثلاثين خطوة من السرادق ، واجعلوا الشوط ثلاثماية خطوة ، فمن تناول الرمح قبل رفيقه مرتين من ثلاث مرات فهوا الفائز ، هيا يا لبيد

فقادت الغلمانالفرسين الى باب السرادق، وقبل ان يركب الاثنان، قال الملك :

احذر انتغلب الملك يا ابن زهير

فمرت سحابة سوداء امام عيني سفانة، وقالت في نفسها : قضي الامر فولي العهد مغلوب وقد تأخر الزواج

وانقسم الناس فريقين ، هذا من حزب الصاعقة ، وهذا من حزب النعامة .

« كما يفعلون اليوم في ميادين السباق »

وكان الملك وولي عهده يبتسمان وكل منهما واثق بفوز فرسه

ووقف الفارسان في الموضع الذي اشار اليه ابن سلمة، وكانت علامة الجري ، لواء يرفعه عاصم بن ثعلبة فوق السرادق

فما كاد يرتفع اللواء ، حتى جرت الفرسان في ذلك السهل تحسبها فرساً واحدة تطير في الهواء ، ثم تقدمت النعامة وفرس الملك تدانيها حتى قاربتا موضع الرمح فوثبت الصاعقة وثبة سبقت فيها النعامة مقدار

خطوة فخطف لبيد الرمح خطفاً ورفعه فوق رأسه ثم طرحه للغلمـــان فاعادوه الى موضعه

فتهللت وجوه رجال الحزب الملكي وبدت دلائل الفرح الوحشي على وجه ثعلبة بن هنب

اما ولي العهد فنظر الى سفانة نظرة كلها عطف واشفاق

وقال الملك لابن عمه : مرة اخرى يا لبيد فنربح الرهان

فابتسم عامر ابتسامة الواثق وقال : اما المرة الثـانية فليست للبيد يا مولاي .

فاجابه ثعلبة قائلاً : ان الملك لا يغلب يا ابن جناب

وعاد الفارسان الى موضعهما الاول ، فرفع عاصم اللواء ، فانطلقت النعامة كالطير يضم جناحيه لا تلامس حوافرها الارض،وجرت الصاعقة وثباً كالجرادة وهما تتزاحمان كأنهما في مضيق حتى لم يبق بينهما وبـين الرمح غير عشر خطوات فاشتدت النعامة في العدو ونزت الصاعقة عـلى عادتها غير ان عامراً كان أسبق الى الرمح فاخذه بيده وجرده في الهواء بين التصفيق والهتاف

فبرقت اسرة وجه المنذر ، اما سفانة فلم يعرف ثغرها الابتسام

ونادى الملك لبيداً وقال : انخسر الرهان يا ابن العم ؟

فقال عامر : لا يا مولاي ففرس الملك لا تلحق ...

ففهم المنذر وسفانة ، بل فهم الجميع ، ان عامراً لا يريد ان يسبق لبيد بن عمرو ، احتراماً للملك

وفي الشوط الثالث ، مد القوم اعناقهم ليروا المتسابقين ، فلما وصلا الى موضع الرمح حادت النعامة عنه وكانت السابقة فاقتلعه لبيد وترجل

الاثنان بين يدي الملك والعرق يقطر من رأسيهما وثيابهما

فقال الملك لعامر : كيف رأيت الفرسين ؟

فقال : لم ارَ مثلهما بين خيول العرب يا مولاي

وكانت الابتسامة لا تفارق ثغر المنذر

فقال له الملك: نزلنا عن حقنا يا ابا كرب فعين انت موعد الزواج

فأبت على المنذر عزة نفسه انيظهر الضعف فقال: لقد عينته يامولاي

– متى ؟

– بعد ان يرجع عامر من سفره...

– وانت يا سفانة... ماذا تقولين

فقالت. لااعرف ان اقول شيئاً يا مولاي ولكني اطيع

فقال: قد اتفقنا اذاً فلا تطل غيابك يا عامر لئلا يفرغ صبر اختك..

أحضر الشراب يا ابن سلمة فالخمر عند الغروب تبرد الاحشاء..

وبينما كان القوم يشربون، وقد قضى ابن هنب لبانته، كان عامر يقول لاخته: تجلدي يا سفانة فهكذا شاءت الاقدار واراد الملك..

فقالت: وهكذا كان الاخ عوناً للملك على اخته

وكاد ثعلبة يرقص من الفرح عندما تأجر موعد الزواج..

اما سفانة فقد زادها السباق عزاً ورفعة، وكبرت في عيون القوم..

- ٢٧ -

رداء عروة ـ الرسالتان
ـ سفر عامر وابن سلمة ـ

وجعلت سليمى في ردن الرداء، موضعاً لرسالة ابيها الى ملك الحيرة ابن ماء السماء، ثم مشت في الظلام الى غرفة ذلك الوالد البار

وكان ثعلبة وحده يقلب المسك المفتوت في وعائه النحاسي

فقالت له: هذا رداء عروة يا مولاي فاعطني الرسالة

فمدّ ثعلبة يده تحت وسادته واخرج الرق، فتناولته سليمى، واعادت قراءة سطوره، ثم وضعته في الردن «اصل الكم» وشدّت ذلك الموضع بخيط من خيوط اللبلاب كي لا يضيع ذلك الكتاب المبارك..

ثم قالت لابيها: متى يسافر عروة يا مولاي؟

ـ في هذين اليومين في الساعة التي يسافر فيها رسول الملك

ـ الم يعرف عاصم موعد السفر بعد؟

ـ يعرفه الليلة او غداً وقد قضي على بني جناب الى الابد

فتظاهرت سليمى بالفرح ونهضت تحاول الانصراف، فسألها قائلاً: كيف رأيتِ ذلك للرهان يا بنية؟

فقالت وهي تبتسم: انك ادهى من رأيت يا مولاي

قال: ولكن هذا الدهاء لا تظهر اثاره الا بعد شهرين او ثلاثة، فأما التاج واما الموت

فضحكت سليمى في سرها على هذا الوالد المغرور الذي يريد ان يجعلها ولية العهد بالرغم من ولي العهد، ويصيِّرها ملكة بالرغم من الملك

ثم عادت الى قصر كوكب فأوفدت عبداً من عبيده يدعواليها اخاها

فلما اقبل قالت له: ايسافر عامر في هذا الاسبوع يا اخي ؟

قال نعم ولكني لم ارد ان اطلع والدي على ذلك قبل ان اراك، ان موعد السفر بعد غد، يخرج عامر من القصر الابيض قبل ان يبزغ الفجر، ويرافقه الى « مناخ الجمال » سفانة وقيس وولي العهد وانا، ثم نودعه هناك ونعود فيسير وحده الى « بئر وهب اللات » أول طريق البادية، حيث ينتظره جفال بن سلمة ومعه بعيران

فخفق قلب سليمى لخاطر خطر لها، ثم قالت:

ولماذا يترك القصر في مثل هذه الساعة من الليل ؟

— لانه يذهب متنكراً بثياب اهل اليمامة الذين يبيعون الزعفران، عباءة واسعة، فوق كساء ازرق طويل، وعلى رأسه قلنوسة صفراء فيها خطوط من جميع الالوان

— ومن اختار له هذه الثياب ؟

ـ هو اختارها لنفسه لانه يعرف لبـــاس اهل اليامة كما يعرف اهل نجد

ـ ولكن اهـــل نجد يعرفونه وان تنكر لانه نشأ في ديارهم وفي البحرين

ـ اجل ، غير انه سيخلع هذه الثياب عند مـا يقارب نجداً ، ومع ذلك فهو الخبير بعادات اهل الجزيرة ولو شاء للبس هنـــاك في كل بلد ينزله لباس أهله ، ان هذا الفتى يا سليمى نابغة في الدهاء والادب كما هو فتى الحرب وفارس الخيل

ـ اراك تحدد ساعة خروجه من القصر كأنك الملك

نعم ، فقد استشارني واستشار اخـاه قيساً بالامر ، فوافقناه في الرأي وحددنا نحن الثلاثة ساعة السفر فلم يبق مجال للتغيير، اما الملـك فسيودعه غداً عند المساء ويصبح حراً في تعيين الساعة التي يغادر فيهـا القصـــر

ـ وكيف باح بالامر وهو سر من اسرار الملك ؟

فابتسم عاصم وقال : ان الملك لا يكتمني امراً يا سليمى ،وهو يثق بي وبقيس بن زهير الوثوق كله ، كما يثق بالحـــارسين الجديدين سهل وحزن ، ويرتاح الى محادثتهما والجلوس معهما ساعات طويلة لا يأمرهـما بالانصراف حتى يملّ او يدب النعاس في عينيه، انظري الى هذا السوط يا سليمى انه سوط الملك اعطاني اياه امس

: ولماذا ؟

ـ : لاني ألبسته رداءه قبل ان يخرج من قاعة الجلوس فأومأ الى

هذا السوط قائلا : خذه فهو لك ، انظري الى قبضته انها من الذهب ، هذه صناعة اهل الحجاز يا سليمى ، ولقد اعطى قيساً سوطاً يشبه هذا ولكنه اقصر ، أعطاه اياه وقال له: هكذا يكافيء الملك رجاله المخلصين الذين يكتمون اسراره ، فكيف تريدين اذن ان أبوح لابي بسر وانا اعلم انه الرجل الخائن وزعيم المتآمرين ؟

— : لان في ذلك خدمة العرش كما قلت لك فيما مضى ، اذهب الان وحدد له ساعة السفر كما حددتها لي ، واكتم سر التنكر ان شئت فهذا لا لزوم له ، ولكن احذر ان تخدعني يا اخي لان حياة السفير وحياة ذويه في يدك الان ، اذهب واتكل على الله فقد حان وقت انتصار الواجب على الحب .

فانصرف عاصم وهو يقول في نفسه : ان ابي واختي تكتنف حياتها الالغاز والاسرار .

• • •

وفي ليلة السفر عند ما انتصف الليل ، خرج من القصر الابيض ، بأذن من قائد الجيش ، فتى اسمر الوجـــه براق العينين ، يلبس عباءة سنجابية اللون ،تلمع تحتها قبضة سيفه الذي يخالف في شكله اسياف الجند العربي ،وفي يده القوس تحجبها عن العيون قطعة من قماش حالك السواد، وعلى جنبه الايسر ، تحت السيف ، جعبة سهامه الحادة ، والفتى خفيف الحركة جذاب الملامح يمشي مضطرباً كاللص يخيفه مر النسيم

وعند ما اصبح امام السور وقف قليلا يستعيد ذاكرته ،ثم اسرع خطاه متجهاً الى الجانب الجنوبي الشرقي ،في خط منبسط مستقيم وصف له حتى

كاد يصطــــدم لشدة اضطرابه ، بخيمة من اغصان الشجر تبعد مرحلتين من القصر .

اما الخيمة فالهواء يصفر في جانبيها وكل ما حولها يدل عـلى وحشة المكان القائمة فيه

توقف امامها وقد اصفر وجهه ، بالرغم من آثار الشجاعة الباديه عـلى جبينه .

وفي تلك اللحظة ، سمع ناقة تعجّ على بعـــد بضع خطوات ، فمشى قليلا ، فرأى وراء الخيمة ناقة عليها رحلهـا وفوقه اوعية الزاد والماء ، يقود زمامها رجل ملثم لا يبين من وجهه الا عيناه

فبهت الفتى ، ولو كان غيره في مكانه ، لملكت نفسه روعة الموقف وسقط على الارض من شدة الاضطراب

فقال له الرجل : أمستعد أنت ؟

فقال دون ان يتردد في الجواب : لو لم أكن مستعـداً لما رأيتني في هذا المكان الموحش ألبس ثياب السفر

فوضع الرجل يده على كتفه وقال له :

اخلع هذه العباءة والبس هذا الرداء فالرسالة فيه

— : واين هي ؟

— : في ردنه الايسر من الداخل

فلمس الفتى الرق بيده ولبس الرداء وهو ساكت

ثم قال الرجل : واعطني سيفك وقوسك وخـذ هذا الخنجر فضعه تحت ثيابك ولاتنس ما قلته لك

فتناول الفتى الخنجر واخفاه في ثيابه وقال: وانت أنسيت يامولاي؟
ــ : كلا فسليمى لك عندما تعود
ثم مشى عائداً الى القصر ولم ينتظر جواباً
فاخذ الفتى يتفرس في النجوم وهو يقول :
بقي من الليل ثلاث ساعات وسنلتقي عند بئر وهب اللات
وكان الرجلان ، ثعلبة بن هنب ورسوله عروة

• • •

وكثر الرجال المتحجبون في ذلك الليل ، فما هي الا ساعة، حتى اقبل على الخيمة شبحٌ يستر جسمه ، من رأسه حتى قدميه، كساءأسود كثيف لا تخترقه الابصار .

الليل ساكن هادىء، والقمر يرسل نوره الضعيف من وراءالغيوم، والسهل يسوده الصمت الرهيب فلا يسمع فيه غير همس انفاس الشبح المتقطعة الحارة وكلما حرك الهواء الاغصان اليابسة ، مدّ عنقه وارسل نظره الى الطريق يتبين القادمين

وقبل ان يبزغ الفجر فتح الحراس باب القصر الابيض الكبير، وخرج منه عامر واخواه ، وسفانة واهية القوى دامعة العين
ثم لحق بهم الى الفناء الخارجي، ولي العهد وعاصم بن ثعلبة ، فعرف الحراس الاشخاص الاربعة الا عامراً فلم يعرفوه

وأخذ القوم يتحدثون وسفانة تبكي ، حتى وصلوا الى « مناخ الجمال » فقال ولي العهد :
اما الآن فندعو لك يا عامر بالتوفيق

فرفعت سفانة صوتها في البكاء
فطوق عامر عنقها بيديه وقال :
لا تبكي يا سفانة فأنا أعود من سفري بعد شهرين ان شاء الله ، ثم همس في اذنها قائلاً : وعندئذٍ تزفين الى ولي العهد

ثم صافح المنذر وهو يقول الوداع يا مولاي الوداع يا عاصم وعانق الهويه طويلاً ثم افلت منهما ولم يترك للقوم مجالاً للقول
وقبل ان يبتعد ، ناداه ولى العهد قائلاً :
أتعرف الطريق يا عامر الى بئر وهب اللات ؟
: نعم يا مولاي اعرف كل شيء
ثم مشى لا يلتفت وراءه حتى توارى عن نظرهم فعادوا الى القصر والمنذر يسلي خطيبته ويعللها بالامال

وكانت الطريق في ذلك السهل الى بئر وهب اللات ، طريقاً واحدة مستقيمة لا منعرج فيها ولا يضلّها السالكون

فلما وصل عامر الى الخيمة ، انقشع الغيم فرأى على نور القمر ذلك الشبح الذي يجلله السواد، ماشياًنحوه متثاقلاً هادئاً يجر ذيل ثوبهالطويل فبسمع له صوت يفسد على السهل سكوته وهدوءه ، فبغت الفتى اولاً ولكنه عاد الى نفسه فجرد سيفه ووقف موقف الحذر

فوضع الشبح يديه على صدره وهمس يقول :
ارجع سيفك الى غمده يا ابن جناب فانا من الاصحاب ...
فازدادت دهشة الفتي وحدق اليه تحديقاً غريباً يريد ان يرى وجهه، فتراجع الشبح قليلاً وقال :

لا تحاول يا ابن جناب ان ترى وجهي لانك لا تقـــدر ان تراه وانا حي ...

وكانت لهجته لهجة الواثق الآمر ، والسحر يتجلىّ في صوته المنخفض العــــذب .

فاحسّ عامر بتأثير تلك النغمات الهادئة في نفسه ، فقال له :

من انتَ اذن ؟

قال : لو اردت ان أذكر لك اسمي لاظهرت لك وجهي ، أنا فتىً لم تره من قبل ارسلته اليك السماء ، فلا تزد

فحنى عامر رأسه لهذا الرسول السماوي وقال : سبحان من ارسلك اليّ في هذا الليل ، وماذا تريد مني ؟

ـ أتريد ان تعطيني ساعة واحدة طاعة عمياء لا تردد فيها ولا جدال كما تطيع الملك

ـ واذا ابيت ؟

ـ اذا ابيت عرضت نفسك وعرضت الملك للمخاطر

فقام في ذهن عامر انه احد رجال القصر بعثه الملك ليبلوه ويختبر اخلاصه .

فاخذ يقلب سيفه بيديه وهو يفكر في الامر

غير ان الشبح لم ينتظر جواباً، ولكنه مشى امامه متجهاً الى الخيمة وأومأ اليه ان يتبعه وهو يقول : قلت لك اننا صديقان فلا حاجـة لك الى هذا السـيف البراق ..

فاخفى عامر سيفه وتبعه ساكتا لا يفوه بكلمة
فخفض الشيخ صوته قائلًا :
ألست رسول الحارث بن جبلة الى الحيرة
ــ : نعم
ــ : وجفـــال بن سلمة ، الا ينتظرك الان في موضع يقال له بئر وهب اللات
ــ : نعم
ــ : اذن فاعلم ان سفيراً آخر ركب ناقته منذ ساعة وتقدمك الى ذلك المكان
ــ : ومن يمثل هذا السفير
: يمثل رجلًا من عظماء الدولة ، ويحمل رسالته الى ملك العراق
: فصاح الفتي مذعوراً . الى ملك العراق ؟؟
ــ : نعم وسيكون رفيقك في الجزيرة ثم يمشي بركابك الى الحيرة
اذن فهو صديق ونحن في سفارة واحدة
: بل هو عدو يخفي خنجره في ثوبه ، ويكمن الموت الاحمر في ردن ردائه
ــ : ولكنها الغاز لا أفهمها
ــ : ستفهم كل شيء بعد قليل فاسمع .
عندمـــا تصل الى بئر وهب اللات بعد ساعة تجد فتى في الخامسة والعشرين من عمره ، مليح الوجه جذاب الملامح ، تستتر تحت ملاحته طبيعة النمر الضاري ووحشية الذئب الخاطف

ـ : وهل توجد الوحوش الضواري بين الغسانيين ؟

ـ ليس الرجـــل غسانياً ولكنه غريب ، قضى نصف حياته بين اللصوص صعلوكاً جائعاً ، والنصف الاخر سفاكاً مجرماً ،يقتل الآمن البريء ليسلبه رمحه ويستحل دم اخيه في سبيل الحصول على ثوبه ، هذا هو رفيقك يا ابن جناب ، وفي غسان ، في بلاط الملك نفسه ، رجل نافذ الكلمة واسع الصوت لجأ اليه الفتى منذ عامين ، وأمسى له منذ ذلـــك الحين العبد الامين يقذف به الى اشداق الموت فلا يبالي

فهم عامر بالجواب ، فأسكته الشبح باشارة منه واستطرد قائلًا .

فلما اصطفى الملك بني جناب ، وقربهم اليه ، امتلأ صدر ذلك الرجل حسداً وحقداً ، وأخذ مع اعوانه يعدون العدة للقضاء على نديم الملـك وذويه ، متخذين اللص الذي ذكرت آلة لتنفيذ الحـــكم ، وسيكون ضحيتهم الاولى اصدق الفتيان وأشدهم اخلاصاً للملك وهو انت ،افهمت الان ؟

فبذل عامر جهده كلـــه ليخفي الذعر والاضطراب اللذين استوليا عليه ، ثم قال .

نعم اي ان الفتى النبيل الذي يرافقني في سفري سيقتلني غدراً !!

فابتسم الشبح من وراء حجابه وقال .

لو كان القتل كما ذكرت لهان عليك الامر

ـ وكيف يقتلني اذاً ؟

ـ انه يحمل من مولاه رسالة الى المنذر ملك العراق يقول له فيهـا انك جاسوس الحارث بن جبلة

– اذن فهذا الرجل الذي يقيم في قصر الملك يخون الملك !

– اجل وهو زعيم الخائنين ، وقد جاء في رسالته ايضاً عبارة اخرى لا يكون جزاوءك بعدها الا الموت طعناً بالرماح او في اعماق الفرات

– وما هي هذه العبارة؟

– هي انك قدمت الحيرة بأمر مولاك لتحتزّ رأس ابن ماء السماء

– وهل كتب الرجل في رسالته اسمه الكريم ؟

– نعم وهذا منتهى البلاهة والجهل

– واين يضعها الفتى ؟

– في ردن ردائه الايسر ، فعلى اي شي عولت الان ؟

– على اخذ الرسالة منه واذا ابى رجعت الى هذا السيف

اما انا فانصح لك ان لا تلطخ يدك بدمه

وكيف نفعل اذاً ؟

. ليجد ابن سلمة هذه المرة بكوبين من الخمر يشربها الفتى ، ليسكر ، ثم يستغرق في النوم ، فتعمد انت الى الرسالة فتأخذها ...

فقاطعه عامر قائلاً . ثم يستفيق من نومه فلا يجد رسالته فنعود الى السيف أليس كذلك

لا ، بل يجدها في موضعها كما كانت قبل ان ينام

وكيف ذلك ؟

قال ان الفتى لا يقرأ ، فاذا اخذت رسالته ووضت في مكانها رسالة اخرى فقد انقضى الامر

ثم ناوله رقاً مطوياً وقال له .

خذ هذه الرسالة فهي الـــتي اعددتها لهذا الغرض، خذها فأقرأها في وضح النهار مرتين وثلاث مرات ، ثم ضعهـــا في ردائه يوم يصرعه السكـر .

فتناول عامر الرق وقـال .

القضية اذا ، قضية استبدال رسالةٍ باخرى

ـ أجل ، ولهذا الاستبدال قوة كقوة السحر

ـ وما اسم الفتى ؟

ـ أسمه عروة ، الا تعلم انك يوم تقدم الحيرة يصبح أمرك بيده ؟

ـ بـــلى

ـ متي تم الاستبدال يصبح امره بيدك

فاطرق عامر لحظة ثم قال .

احسبني حذرت الان

ـ ماذا ؟

ـ ان هذا الرق الذي في يدي يثبت لملك العراق ان الجاسوس هو عروة نفسه

فتنفس الشبح الصعداء وقال .

بل يثبت له ان هذا الجاسوس انما قدم الحيرة ليقتله اويقتل ولي عهده

ـ اذا علي ان احتال لارى ابن ماء السماء قبل ان يراه

ـ نعم وتدله على موضع الرسالة حتى اذا قرأها بعث به على الاثر الى الفرات ، افـــلا يلذ لك ان يكون جزاء عروة نفس الجزاء الذي اعدوه لـك

- وهل تركت الرسالة غفلاً ؟

لا ، فالتوقيع واحد في ذيل الرسالتين وستراه

- ومن هو صاحبه ؟

قلت انك سترى توقيعه فلا تسألني عن ذلك

أتعرفه انت ؟

- لقد كتب لي ان اعرفه ، فهو صديق لي احبه ولكن لا احترمه

- وكيف يفضح المرء من يحب ؟

- اذا كان في الامر خيانه للملك نسيت كل شيء

- وهل انت من رجال البلاط ؟

- بل انا غريب لا اعرف البلاط الا منذ ايام

فاعتقد عامر انه سهل او حزن احد الحارسين الجديدين ، فقال .

يخيل الي اني اعرفك قبل الان ، ولكن كن من الجن فانا مدين لك بالحياة الا تذكر لي اسمك الان ؟

- ان اسمي سيظل سراً من الاسرار

- ولكن سليل بني جناب لا يرضى ان يكون مديناً بحياته لرجل لا يعرفه .

- ومع ذلك فانت مكره على الرضى لاني اودعك الان

وتظاهر الشبح انه يهم بالانصراف ، فاعترض له الفتى وقال :

لاتذهب من هنا الا ونحن متعارفان

فمد الشبح يده الى صدره ، فاخرج خنجراً ذا حدين وقال

اقسم برأس الملك انك اذا عدت الى التعرض لي اغمدت هذا الخنجر

في صدري فمت على قدميك ، وعندئذ ، عندئذ يصبح ابن جناب الذي اختاره الملك ليكون سفيره الى الجزيرة،ان هذا الرسول الامين يصبح خائناً مولاه وقاتلاً ذلك الذي جاء في هذا الليل ليخلص حياته من القتل

فرأى عـــامر صورة عزمة الثابت مطبوعة على رأس تلك الشفرة الحادة التي تبرق في يده ، فقال :

وانت ايها المحسن المجهول ، أتريد ان تسيء الى من احسنت اليه فتكتمه اسمك الى الابد ؟

قـــال : لا تتعجل الامور يا ابن جناب فسيأتي يوم تعرف فيه كل شيء ، والان فاقسم لي

— : اقسم بماذا ؟

— : بشرف ابيك ورأس الملك انك تنفذ كل ما اقوله لك، اتحسب اني افضيت اليك بهذا السر دون ان احتاط لنفسي ؟

فكره ذلك الفتى الابي ، ان يحفظ هذا الغريب حياتة ، ويعمد في حديثه معه الى الجدال ، فقال :

وهبت حياتي لك منذ الآن فقل ما تشاء، قال: اقسم لي انك تحتفظ بالرسالة الاخرى حتى تعود الى حوران

— وبعد ان اعود ؟

— آخذها منك

— ولكني لا اعرفك لاعطيك اياها

— سنجعل بيننا علامة للتعارف

ـ ما هي ؟

ـ عندما تقابل شخصاً ، سافراً او محجباً ، ويقول لك « انا صاحب رسالة الليل » فهذا الشخص يكون انا ..

ـ إذن هذه علامة التعارف

ـ نعم ،

ـ وبعد ذلك ،

ـ وأقسم انك لا تبوح لاحدٍ بالاسم الذي ستقرأه في الرسالتين ولو امرك بذلك الملك .

ـ اقسمت

واذا سألتك امراً فلا تتردد في تنفيذه ولو كانت حياتك ثمناً له

ـ اقسمت

فمدّ الشبح يده مودعاً وهو يقول :

الى اللقاء اذاً بعد شهرين انشاء الله

وعندما صافحه عامر احسّ ان يده ترتجف في يده ..

ثم أومأ اليه الشبح بالانصراف

فمشى الفتى لا يلتفت وراءه وذالك الرجل المتنكر يرافقه بنظره حتى حجبت الغيوم وجه القمر فاحتجب عامر عن العيون ، فاصيب الشبح بذهولٍ يشبه الاغماء ، ثم افاق بعد ساعةٍ وهو يقول :

قتلني الله فقد نسيت ابن سلمة فمن يضمن لي سكوته ...

• • •

يا ابن سلمة : يا جفال بن سلمة : اين أنت ؟

فاجابه جفال قائلًا : اني هنا مستندٌ الى رجل الناقة ،ومعي رفيق..
فقال عامر : مرحباً بالرفاق في هذا السفر الشاق ومن هو ؟
ـ رأيته مرةً في بصرى منذ عام ولا اعرف من هو
فتصافح الرسولان ، عامر وعروة وهما يبتسمان
ثم قال عامر : أمن حوران أنت ؟
ـ لا ، ولكن اجيئها كل عام استبضع الجلود فابيعها في الحيرة او في دمشق
ـ والى أين تذهب الان ؟
ـ الى نجد ومنها الى العراق ، ثم الى هجر لشراء التمر
ـ أمن نجد الى العراق ، ثم تعود الى الحجاز ؟ ولماذا ؟؟
ـ لان سوق التمر لا تروج في هجر قبل الشتاء
فقال عامر في نفسه : يظهر ان صاحبنا لا رأي عنده ولا دهاء ثم قال: وهل عرفت الحيرة قبل اليوم ؟
ـ أعرف العراق كله كما أعرف بلاد الشام
ـ اذن ستكون لنا فيها نعم الدليل ،
ـ وستغتسل في فراتها وتأكل من اسماكه ...
فارتجف عامر بالرغم من وثوقه وقال :
أما السمك فنعم الطعام ولكن الاغتسال في مياه الفرات لا يجوز في الشتاء .. ومع ذلك فسنرى

ثم أقبل نحو جفال وقال له : اسق الناقتين قبل الرحيل يا جفال ، ثم همس في أذنه قائلًا . ان صاحبنا يدعي عروة وهو عدو يخشى جانبه

لكن منه على حذر ››

كان عروة كثير العناية شديد الحرص على ردائـه ، اذا نام طواه لجعله وسادةً لرأسه وعندما يستفيق لا يلبسه قبل ان يمد يده الى موضع الرسالة يتلمسها فيطمئن .

كان ابن سلمة يقول لعامر : سآخذ الرسالة منه قبل ان نصل الى حدود نجد .

ففي ليلة صفت سماؤها واشتدّ بردها ، قال ابن سلمة لرفيقه عامر : أين نحن الآن ؟

فقال غداً عند المساء نمسي في بلاد نجد في منازل قيس عيلان

قال استقِ مني الليلة خمراً عندما نجلس للعشاء

وكان ابن سلمة بخيلًا بالخمر كما رأيت الى حدّ انه كان يشرب كل ليلة عشر أكواب لا يسقى منها رفيقه جرعة واحدة .

وصاحبنا عروة مثل معظم زملائـه اللصوص لا يرتوي من الخمر اذا قيّض الله له من يسقيه

فلما جلسوا للعشاء قال عامر :

ألا تجود علينا الليلة يا ابن سلمة بجرعتين من خمرة الشام ؟

فقال : انك من الاشراف ايها الرفيق ، والاشراف لا يشربون الخمر الا في مجالس الملوك

ـ وفي ليالي البرد

فاستطرد جفال قائلًا : ومع ذلك فأنت من الناس الذين اذا شربوا الكوب الواحد صرعهم السكر

ومن قال لك ذلك ايها الخبيث ؟

ـ رأيتك غير مرة تشرب في مجلس ابن جبلة ، فرأيت رأسك يثقل حتى يلامس صدرك ثم لا تمر ساعة حتى تغط غطيط النائمين ... وانا يا ابن جناب من الطبقة الاولى في السكر ، فلا أشارب الا السكارى الذين يبدأون الشراب في المساء فلا ينتهون منه الا عندما تطلع الشمس فان كنت من أهل السكر كما ذكرت فدونك الزق فاجرع منه ما تشاء والا فلا تشرب الخمر الليلة ابداً

فقال عروة وقد سال لعابه : أتسقيني يا ابن سلمة ؟

فاجابه ذلك الداهية قائلا

اذا كنت من اصحاب الملوك فلا ...

ـ اني من اصحابك الليلة وسأسقيك حتى الصباح

فقال : أحسنت فانت خير الاصحاب ،

ثم عمدا الى الزق فانزلاه واخذا يتساقيان وعروة يلج في الشرب حتى انتصف الليل فثقلت عيناه

فقال ابن سلمة :

أسكرٌ هذا يا عروة ام نعاس ؟

ـ انه نعاس يا ابن سلمة

قال : نحن قوم نعالج النعاس بالخمر ، اشرب يا عروة فالخمر في نجد غالية الثمن ولسنا من الاشراف الاغنياء .. اشرب ، فالزق لم نشرب نصفه ، ولا نغادر مجلسنا حتى يفرغ .. هذا ابن جناب قد نام وانت على ما أرى تحب النوم مثله .. ولكن الباقي من الزق من يشاركني فيه .؟

فقال عروة وقد عقد السكر لسانه .

ان هذا الكوب الصغير لا يبرد جوفي الملتهب ، فاعطني الزق قتلك الله ، فناوله ابن سلمة الزق فوضع فمه على فمه واخذ يشرب شرب الناهل المغلول حتى سقط صريعاً على قفاه

فاخذ ابن سلمة الزق فربطه وهو يقول :

لو عرفت انك تحب الخمر الى هذا الحد يا لعين لما سقيتك . قم يا ابن جناب فقد دفعنا زق الخمر كله ثمناً لرسالتك

فقال : اخفض صوتك يا خبيث فقد يستفيق

قال : اذا نزعت لسانه من حلقه فلا يستيقظ

ثم عمد ابن سلمة الى الرسالة فأخرجها من ردن الرداء ودسّ عامر رسالته في ذلك الموضع الخفي وناما حتى الصباح

اما رسالة عامر فهذا نصها :

« الى خادمنا عروة المقيم في معان : »

« اذهب الى الحيرة واقتل ملكها تنفيذاً للاتفاق الذي تمّ في بصرى ، فان فاتك الملك فاقتل عمراً ولي عهده » التوقيع : « ثعلبة بن هنب »

وعندما اخرج جفال رسالة عروة ، ادناها من السراج وقرأ سطورها بينما كان ابن جناب يدس رسالته ...

اما عروة ، فلما فتح عينيه في اليوم الثاني صاحياً من سكره ، مدّ يده الى كمه يتلمس رسالته ، فاذا هي لا تزال فيه وخيوط اللباب مشدودة الى ذلك « الجيب »

- ٢٧ -

وعند الظهر وصل الرفاق الثلاثة الى حـدود نجد ، فرأوا طوائف الغنم والنوق تغطي ذلك السهل الاخضر النضير، الذي يؤدي من الجنوب الشرقي الى منازل قيس عيلان ، ومن الجنوب الغربي الى منازل ذبيان، ورأوا الرعيان والفرسان يطوفون حولها بالسلاح وكلما أبصروا في صدر البر شبحاً اقبلت عليه الخيل :

فقال عروة لرفيقيه :

لا أرى القوم يحمون النوق في نجد الا لامرٍ غريب ، اما في رحيل او في حرب .

فقال عامر : لو كانوا في رحيل لرأينا نساءهم بين الصفوف ، ولكنهم في حرب على ما ارى

وقال ابن سلمة : وكيف يستقبلنا القوم اذاً ؟

قال عامر : كما يستقبلون كل ضيفٍ غريب وانا اعرف عاداتهم ، اتبعاني على مهل

ثم ساق ناقته الى قطعةٍ من النوق منفردة اطلقها الرعاة في ذلك الجوار

فلما رآه الرعيان والفرسان انكروه
فقال له احدهم : من أنت يا رجل ؟
فقاطعه الآخر قائلا ، رجل من اليامة ، أفلم ترَ عباءته ، وقال آخر :
وهو انه يبيع الزعفران ...
ثم امسكوا زمام الناقة فاناخوها وقالوا أتبيعنا الزعفران ؟
قال : نعم وكرامة
ـ ولكن نشتري الحمل بدينارين من دنانير كسرى
ـ بل بخمسة من دنانير اليمن
ـ اجعلها ثلاثة
ـ خمسة لا تنقص نصف درهم
وبينما هم يتساومون ، اذا بفتيين في ميعة الصبا وزهرة الشباب ، أقبلا على فرسيهما ، فتنحى القوم ، فقال احدهما :
أرى رجلا غريباً يبيع الزعفران
فأجابه أحدهم : نعم ايها الامير ويبيعنا درهماً بدرهم
فقال عامر : رضيت ببيع ما معي بخمسة دنانير من دنانير ابرهة الحبشي .
فقال له الفتى : وأنا اشتريت بعشرة فالكريم لا يساوم ، انصرفوا يا أصحاب فبائع الزعفران ضيفي منذ الان
فشكر عامر واثنى ثم قال : وتابعي ورفيقي ايها الامير ؟
ـ ننتظرهما حتى يقدما
فانبرى الفتى الاخر يقول :

ينزل عليّ واحد من الجماعة

ثم اقبل ابن سلمة على ناقته السوداء وخلفه عروة ، ففاجأهما عامر ، قبل ان يفسدا عليه أمره قائلًا : نحن جميعنا ضيف على هذين الاميرين

- اركبوا ايها الضيوف

فركب الثلاثة افراساً لا سروج عليها ، وقاد الرعيان النوق ومشى الجميع الى منازل قيس عيلان

اما الاميران الشابان ، فهما اخوان لامٍ واحدة هي مارية بنت الحارث الكندي واخت معدي كرب ، امير قيس عيلان الاكبر

وكانت منازل القوم في ذلك الحين ، اكواخاً وخياماً لادور في تلك البقعة الواسعة ولا قصور الا ما كان يرى في اليمامة من قلاع وحصون هي بقايا طسم وجديس ، القبيلتين البائدتين

فأنزلوا الضيوف في خيمتين ، عروة ومعه ضيف آخر من « النباج » في خيمة ، وابن جناب وابن سلمة في خيمة اخرى ، والخيمتان لا تبعدان عن خيام الامير

وعند المساء اختلى عامر بصاحبه الفتى وتحدثا سراً أكثر من ساعتين خرج الفتى بعدهما الى منازل خاله

ثم عاد قبل ان يجنّ الظلام ، فقال لعامر :

قلت لخالي انك رسول ابن جبلة فاذن لك في المثول بين يديه وكان معدي كرب بن الحارث الكندي ، امير قيس عيلان « وقد مرّ ذكره في الاجزاء الاولى » اصغر انجال الحارث ، وهو في الخامسة

والثلاثين من عمره ، طويـــل القامة أبيض الوجه كبيره ، يعقد شعره بجديلة واحدة يرسلها الى كتفه اليسرى ، وهو قنوع لا يحب ان يتعب نفسه في قتـال ، وراض بما قسمت له الاقدار من سلطان

فلما دخل عامر ، رآه جالساً في زاوية من زوايا خيمته ، وامـامه إنبيل فيه تمر يأكل منه ويطرح النوى في يدي عبدٍ قاعد القرفصاء الى جانبه لهذه الغـاية

فقال عامر في نفسه : لا خير في امير يقابل سفراء المـــلوك وهو يأكـل التمر

ثم سلم ، ولكن معدي كرب كان أديباً اذ قـال : أهلًا بالضيف رسول ملك الشام ابن جبلة ، اجلس هنا وكل من تمر هجر

ثم قال : وماذا يريد منا ملـك الشام ؟

فالتفت عـامر الى العبد لا يريد ان يفضي بسره وهو قاعد

فقـال معدي كرب : قل ما تشاء ولا تخف فعبدنا مقطوع اللسـان

قال : ان مولاي الملـــك يعرف أحوال نجد كما يعرف احوال دولته وقد عزّ عليه فيما مضى ان يسترجع ابن ماء السماء تاج ملكه ويطرد أباك الحارث بن عمرو من الحيرة، ولو عرف ، في ذلك الحين ، ان كسرى سيـأمر بردّ المنذر الى العرش ، لقدم العراق بجند الشام يمنع هذا اللخمي من الوصول الى العرش

– ولماذا يحبنا ملـك الشام ؟ بل لماذا يهرق في سبيل آل كندة دم رجـاله ونحن لا نعرفه ؟؟

– لان ملك ابيك الحارث ، كان ملـك سلام وراحة للعرب ،

وملك ابن ماء السماء ملك قتالٍ وتعب

ـ اذن فمولاك لا يهتم الا لمصلحة العربان

ـ أجـــل ، وهو يريد ان يكمّ فم الغول العراقي كي لا يبتلع خراج الجزيرة كما يبتلع خراج العراق

فابتسم الامير قائلًا : ولكن لا بد لعرش الحيرة من رجـــل يتربـع فيه فمن هو هذا الرجل ؟

هو ابوك الحارث ، يخرج من بني كلب خروج الغالب القادر ، ويعيد اليه مولاي تاج الحيرة اذا عاهدتموه انتم على الوفاء

ولكن ابي قتل في بني كلب ولم يعرف من قتله

قالها الامير والسكينة بادية على وجهه

فدهش عامر لهذا المظهر الغريب ، ولكنه أراد ان يقرأ افكاره الى النهاية ، فقال .

ومتى قتل ابوك ؟

ـ : منذ زمن طويل فخابت بموته آمال مولاك

ـ ولكن الامراء الاربعة الذين يبسطون نفوذهم عـــلى قبائل نجد واليامة وبعض بادية العراق ، هم اولاد الحارث رحمه الله واحدهم انت ، فبدلاً من ان يجلس الحارث على عرش الحيرة يجلس احد انجاله بقوة جيش الشام وانا اضمن له ذلك ، واذا اعوزنا المال فالمال وافر ، أفلا يجوز ايها الامير ان تكون انت خليفة ابيك على عرش بني لخم ؟

فملأ الامير فمه من التمر واستغرق في الضحك

قال عامر : ولماذا تضحك يا سيدي الامير ؟

قال اضحك من مولاك ملك الشام لانه يستسلم للاحلام واضحك منك لانك تحسب هذا الملك الهاً يدك عرش العراق ساعة يشاء ، واضحك من نفسي لاني اصغي الى حديث لا معنى فيه ولا فائدة منه فاعلم الآن، ان الغرور لا يملكني الى حد الاعتقاد اني اصلح لذلك العرش العظيم ، ولفظه التاج لا تستهوي اميراً مثلي قانعاً بامارته راضياً بشعبه ، لا يتدخل في امر من امور جيرانه، ولا يهتم لما يجري خارج قيس عيلان من شؤون وسياسات

لقد جاءنا نعي ابينا ونحن في منازل « ذبيان » فأكبرنا الخطب بالكندي الجبار الذي شرف قومه وبلاده ، ولكن لم نبعث احداً الى دومة الجندل يسأل بني كلب عن قاتله، واليوم ، وشرحبيل اخونا امير بكر ، واخونا سلمة امير تغلب يتحاربان متزاحمين على النفوذ ، ومع ذلك فلم نكتب اليهما كلمة ولم ننقل في سبيلهما قدماً ، كل ايها الرسول الامين من تمر الحجاز فليس احسن من المرء الذي يرضى بالقليل من دنياه. وقل لمولاك ان معدي كرب لا يطمع بما يطمع به امراء العرب من عز وسلطان ، يهمنا ان يكثر الغيث فيكبر النبات ويلتف وتدر النوق والغنم .·. وليقتل الاخ اخاه والولد اباه فهذا امرٌ لا يعنينا ، ونحن لا نشقى في سبيل الحصول على عرض يزول ومجد لا يبقى ، نحافظ على حيادنا ونسهر على بلادنا، ونصون مواشينا وارزاقنا لا نتعدى على احد ولا نرضى ان يتعدى علينا الناس، أفلم تر نوقنا ترعى ورجالنا يطوفون حولها للحراسة؟.. ولماذا نفعل ذلك؟ لكي لانجعل لجماعات اللصوص والسلابين سبيلاً الينا فنضطر الى امتشاق الحسام

اما المال فلا حاجة لنا اليه ايها الفتى ، الحب والسمن كثيران وعندنا

من الصوف ما يملأ بلاد اليمن ، والبيع كله من نجد بيع مقايضة يعطينا اهل الحجاز سلاحهم فنعطيهم من الصوف ، وتفد علينا وفود البحرين بسروج الخيل فيأخذون السمن والشعير ، امـا الخراج فهو يكفينا كل عام ولا يصيب ابن ماء السماء منه الا القليل .. ومع ذلك فليأخذ منه ما يشاء فهو صهرنا زوج اختنا هند وما كنا لنبيع هنداً بقبضة من المال ، فليبق مولاك مال الشام للشام، والا فهؤلاء اخوتنا الثلاثة فاختر احدهم للاتفاق الذي جئتنا به ، فلعلهم جميعهم طلاب اموال وعروش

فعرف عامر ان الحديث قد انقضى ، ان ذلك الامير الخامل الجبان يأمره بالانصراف

فنهض يحاول الخروج ، فاستوقفه الامير قائلا :

امكث في بيت الضيافة شهراً ان شئت ، ولكن لا تعد الى ذكر العروش والتيجان .

فانصرف عامر وهو يقول في نفسه :

ينبغي لمن يحدثك بامر . ان يحمل على رأسه زنبيلا من تمر هجر ، .

وبعد رجوعه الى خيمته قال له ابن سلمة :

لقد كان الفشل نصيبك يا عامر فحدثنا بما رأيت

ـ وكيف عرفت ذلك ؟

ـ لانك قبل ان تدخل على الامير كان عروة قد خرج من عنده .

ومكث القوم في ضيافة قيس عيلان ثلاثة ايام ثم خرجوا قاصـدين « النباج » وفيها شرحبيل بن الحارث امير بكر

وكان عروة يحدث نفسه فيقول : طف في بلاد العرب يا ابن جناب

وحدث امراءها بما تشاء ، فكلما دنوت من الحيرة دنا منك الموت

ومروا ببني أسد ، فكان اميرهم حجر بن الحارث وابنه امرؤُ القيس « الشاعر المشهور » غائبين ، فانتظرهما عامر شهراً كاملا فلم يرجعا

وكان بنو أسد ، فتيانهم وشيوخهم ، يتناقلون اخبار الحرب بين سلمة امير تغلب وبين اخيه شرحبيل امير بكر ، وهم واثقون ان ابن ماء السماء هو الذي اوقد النار بين الاخوين

ولم ينقض الشهر حتى سمعهم ابن سلمة يتهامسون قائلين :

« ان ابن جناب ، احد الثلاثة الغرباء ، ذاهبٌ الى الحيرة بامر الحارث الغساني ليقتل ملكها ابن ماء السماء » ، وتلك شائعة نشرها عروة في بني اسد ، فجاوزتهم الى بني غطفان ثم الى بني طي باسرع من العاصفة

فلم يرَ عامر بداً من الرحيل في ليلة مظلمة باردة تساقط فيها المطر رذاذاً

ورافقهما الى خارج المنازل ، عبد من عبيد حجر ، فلما قاربوا منازل طي قال لهما : عندما نزلتم علينا كنتم ثلاثة وانا لا اري الان الا اثنين

فقال عامر : ان الرفيق الثالث لم يزل بينكم وهو سيلحقنا بعد قليل فقل له اذا رأيته انا تقدمناه الى النباج

قال : وأيكما ابن جناب ؟

قال عامر : انا هو ؟

فقال : اذا قتلت ابن ماء السماء فقد قتلت داهية العرب وشيطانهم ، اذهب وفقك الله

ثم قفل راجعاً الى بني قومه

فقال عامر لجفال : يظهر انصاحبنا عروة يريد ان يملأ البلاد اخباراً قبل ان نصل الى الحيرة

ومشيا ساعتين طويلتين دون ان يعرجا عـــلى بني طي حتى طلع الصباح ، فاعترض لهما فارسان ، احدهما شيخ تتلألاء نقط الماء عـلى شعر لحيته الابيض ، والاخر فتي في مقتبل عمره ، فقال الشيخ :

أمن بني اسد انتما ؟

قال عامر : ولكن كنا ضيوفهم

– وأي بلدٍ تقصدان ؟

– النباج اولاً ومنها الى الحيرة

فاخذ الشيخ يتفرس في عامر وقد بدت على وجهه دلائل الاستغراب ثم قال له :

اذا شئت فارفع هذة القلنسوة عن راسك

وكان عامر لم يزل بلباس اهل اليامة ، فقال للشيخ : ولماذا ؟

– لاني ارى في هذا الوجه صورة رجلٍ ابعدتني عنه نوائب الزمان

فرفع عامن قلنسوته

فسقطت دمعة على خد الشيخ وصاح قائلا :

اتعرف زهير بن جناب الكلبي يا فتى ؟

فتردد عامر قليلا في الجواب ثم قال : نعم وانا ابنه

– أعامر أنت ؟

– نعم

فكاد يثب على ظهر فرسه من شدة الفرح ، ولكنه ملـــك نفسه وقال : أأبوك حي ؟

نعم

فترجل الشيخ بخفة الفتيان وهو يقول : الحمـد لله فقد عثرت اخيراً على مكان أخي ومولاي

ثم اخذ يقبل عباءة الفتى وقدميه

وما كاد عامر ينيخ ناقته حتى ضمه الشيـــخ الى صدره وهو يشرق بالدمع .

فاستولت البغتة على عامر

واخذ ابن سلمة يقول وهو يبتسم : انه صباح خيرٍ ان شاء الله

ثم قال عامر : أتريد ان تعرفني باسمك يا ابي ؟

قال : الم يذكر لك ابوك اسماء انصاره المخلصـين الذين دافعوا عن امارته حتي تكسرت اسيافهم وصبغ الدم ثيابهم ،

– بلى ، وهو يردد دائماً اسم رجل من بني جديلة كان عوناً له عـلى اعدائه ، يدعي ... صعصعة

فقال : انا هو ذلك الرجل ، فاجلس يا بني واذكر لي اسم رفيقك

– هو جفال بن سلمة من الشام

فأومأ الشيخ الى تابعه قائلا . وهذا ولدي « جذع » وهو من عمرك

فصافح كل منهم الاخر وجلسوا على العشب الذي يبله الماء

واخذ ذلك الشيخ يقص قصته قال :

كنت اجمع الخراج لابيك يا بني يوم كان صاحب نجد ، وكنت رفيقاً له في اسفاره وتابعه في حروبه ، وكنت يا عامر طفلا ، فلما ضرب الدهر ضربته قال لي ابوك : انا ذاهب الى اليمن وسأعود ، ولكنه لم يرجع الينا بل ترك اليمن الى البحرين ، فكرهت الاقامة في بلاد لا تعرف اقدار الرجال ، واقمت في « ذو طلوح » بضع عشرة سنة ، ثم انتقلت منها الى تغلب وانا فيهم الى الآن

فقاطعه عامر قائلا :

وكيف حال سلمة امير تغلب ؟

— : وهل تعرفه انت ؟

— : لا ، ولكن سمعت انه ذو شأن بين العربان

فهز ذلك الشيخ رأسه وقال : ليس في ابناء الحارث الكندي من يصلح الامارة ، كلهم جبناء مستضعفون ، يطرد ابوهم من الحيرة ثم يقتل في بني كلب ولا يثأرون له ، سلمة لا يهتم الا لطيالسته الخضر[1] يرسلونها اليه من العجم ، وحجر سيد بني اسد يقضي نصف ايامه بعيداً عن قومه ، يشتري الخيل والدروع لنفسه ، وابنه امرء القيس ينظم الشعر فتتناقل شعره نجد واليمن والحجاز والعراق ، ومعدي كرب يصبح ويمسي بين زنابيل التمر ، اما شرحبيل فقد قتل ، وسيلحق به اخوته بعد قليل فيصبح ملك الحيرة سيد العرب جميعاً وهو لذلك اهل

فقال عامر : من قتل شرحبيل يا ابي ؟

— : رجال اخيه سلمة ، فلقد اغرى ابن ماء السماء بين الاخوين

---

(١) جمع طيلسان وهو كساء مدور

متحاربا ، وطالت الحرب بينهما حتى قتل شرحبيل منذ ثلاثة ايام في «يوم الكلاب» غير ان اخاه سلمة حزن عليه حزناً عظيماً ولكن بعد فوات الاوان، وادرك عندئذٍ ان المنذر انما اراد ان يقتل بعضهم البعض الاخر ليخلوا له الجوّ وقد سمعت اليوم انه سيترك تغلب ويلجـــأ الى بكر ، قوم اخيه، فراراً من ذلك الطاغية العراقي، وانا الآن احمل الى الاخوين معدي كرب وحجر نعيّ اخيهـــما شرحبيل ، وادعوهما باسم ابن ماء السماء الى السكون والاخلاد للطاعة

أمن رجال ابن ماء السماء انت؟

ـ نعم ، واين يقيم ابوك ؟

في بلاد الحارث بن جبلة الغساني

فتلفت صعصعة يميناً وشمالاً ، ثم خفض صوته قائلا: هذا عدو ملكنا وسيتفرغ لحربه بعد ان ينقضي امر هؤلاء الامراء الجانيـــين ، ولماذا تركت اباك يا بني ؟

ان حوران بلد ضيق لا تطيب الاقـــامة به الا لامثال ابي الذين جاوزوا الثمانين ، اما انا فلم اخلق الا للطواف في بلاد العرب وبـــذل الحياة في سبيل المعالي والفخار ، فابقيت لابي اخي قيساً واختي سفانة ، وقدمت نجداً فلم أرَ في نجد غير معدي كرب المتمرغ في اكوام التمر كما ذكرت .

فأومأ صعصعة الى جفال وقال : وهذا ما هو غرضه ؟

ـ كان خادماً في قصر ابن جبلة ، فطرده من خدمته وهدده بالقتل اذا بقي في الشام

ـ احسنت فيما فعلت يا بني فالاقامة بين جُدر القصور شان الخاملين أتقيم في العراق ؟

ـ اذا كان المجال واسعاً لهذا السيف فعلت والا ذهبت الى البحرين او الى اليمن .

ـ سأسعى في حاجتك يا بني وسيكون لك ما تريد ان شاء الله ، والآن فانا ذاهب لقضاء مهمتي ولا اغيب اكثر من ثلاثة ايام ، فارجع معها يا جذع الى النباج وانتظروني هناك

قال هذا واطلق لفرسه العنان

فسار الثلاثة في طريق النباج واخذ عامر وجذع يتحدثان وكل منهما يدعو الآخر اخاه

• • •

وعرف عامر ان مهمته عند امراء نجد متبوء بالفشل ، لان هؤلاء الامراء ، وان ظلوا احياء، لا يصلحون للمعاهدات ولا يقيمون لاتفاق الملوك وزناً

فعمد الى رأي آخر وَكلَ الى صعصعة صاحب ابيه امر تدبيره .
ان صعصعة وحده ، يقدر ان يمهد له سبل الوصول الى المنذر ، ولا بأس اذا هو جرد السيف في خدمة الملك العراقي ليستميله اليه ، ولكن يجب في مثل هذه الحال اغتنام الفرص ليفاجىء ذلك الملك الجبار بمظهر من مظاهر اخلاصه ، فقد تخلب المفاجآت الباب الملوك الفاتحين

وماذا يهمه امر الامراء الكنديين ؟ ، انه ترك بلاد الشام ليخدم

عرش مولاه ، فاذا فاتته الخدمة من هذه الجهة ، عمد الى جهة اخرى فيها نفع لذلك العرش .

وشاءت الاقدار ان تصدق الاشاعة القائلة ان سلمة سيلجأ الى بني بكر فبعد مضي عشرة ايام على مقتل اخيه شرحبيل، قدم القوم واظهر لهم نفسه ، فرحبوا به وقالوا : لا يملكنا أحد سواك

تلك كانت احوال القبائل في نجد، تحارب الرجال ثم تعترف بسيادتهم ثم تنبذ طاعتهم على مر الايام والاعوام

فبعث ابن ماء السماء الى بكر يدعوهم الى طاعته ، فأبوا « فحلف ليسيرن اليهم فأن ظفر بهم ليذبحنهم على قمة جبل اوارة حتى يبلغ الدم الحضيض »

وكان المنذر في ذلك الحين نازلاً باطراف بادية العراق لجهة الشرق في موضع يقال له «الحفير» واقع جنوبي وادي السباع

فقال صعصعة لعامر ورفيقه . ان ملك الحيرة سيهاجم بكراً فهل لكما في القتال ؟

فاجابه عامر قـــائلًا . اجل ونحن من رجال ابن ماء السماء نفديه ببذل الدماء

اذن هيا بنا الى الحفير قبل ان يزحف الجيش ، وساروا من ساعتهم فوصلوا اليهـــا بعد ثلاثة ايام قبل طلوع الشمس ، وكان الجيش يتحفز للوثوب على بكر ، والسهل حوالي الحفير يعج بطوائف العربان، كتيبة تروح وكتيبة تجيء ، هذه على الخيل والاخرى على الاقدام ، وكتيبة

الفرس على الافيال تحجب السهل عن العيون ، وذلك الطاغية العراقي على جواده، يعرض جنده عرض عين ، ويصـــدر اوامره بصوتة الجذاب ولهجته الساحرة .

فوقف الرفاق الاربعة بين الصفوف واخذ ابن سلمة يجيل نظره باحثاً عن عروة فلم يره

وعندما مدت الشمس شعاعها فوق الحفير لجأ الجيش كل كتيبة الى مضاربها ومشى المنذر خافه رجاله الى فسطاطه العظيم

فتصدى له صعصة قائلًا : لقد عدت يا مولاي

فنظر اليه مبتسماً وقال : ولكنك تأخرت يا صعصعة فهل نعيت شرحبيل لاخويه ؟

ـ : نعم يا مولاي وكان حجر غائباً في تيماء يزور صاحبه السموأل بن عـاديا .

: وماذا قال معدي كرب ؟

ـ : لم يزد على قوله : رحمه الله ...

فظهرت على وجه الملك دلائل السخرية والاستخفاف ثم قال : ستنعي لهما بعد اسبوع اخاهما سلمة ، ومن هذا الذي معك ؟ واشار الى عامر

قال : هو من بني كلب ابن ذلك الامير النبيل زهير بن جناب وهذا رفيقه جفال بن سلمة من اهل الشام

ومتى قدما ؟

ـ : الان ، وسيحاربان تحت راية الملك

فصعد المنذر بصره فيهما وصوبه ، كالناقد الخبير يستعين بفراسته ليعرف محدثه ، ثم قال :

لي في هذين الغريبين رأي، فليبقيا حتى تنتهي الحرب وانتضامنها، ولوى الحارث عنق جواده وهو يقول لرجاله . زهير بن جناب الكلبي لديم الحارث بن جبلة اليوم !!..

وبعد يومين زحف المنذر بجموعه الى بكر ، فقيل له انهم في اوارة «بلد في اليامة لا يبعد عن الصعاب»

فسار اليهم والتقوا هناك، فاقتتل الفريقان قتالاً شديداً أبلى فيه عامر وابن سلمة البلاء الحسن والملك يراهما وقد اعجب بهما

وانتهت الواقعة بهزيمة بكر واسر يزيد بن شرحبيل ، وقتل عمه سلمة ، فامر المنذر بقتل يزيد فقتل وقتل معه خلق كثير

اما الاسرى فكانوا جماعات، فامر ابن ماء السماء بهم فذهبوا فذبحوا على جبل اوارة فجعل الدم يجمد ، فقيل له . أبيت اللعن لو ذبحت كل بكري على وجه الارض لم يبلغ دمهم الحضيض ولكن لو صببت عليه الماء » ففعل فسال الدم ، ثم امر بالنساء ان يحرقن بالنار

« وتسمى هذه المعركة في تاريخ العرب يوم اوارة الاول »

وتراجع المنذر الى بلاده ، فخيم في اليوم الاول في الصعاب ، ثم في جدود ، ثم في الغبيط الى ان انتهى الى منازل ضبيعة في اليوم السادس فاستراح هناك ، وجمع رجال مجلسه يستشيرهم في امر الاخوين الباقيين ، حجر ومعدي كرب ،

فقال بعض رجاله وهو من بني اسد :

ان حجراً سيبعث جباته لجمع الخراج في هذا الشهر « الشهر الثاني من الشتاء » فماذا نفعل يا مولاي ، انمسك عن ادائه

فرفع ذلك السفاح رأسه وقال :

العصيان وحده لا يكفي ولكن اقتلوهم ، واذا لجّ حجر في الطلب فاقتلوه ايضاً فخير لنجد ان تسودها الفوضى من ان يرأسهـــا الامراء المغفلون .

أما انا فسأكون في الحيرة بعد عشرة ايـــام ، فأن لم تطردوا من بلادكم هؤلاء الكنديين وترجعوهم الى حضرموت ، فلا تعد الى الحيرة لاني لا احب ان يكون بين رجالي الضعفاء الاذلاء

ولكنّ بني اسد لم يكونوا بحاجـة الى الاغراء ، فلما قتل الاخوان سلمة وشرحبيل ودالت دولتهما، ضعف نفوذ الاثنين الاخرين وتضعضعت احوال الامارتين .

واجتمع بنو اسد على خلاف حجر ، فقالوا نبدأ بنبذ الطاعة ثم نضرب الجباة فنرى ما يكون

فلما ضربوا جباته ، تنكر الرجل وغضب وحمل على العصاة بجند من ربيعة فأعمل فيهم السيف واباح الاموال وحبس الاشراف ، بينهم عبيد ابن الابرص « الشاعر الجاهلي »

فقال القوم لعبيد : اليوم يومك يا شاعر بني اسد

فقال عبيد شعراً يستعطف حجراً فرق لهم وبعث في اطلاقهم ، فلما

خرجوا ، خرجوا على وغرٍ في الصدر فلما وصلوا اليه قتلوه طعنا وانهزم رجـــاله .

وكان امرءُ القيس لا يزال غائباً ، فلم علم بقتل ابيه رجع وهو يعلم عجزه عن الاخذ بثأره ، لان عدوه قوي لا قِبَل له بـه ، واذا عرف ذلك العدو مقره فعل به كما فعل بأبيه(١)

« فتنكر ذلك الشاعر العظيم ، الذي يملأ ذكره الخافقين ، والذي يردد الجيل العشرون شعره الخالد منذ الف وحوالي اربعمائة سنة» واخذ يطوف في اليمن ونجد والحجاز يستجير ويستغيث فـلم يجره احد ولم يغثه احد .

فلجأ اخيراً الى السموأل بن عاديا صاحب حصن الابلق بتيماء « بلدة بين الشام والحجاز» فاستجاره فأجاره ثم استودعه دروعه واشياءه وخرج يفتش عن مرجع يستنصره على عدوه القاهر .

---

(١) العرب قبل الاسلام

- ٢٨ -

قتل النهديين

ـ ندم الملك وغضبه ـ

وانتقل بلاط الحارث الى بصرى ، فانزل الملك سهلاً وحزناً ولدي رزاح بالمكان الاثير منه ، ينادمانه ويحادثانه وهو يسمع لهما ويبرهما .

وهما من ، ذات عرق ، ارسلهما والدهما رزاح ليصيبا له مالاً ، فقدما حوران قاصدين الحارث الوهاب اندى ملوك العرب يداً وابعدهم صوتاً

هكذا قالوا للملك فصدقهما ولم يكن سريع التصديق من قبل

ولكنها ساعة من تلك الساعات السود التي يستتر فيها القدر الاهوج ثم لا يلبث حتى يخرج الى الوجود فيهدم ويدمّر ويذلّ

وكانا من ادباء العرب وشعرائهم ، والملك يحب الادباء والشعراء

فحسدهما زهير بن جناب ، ولماذا لا يفعل وهو صاحب الرأي الاول في البلاط ويخشى ان يحطه الملك من منزلته العالية . ولكنه لم يجسر على ان يقول شيئاً .

ولم يطل الامر حتى توثقت عرى الصحبة بين الرجلين، وبين ثعلبة بن هنب فأخذ الخبيث يغري العداوة بينهما وبين النديم ، وينمّ الكلام ما شاءت النميمة والافساد .

فبعد شهرين ، في ليلة من ليالي الشتاء، بينما كان الاخوان جالسين في قبة من قباب القصر ، سمع ابن جناب احدهما يقول للاخر « ان ابن ماء السماء لا يرضى» وهي عبارة بتراء كما ترى لا يعرف السامع أهي لخير ام لشر ، وتنصت بعدها فلم يسمع شيئاً

فقام في ذهنه ان الرجلين من جواسيس الحيرة

فقال للملك في اليوم الثاني : « هما والله ايها الملك عين لذي القرنين عليك « يعني المنذر الاكبر » وهما يكتبان اليه بعورتك وخلل ما يريانه منك »

فلم يصدق الملك ، ثم اعاد ابن جناب قوله في خلوة ثانية فلم يصدق، فلم يزل به حتى اوغر صدره

«وكان الملك اذا ركب ، يبعث اليهما بعيرين يركبان معه ، فبعث اليهما يوماً بناقة واحدة ، فعرفا الشر ، فلم يركب احدهما وتوقف ، فقال له الآخر

«الا تجللها يعالوك فوقها وكيف توقى ظهر ما انت راكبه

فركبها مع اخيه ، ومضي بها فقتلا(١)

ونام الملك ليلته فحلم حلماً مزعجاً رأى الاخوين في حفرتها يبكيان

---

(١) الاغاني

ثم يرفعان رأسيهما ويستغيثان ، فاثر الحلم في نفسه واستيقظ نادماً وقد امتلأ صدره من الغم

فلما اصبح دعا لبيد بن عمرو الى قاعة الجلوس وقال له : ارأيت ما لبيد ان سهلا وحزناً هما من رجال ابن ماء السماء ؟

فقال لبيد : لم ارَ شيئاً من ذلك يا مولاي

ولم يكن لبيد يعلم ان ابن جناب هو ذلك الساعي بهما

ثم دعا الملك عاصم بن ثعلبة وسأله ، فقال ما قاله لبيد

ثم اقبل قيس بن ثابت وثعلبة بن هنب فأخذ الاثنان يشيدان بذكر القتيلين ويثنيان على ادبهما واخلاصهما للملك وهما يعلمان انهما ينفثا السم.

ولما جاء ولي العهد وجبلة كانا من رأي الجماعة

فكاد الملك يقتله الندم وصدره يغلي كالمرجل من الغضب

وقبل ان يدعو ابن جناب دعا ولده قيساً وسأله عن سهل وحزن فقال :

ما كنت لاسعى بالنـــاس يا مولاي الا اذا لمست الخيانة بيدي ، ولكن في امرهما شك

فظن الملك ان الفتى على وفاق في الرأي مع ابيه ، فقال له وغضبه يكاد ينفجر : أدع اباك

ولم يعلم رجال البلاط ما الذي يريده الملك من ذلك البحث

فلما اقبل ابن جناب ، فاجأه الملك بقوله :

اي نبي اوحى اليك يا ابن جناب بان النهديين اللذين قتلتهما هما من رجال ذي القرنين ؟

فتبين الشيخ الغضب في وجه مولاه ، فقال :

ليس في الامروحي يا مولاي لكني سمعتهما يتحدثان ويذكران اسم ذي القرنين

ـ : أهذا هو دليلك على الخيانة ؟

فحار الشيخ في امره ولم يجب

فقال ثعلبة بن هنب :

اذا استحق القتل من يذكر اسم المنذر فكلنا يجب ان نقتل

فنظر اليه الملك نظرة قاسية وقال :

اسكت يا ابن هنب فلا اريد ان اسمع صوت احد .. كلكم خونة كذاب لاينظر احدكم الا الى نفسه ...

وانفجر البركان ، فرأى القوم عندئذٍ ما لم يروه في حياة ابن جبلة، رأوا وجه الملك يسود، ووداجيه ينتفخان ، ومحاسن ذلك الوجه الجذابة استحيل الى صورة رائعة هي صورة وحش يهيج هائجه ثم يثب على فريسته

فلم يعلموا اي شيطان طرأ عليه في ذلك الحين ، ولكنهم عرفوا ان الصاعقة ستنقضّ على رأس ابن جناب

ثم ارتفع صوت الملـــك فملأ القاعة ، ثم جاوزها الى أروقة القصر فجاوبت صداه فكان القوم يسمعون دوياً لا يفهمون منه غير الشتم والسبّ

وبعد قليل ، انخفض ذلك الصوت وهو يتقطع ، فسمعوه يقول :

يا ابن جناب ! أهكذا خدعت الناس كل هذا الزمان فسموك كاهن

العرب ثم جئتنا تطلب الاحسان فلما خدعتنـــا تماديت في السعاية حتى
قتلنا بريئين ؟؟ أتستحيل دم البريء يا لعين في سبيـل غايتك وانت في
الثمانــــين ؟

أترانا بخلنا عليك وقد موّلناك جهدنا ، وبذلنا لك ما نبذله لاولادنا
ونحن نحسب انك الشيخ الصالح تخلص للملك النصيحة والحب فاذا انت
اللئيم النذل تبعد عنا من نحب ، وتريد ان تستأثر بخيرات القصر كأن
القصر وما فيه ملكٌ للشيوخ الاوغاد .؟

فهمّ النديم المسكين بالجواب فقال الملك :

والله ان خرجت من فمك كلمة واحدة لوّثنا هذه القاعة بدمك

ثم التفت الى من حوله وهو يقول :

وانتم فالزموا الصمت فالصوت الذي يرتفع يموت صاحبه ... اسمع
يا ابن جناب ، انه لولا وفاء ولديك لقتلناك ، غير ان الحارث الغساني
لا ينقض عَهده ، ولكن .. ولكن نأذن لك في البقاء بيننا ليلةً واحدة
لا تزيد ساعة ثم تغادر بعدها حوران والبلقاء على بعير يحملك ويحمل زادك
وأطمارك البالية التي اتحفتنا بها يوم قدمت علينا يا لعين ، وسنخيّر قابوسا
وسفانة بين البقاء والرحيل كما اننا سنخير عامراً في ذلك عندما يعود ،
ان اولادك أبرياء ، ويأبى عدل ابن جبلة ان نطردهم من بلادنا كما نطرد
أباهم الساعي الكذوب

فنكس ذلك الشيخ رأسه واخذ يبكي بكاء الاطفال وهو لا يجسر
على الكلام .

اما المنذر فقد سدل التأثر والحزن حجاباً بينه وبين القوم ، وعز

عليه خروج أبيه عن حده ، في ذلك الغضب الذي يشبه الجنون

ثم التفت الملك الى حاجبه قيس قائلاً :

لقد سمعت كل شيء الآن فماذا تقول انت ؟

فمشى ذلك الفتى الشجاع حتى قارب السرير ، فجثا على ركبتيه امام الملك والقى سيفه على قدميه دون ان يقول كلمة

ومعنى ذلك انه تخلى عن الحجابة وسيتبع اباه

فقال الملك: حسناً صنعت فعند الملك من الرجال من يصلح للحجابة.. خذ هذا السيف فقد وهبناه لك .

أما الفتى فتراجع الى مكانه وهو ارفع من ان ينظر الى السيف

فمسح لبيد دمعة سقطت على خده

أما الملك فتجاهل واغضى على القذى

ثم قال لعاصم بن ثعلبة : قل لسفانة ان تحضر الآن

فخفق قلب المنذر ونظر الى ابيه مستعطفاً ، ولكن الملك لم يكن والداً في ذلك الحين ،

فرأى ولي العهد ان يبدي رأيه ولو استهدف للغضب ، فقال : لي كلمة يا مولاي

فلم يجبه الملك ، بل أومأ الى رجاله يأمرهم بالانصراف الا قيساً واباه وولي العهد وجبلة

فلما خرجوا قال : ما هي كلمتك يا ابا كرب

فتناول ولي العهد يد أبيه فاخذ يقبلها باحترام وهو يقول :

انهم في جواري يا مولاي فتجاوز عن ذنبهم

فلم يشأ الملك ان يسمع ، وكيف يسمع النمر الهائج احاديث العفو والغفران :

ثم قال المنذر : ألا تصفح يا مولاي ؟

فحدجه الملك ببصره وقال :

انصفح عن الشيخ النمام القاتل ادباء العرب الابرياء ؟؟ .. وماذا يقول عنا الناس ، الا يقولون ان الحارث بن جبلة ظالم سفاك يقتل نديميه البريئين .

ثم يصفح عن الساعي بهما ؟

أنجعل هذا النذل نديمنا ، ونحيطه باحساننا ، ونرفع ابنته الى عرش آبائنا فيكافئنا بالسعاية والكذب ثم نتجاوز عن ذنبه ؟ لا ، يكفيه اننا حفظنا حياته وحياة بنيه فليرحل فليس عندنا مجال للغفران ولا نريد ان نسمع فيه رجاءً وشفاعات ، فاحترم نفسك يا ابا كرب ان الملك لا يحب ان يرى ولي عهده نصير الخونة والمجرمين

لقد كادت سفانة تصبح ولية العهد لولا هذا الشيخ ، فتناس يا ولي عهد غسان غرام هذه الفتاة ، فابنة الاوغاد وان تكن بريئة لا تجلس على عرش جبلة ولو خسرنا هذا العرش ، أسمعت يا ابا كرب ؟ تلك ارادة الملك لا تتغير فلا تعد الى الرجاء

ولما دعا عاصم سفانة الى الحضور قال لها :

ان الملك في ثورة غضب يا سيدتي فاعتصمي بالصبر

فلم تفهم سفانة قوله ، كما انها لم تشأ ان تسأله عن الاسباب

ثم دخلت الى قاعة الملك ووراءها ابن ثعلبة :
فقال الملك انصرف يا ابن ثعلبة واغلق الباب
فتلفتت سفانة فرأت اباها يكاد رأسه يلامس الارض والى جانبه ولده قيس مطرق الرأس مثله وسيفه امام السرير ، ورآت الكآبة في وجوه القوم والغضب في وجه الملك
فعلت ثغرها ابتسامة اليأس كأنها عرفت من حديث قلبها ان اباها لغير عليه الملك
فخفض الملك صوته قائلًا :
أعرفت يا سفانة ان اباك يخون الملك ؟
فقالت بلهجة ثابتة : ما عرفت ابي خائناً قبل اليوم
ـ ولكنه خان الان فطردناه من بلادنا ، وخيرنا اخاك بين الاقامة والرحيل فاختار خدمة ابيه على خدمة الملك ، وأنت ، ماذا تصنعين ؟
فاستغربت سفانة هذه اللهجة الجافة يفاجئها بها الملك وهي لا تعلم من امر ابيها شيئاً ، فقالت :
أتخيرني بين ابي وبين الملك يا مولاي ؟
ـ نعم ، اي بين الطواف في احياء العرب تسألونها الاحسان ، وبين السكنى في قصورنا حولك العبيد والخدم
فقالت وقد سبقها الدمع : ان الطواف في الارض يستند والدي الشيخ الى ساعدي لأفضل في نظري من القصور لا والد فيها ولا امّ .. والملك اذا طرد الوالد فقد طرد الاولاد فلا سبيل اذن الى الخيار ، واما اننا نسأل الناس الاحسان فلاننا كنا ملوكاً فازال القضاء عنا النعمة لا ازال الله لك ملكاً ونعمةً يا مولاي ... ولكن عامراً غائب في خدمة

الملك ، أفلا تنتظر رجوعه يا مولاى فيتمّ الزواج ... !!

فازداد هياج ذلك النمر وقال :

أتعيريننا يا سفانة اننا وعدنا ولم نفِ ؟ ! الا فاعلمي ان تاجنا ارفع من ان تعصب بـــه راسها بنت شيخ قاتل ، فاذا اردتِ البقاء عندنا فكوصيفة في القصر لا كعروسٍ تنتظر رجوع عـامر لتزفّ الى ولي العهد ، ان ذلك الزواج انقضى امره الان ..

فاستندت سفانة الى الجدار وهي تقول :

رضيت بكل شيء يا مولاي ولكني لا ارضى ان يكون ابي قاتلا؟

– لقد سعى بولدي رزاح واغرى ، فقتلناهما وهما بريئان ، افـــلا يكون هو الباعث على القتل

– ولكن الملوك لا تقتل قبل ان تستثبت في الامر ، ومع ذلـك فابن جناب اذا قال لك هذا خائن فهو خائن ، وسيأتي يومٌ تعرف فيه ، ان هذا الشيخ الذي يبكي كالطفل بين يديك ، هو اخلص رجـــل لعرشك ، بين الرجال الذين قاموا حول هذا العرش منـذ ثبتت دعائمه الى اليوم ، وان ولديه اللذين يبعث احدهما الى بلاد العرب ينقـل اليك اخبار عدوك ، هما اصدق فتيان العربان واثبتهم جناناً واشرفهم نفساً ، وهذه الفتاة التي تخاطبك الان ، ستعصب رأسها بملاءة سوداء بدلاً مـن التاج ، ولكنهـا لا تنكث لخطيبها ولي عهدك عهداً ، ولا تنسى لابيه فضـــلًا .. فانقضوا عهودكم ايها الملوك ، واستبدوا ما شاء الاستبداد بالضعفاء . فالله الذي يبني الممالك ويهدم العروش كفيل بالاوفياء المخلصين

فأومأ اليها ابوها الشيخ والامير جبلة بالسكوت ولـكنها لم تبالي ، وجهت حديثها الى ولي العهد وقالت له

لقد قلت لي في بئر الجن يا ابا كرب انــك تترك ولاية العهد ولا تترك سفانة ، فانا الان ، يا مولاي الامير ، اجعلك في حــل مما بيني وبينك ، واسألك بتربة امك الملكة ان تطيع اباك كما اطيع انا ابي ، وتختار لك فتاة شريفة الحسب عالية النسب لا يكون ابوها قاتلا ...

وتردد صوت سفـانة في صدرها ، ثم ارتجف جسمها ، فسقطت على الارض وقد صرعها اليأس ،

فصاح ولي العهد قائلا : ويلاه فقد قتلها الحزن

ورفع ابن جناب رأسه الى السما وقال : انظر الى ضعفي يا فــارج الكروب ويا عارف الخفايا واسرار القلوب ...

اما الملك فترك القاعة وهو كالحجر الاصم لا يرضى ولا يلين

واقبلوا يعالجون الفتاة حتى استفاقت ، فاجالت نظرها في القوم ، ثم مدت يديها الاثنتين الى ولي العهد واخيه وهي تقول : الوداع ايها الاميران فقد كتب لي ان اشقى الى الابد

• • •

وقضى الاميران ذلك الليل يستعطفان الملك على بني جناب فــلم يعطف فخشيا اخيراً ان يثور ثائره من جديد فيأمر بالقتل .. ومن يمنع الحارث بن جبلة اذا فعل ؟

فتركاه وجبلة يقول لاخيه : لاتيأس ايها الحبيب فقد يتغير الملك بعد ايام كما تغير الان

ولكن المنذر لم يعد الى غرفته ، بل ذهب الى حليمة فاختلى بهــا

وبسفانة الى الصباح والكآبة تملأ الصدور والقلوب

اما القلم فلا يستطيع ان يصف ساعة الوداع ، كان الشيخ وابنته يبكيان وجبلة يقول القوم :

امكثوا في الناصرة حتى يفرج الله الغم ، وهذا العبد ينقل اليكم الحاجات والاشياء فهو الرسول الامين بين حوران وفلسطين

اما ولي العهد فقد عقدت لسانه لوعة الفراق ولكن الدمع كان يجول في عينيه .

فقال له ابن جناب ، اوصيك خيراً بعامر يا مولاي ، وليلحق بنا عندما يعود فأراه قبل ان يطبق الموت عينيّ

• • •

واستراح ابن هنب من بني جناب ، وبشر سليمى بولاية العهد

« ومرت ايام ، فقدم حوران ، رزاح ابو الغلامين ومعه بنت له ، وكان شيخاً عالماً مجربا ، فاكرمه الملك واعطاه دية ابنيه ، وادخله في ندمائه

- ٢٩ -

عامر في الحيرة

لقد اعجبنا قتال صاحبيك يا صعصعة فاحضرهما

فدخل عامر وابن سلمة، فقبلا الارض بين يدي ذلك الجبار العراقي، المنذر ابن ماء السماء

وقد غصّت قاعة العرش بنبلاء العراق واشراف تغلب واياد وبهراء

فقال لهما : مرحباً بفارسي الشام، ان الملك يشهد لكما بالقتال الحسن والخبرة في الحرب

وظهرت على شفتيه ابتسامة غريبة

فقال عامر : كنا من فرسان الشام يا مولاي ، اما الآن فنحن من فرسان العراق ومن رجال الملك العظيم الذي دانت له العرب

قال : « وجهٌ مليح ولسان فصيح » اجلسا

فجلس الاثنان

ثم قال : ماذا يفعل ابوك زهير بن جناب في الشام ؟

فقال عامر في نفسه : يظهر ان الملك يعرف كل شيء ، فقال :
ان أبي يا مولاي من ندماء الحارث بن جبلة الملك الغساني
فعادت تلك الابتسامة الى ثغر المنذر وقال :

لا تقل ملك ، ان ابن جبلة عاملٌ من عمـــال الروم ، على قبائل ضاربة في بادية الشام تقيم سنة وترحل سنة ، وليس لهذا العامل الا انـ يجمع الجزية لسيده القيصر في كل عام فيعطيه سيده منها ما يشاء ويستأثر بمـــا يشاء .

وأية حالٍ طوّحت بابيك الى بلاد الشام وانتم من بني كلب ، وقد كان ابوك اميراً في نجد ؟

ــ : ان الزمان يا مولاي اذا جار ، قـــذف الملوك والامراء الى أبعد الديار ، فمن نجد ، الى اليمن ، الى البحرين ، لم يجد أبي بين امراء العرب من يجيره حتى قدم حوران فاعاد اليه عزه الهاوي ، الحارث بن جبلة عامل الروم الذي ذكرت

ــ : ولماذا لم يلجأ ابوك الحيرة وهي عـاصمة العرب ونحن نقدر ان نعيد اليه بهجة ماضيه ؟

ــ : لا تسألني عن هذا يا مولاي فلأبي في ذلـك رأيٌ ولي رأي ، ومع ذلك فقد كنت في ذلك الحين تطارد الحارث الكندي الذي اراد ان يغتصب العرش فذهبنا الى البحرين ، وهناك زينوا لابي الذهاب الى الشام وانا اخالفه ، ولكنه لم يرضَ الا انـ يقيم في جوار الروم فجرّ شيخوخته اليها ليقضي فيها ايامه ، غير ان الشام لتخدم الحيرة من حيث لا يعلم مولاي الملك

فالتفت الملك الى ولي عهده عمرو « المعروف بعمرو ابن هند » وقال له وهو يضحك :

انها لطريقة جـدة جديدة في الخداع يتحفنا بها هذا الكلبي

قال : لا تتهم المخلصين لعرشك بالخداع يا مولاي

قال : سننظر في ذلك بعد حين ، قل لماذا تركت اباك يا ابن كلب ؟

ــ لاني في مقتبل العمر وابي شيخ ، والفتيـــان لا يأكلون بتعب الشيوخ .

ــ أحسنت فذلك شأن الرجال ، ولكن لماذا قدمت الحيرة ؟

ــ لسبب لا اذكره الآن يا مولاي

ــ ولماذا ؟

ــ لان الاسرار لا يباح بها قبل الاوان

فانبرى ابن سلمة يقول ، اما انا فـلا اعرف الكتمان يا مولاي ولا اريده ...

قالها الفتي والجد في صوته وفي وجهه

فازداد الملك ضحكاً وقال :

قص علينا اذن ما تعلم يا ابن سلمة ، يا صاحب اضياف الملك

فخفق القلبان من الخوف ، وظنّ الرفيقان ان ابن ماء السماء رأى عرافياً قبل ان يراهما فعرف منه كل شيء ، ولكن كانا قد ظهرا فلم يبق بدٌ من المضي في الامر حتى النهاية

فقال جفال : ان لقدومنا يا مولاي سبباً له مقدمات

ابدأ بالمقدمات اذن

قال : ان زهير بن جناب لا يحبك

فعضّ عامر على شفته من الغيظ وقال :

لا تصدق يا مولاي فابي لا يبغض بني لخم

فقال الملك : ولماذا يبغضنا صاحبك يا ابن سلمة ؟

ــ لان عرش العراق كان نصيراً لخصومه ووجودك انت على هذا العرش منعه من الرجوع الى الامارة

فنظر اليه عامر نظرة غضب

اما الملك فقد آنس الصدق في حديثه فقال :

اجل ، لقد كنا خصومه لانه لم يشأ الا ان يخدم ملوك اليمن ، ولو لم يضرم بنو تغلب نار الثورة ويطردوه من امـــارته ، لعاجلناه بحرب وخلعناه نعم يا ابن سلمة وبعد ذلك ؟

ــ : ولكن عامراً هذا على غير رأي ابيه ، هو يعترف بأن عرش الحيرة خاصم اباه ، ولكنه يعتقد ان العراق اصلح لبني كلب من بلاد الشام ، وملك الحيرة العظيم اصلح من عمال الروم ، وهذا هو الفرق بين الاثنين يا مولاي ، بين الوالد والولد ، هذا يرغب في ان يقيم بالعراق ، والآخر لا يترك قصر ابن جبلة ، حتى تفاقم الامر وتحدث به الناس ، وليس في حوران يا مولاي من يكتم الاسرار ... ان القوم هنـــاك يكثر كلامهم وتقل افعالهم ... فبلغ الامير الغساني قول عامر وظهر له الشر ، وعند هذا الحدّ تنتهي المقدمة الاولى يا مولاي

: وهل تكثر المقدمات يا ابن سلمة ؟

ــ : بقي اثنتان يا مولاي ، احداها انك بعثت منذ اربعة اشهر

جاسوساً الى بلاد الشام

فازداد الملك وثوقاً به ، ولكنه عمد الى الانكار فقال :

كذبت يا رجل فنحن لم نرسل احداً الى بلاد الروم

قال : لو لم أرَ جراب الرسول واقرأ رسائل الملك فيه ، لتوهمت اني كاذب ، ولكن الكذب بعيدٌ عني جداً يا مولاي ، انا في العراق وهو في القسطنطينية مدينة القيصر ...

واي دخلٍ لهذا الرسول في الامر

ـ : لولاه لما مثلنا بين يديك الان ، لقد قبض عليه جبلة بن الحارث فاعترف (لعامل الروم) بأنه رسولك ، فأمر باطلاقــــه ، ولكنه عاد فحكم باعدامه حينما عرف انك قتلت رجلاً من رجاله يدعى عتبة ابن هند ، قل لي يا مولاي الملك ، أأقول الصدق ام اكذب ؟ قال رسولك انك ذبحت عتبة على شاطيء الفرات وألقيت جثته الى الاعماق ، أصحيح هذا؟

فقال الملك وقد ظهر الاهتمام في عينيه :

وماذا فعل مولاك في آخر الامر

ـ : امرني بتنفيذ القتل

: فقتلته ؟

ـ لا يا مولاي ، كنت عازماً على قتله ، فجاءني عامر هذا يسألني ان ابقيه في الامر حتى ينسي الحارث امره فنطلقه ، فلم اصغ اليه في باديء الامر ، ثم راجعني فأبيت حتى حدث ما لم يكن بالحسبان . وهذه هي المقدمة الثانية يا مولاي ...

ـ فهات الثالثة الان

ـ واما الثالثة فتبدا بأن غلامين من بني نهد بن زيد اقبلا على ابن جبـــلة

فبرقت عينا الملك وعينا ولي عهده

فعرف الرفيقان عند ذاك ان الغلامين من رجاله ، ثم استطرد جفال قائلا : فأكرمهما الغساني ، وجعل احدهما نديماً له والاخر صاحباً لاضيافه فكرهت الاقامة في بلد يتغير ملكه كلما اكفهر الجوّ ، فأعطيت الاسير فرساً من افراسي واطلقته واظهرت انه فرّ ، ولكن رجـال الحارث قتلوه في تدمر ثم قام زهير بن جناب يقترح على ابن جبلة اقتراحه الغريب الذي دعاناه الى ترك الشام والمجيء اليك

فتمتم عامر يقـــول : ليست الرواية صحيحة يا مولاي فابن سلمة كثير الكلام

اما الملك فكان قد همّه قتل رسوله فقال لعامر :

ان ابن ماء السماء يعرف الفاسد والصحيح ، وماذا جرى بعد ذلك يا ابن سلمة ؟

ـ ماذا جرى .. ارسلوا الى الحيرة لصاً من لصوص العرب ليأخذ راسك الى حوران

فاضطرب القوم جميعاً الا الملك فلم يبدُ على وجهه الاضطراب فقال :

اتريد يا ابن سلمة ان نذكر لك اسم هذا اللص ؟

ـ أتعرفه يا مولاي ؟

ـ نعم ، هو انت وهذا الكلبي امركما ابن جبلة بان تأخذا هـــذا الراس ...

فقال جفال : اسمح لي يا مولاي ان اضحك لان هـــذا الكلام يستوجب الضحك

ــ اضحك ما تشاء فقد يعقب الضحك البكاء

فخرج عامر عندئذ من عزلته ، وقال :

لقد فضحنا ابن سلمة قبل الاوان يا مولاي ، كل ما ذكره لك فهو صحيح وقد قدمناالحيرة لنحفظ هذا الراس على جسم صاحبه لا لنأخذه، ان ابي اقترح قتلـــك ، فضمن قائد جيش الحارث « ثعلبة بن هنب » تنفيذ هذا الاقتراح ، وبعث الى خادمه في معان يأمره بذلـك ، واسم هذا الخادم عروة

فأخذت رواية الرفيقين شكلاً جديداً من الوضوح ، فقال الملك : وأين هو عروة الآن ؟

ــ رافقناه الى قيس عيلان ثم الى بني اسد ، ثم تقدمناه الى النباج ولم نره بعد ذلك

ــ ايطوف في بلاد العرب قبل ان يقدم الحيرة ؟

ــ نعم وهو يتظاهر بشراء الجلود والتمر

ــ اواثقٌ انت بما تقول ايها الكلبي ؟

ــ الوثوق كله يا مولاي ولي على ذلك دليل

ــ قل

ــ الخنجر الذي يريد ان يقتلك به هو في ثيابه ، ورسالة سيده التي تثبت مهمته ، موضوعة في ردن ردائه الايسر ، فلا تصدّق حتى ترى يا مولاي ولا ازيد على هذا كلمة

فالتفت الملك الى رجال مجلسه وقال : من يكفل هذين الرجلين ؟
فقام صعصعة ورجل آخر من اشراف تغلب وقالا .
ـ نحن نكفلهما حتى يقدم عروة
وفي ذلك الحين ، سمع القوم اصوات الحجاب
فقال الملك : ما هذه الجلبة ؟
فأطل احدهم ثم قال :
ان رجلاً يحاول الدخول الى المجلس فيمنعه الحجاب
فنهض ابن سلمة يتبين الرجل فاذا هو عروة بعينه ، فقال للملك :
لقد اقبل صاحبنا يا مولاي فلا تنس الرسالة ، فارتفع صوت الملك يقول لحجابه :
ليدخل هذا الغريب
فدخل عروة بقدم ثابتة حتى توسط القاعة فقال : أبيت اللعن يا مولاي الملك
ثم اجال نظره في القوم فرأى عامراً وابن سلمة ، فارتجفت شفتاه واصفرّ وجهه
فاخذ ابن سلمة ينظر اليه وهو يبتسم ابتسامة الفوز
ثم قال الملك لا نسألك من اين انت ولكن : اتعرف هذين الرجلين؟ واشار الى عامر وجفال
فتلعثم لسانه وقال : اعرفهما فهما من الشام وقد قدما ليقتلاك
قال : سنرى ايكم هو القاتل يا اضياف العراق ، وانت ، اي شأن لك في الحيرة ؟

– : جئت امنع حدوث القتل يا مولاي

فقال : لقد سمعنا هـذا القول من قبل ، ومن اذن لك في الدخول ومعك سلاح ؟

فملكت عروة روعة الموقف واحسّ بخوف لم يحسّ بمثله منذ شب، فقال : لا احمل سلاحاً يا مولاي

فأومأ الملك الى سياف وراء عرشه وقال له :

خذ خنجر الفتى فهو في ثيابه

فتراخت ركبتا عروة وكاد يسقط على الارض من شدة الخوف

فمدّ السيّاف يده الى حزامه فاخرج الخنجر ، ثم لمـــا رأى الملك كذبه قال : وخذ رسالته من كم ردائه

فأيقن عروة ان الملك يعرف مهمته ، فبرقت اسرة وجهه وقال : ان الرسالة هي لك يا مولاي

فقال الملك لسيافه . اذا تلفظ بكلمة واحدة فاضرب رأسه

فحار عروة في امره ولزم الصمت

واذا بسياف الملك يخرج الرق

فقال المنذر لولده قابوس

انشر الرق واقرأ ما فيه

فقرأ قابوس بصوت عال سمعه الحجاب

« الى خادمنا عروة المقيم في معان :

« اذهب الى الحيرة واقتل ملكها تنفيذاً للاتفاق الذي تم في بصرى، فان فاتك الملك فاقتل عمراً ولي العهد » التوقيـع : « ثعلبة بن هنب »

فصاح عروة صيحة ذعرٍ قائلا :
قتلني ابن هنب قتله الله
واصفرت وجوه القوم لهول ما سمعوا
اما الملك فقد اعمى الغضب بصيرته فلم يتفحص عن الامر ولم يسمع ما قاله ذلك الشقي المسكين
ولماذا يصغي اليه وهو يخفي امر القتل في ردائه ؟ ...
فقال لجلسائه : ان الملك ينزل عن حقه في الحكم فاصدِروا حكمكم ايها القوم
فارتفت اصواتهم قائلين : الموت طعناً بالخنجر الذي يحمله
فأومأ الى سيافه « وهو من بني تميم » قائلا : نفذ ما سمعت الان ،
فارتمى عروة على قدمي الملك وهو يقول : اسمع حكايتي يا مولاي فانا بريء
فرفسه قابوس برجله وهو يقول :
لقد تلونا برهان براءتك الان ، اذهب واظهر هـذه البراءة لمولاك الذي سيلحق بـك بعد حين
فجره السياف او « الجلاد » الى خـــارج القاعة فذهب به الحراس الى حيث يمثلون بذلك القتيل المظلوم
هكـــذا يطيع الموت الاشخاص المتوجين المتربعين في كراسي الذهب ، وهكذا يقتلون عباد الله ولا يبالون ...
ومـــا هي الا ساعة ، حتى كانت جثة عروة تعوم في الفرات ،

والصيادون على الضفتين ، ينظرون اليها نظرهم الى شيء عادي يحمله التيار الى اعماق البحار

ثم عاد الجلاد وبيده خنجر الفتى المصبوغ بدمه

ونسي الملك الفتى القتيل ورسالته ورداءه ، فالتفت الى عامر وجفال ، وعلى ثغره ابتسامة الرضى وقال لهما :

يظهر ان ابن جبلة لا يختار رسله الا من المجانين ، ايدخل علينا عروة ونحن في مجلسنا ، وبين رجالنا ، والحراس والجند يملاؤن قصرنا ، فيأخذ راسنا او رأس ولي عهدنا الى مولاه ؟ !! اذا لم يكن هذا جنوناً فما هو ؟ !

فقال ابن سلمة : انه ينطرح على قدميك يا مولاي ثم يطعنك في البطن ، هكذا امره ابن هنب

ــ : ولكنه اذا فعل يموت تحت الاقدام

ــ : اجل ، وقد قدم الحيرة وهو يعلم انه سيموت ، فالحمد لله يا مولاي لقد كتب لنا ــ نحن الخادمين الضعيفين ــ ان نحفظ حياة ملك العرب .

قال : وكتب لكما ان تكونا من رجالنا فلم يبق في امركما شك ، والان قولا لنا ، اقتل عوف في تدمر كما ذكرتما ؟

فقال ابن سلمة : نعم يا مولاي ، ففي تدمر عامل لابن جبلة من اخواله بني سعد ، قبض على عوف وبعث يسأل الملك ... لا يا مولاي فقد نسيت ان ابن جبلة ليس ملكاً ... قلت ان عامل تدمر بعث يسأل

امير حوران عن الرجل فورد عليه الامر بالقتـــل باغراء ابن جناب ، وثعلبة بن هنب .

ـ : ولكن ثعلبة هذا لايحب ابن جبلة، هكذا يقول لنا جواسيسنا الذين نرسلهم الى الشام

ـ : لقد كان ذلك فيما مضى يا مولاي ، اما اليوم فابن هنب من اخلص الناس لمولاه لانه جعله قائد جيشه الاكبر بعد ولي العهد

فقال الملك وعيناه تقدحان شرراً :

لا ابقانا الله اذا ابقينا لابن جبلة المغرور بلاداً وجيشاً

فابتسم عامر وقال : وسيساعدك القدر على افناء هـــذا الجيش يا مولاي

ـ ولماذا ؟

ـ لان جعل ثعلبة قائدا عاماً اوغر صدور العشائر وعظماء القواد على امير حوران ، وقد سمعت ان بني « فاس » النازلين في البلقاء وبني « شبيب » المقيمين في اذرح ، جـــاهروا بالعصيان ، وابوا ان يؤدوا الجزية للروم .

فاهتزّ ابن ماء السماء من فرحه وقال :

أتقول ان القبيلتين الكبيرتين جاهرتا بالعصيان ؟

فأعاد عامر قوله وهو هادىء

فاستدناه الملك قائلا :

متى سمعت الخبر ايها الكلبي ؟

ـ قبل تركي الشام يا مولاي بليلتين اخبرني به جبـلة بن الحارث ،

وقد بعث ابن جبلة ولي عهده وعاصم بن ثعلبة ليكبحا جماع العصاة الثائرين

— ومتى تركتما الشام ؟

— منذ مئة وعشرين يوماً يا مولاي ، ثلاثون منها بين نجد والشام ، وتسعون بين قيس عيلان وبني اسد والنباج والحيرة بما فيها يوم اوارة

ففكر المنذر قليلاً وقال : لو كان ذلك صحيحاً لوردت علينا اخبار حزن وسهل ، ومع ذلك فقد قرب اليوم الذي نحـــارب فيه ابن جبلة سواء اثارت عليه قبائل البلقاء او لم تثر

ثم قال لرجاله ، أأتعبتكم الحرب يا ابطال العراق ؟

فأجاب احدهم وهو من اياد : لا راحة لرجالـــك يا مولانا قبل ان تخفق اعلامك على اسوار الشام

قال : ولكن رجال ابن جبلة اشداء وقـد جرّبناهم مرتين ، كم هو عدد هؤلاء الرجال اليوم ؟

فقال عامر : سل ابن سلمة فأنا لا أعرف عددهم يا مولاي

قال جفال : اربعون الفاً يا مولاي تنقص ولا تزيد

ولم يجسر ابن سلمة على الكذب خوفاً من ذلك الجبار الذي يعرف كل شيء .

فارتاح الملك الى جوابه وقال :

وكيف تنقص ولا تزيد ؟

: لان معظم القبائل يشتو بفلسطين ، فاذا دهمت حوران حربٌ لا يجد ابن جبلة حوله من رجال السيف اكثر من عشرين الفاً

— ومتى تعود هذه القبائل الى حوران ؟

— بعد ان تنقضي ايام الربيع يا مولاي

اذن فالحرب نضرم نارها في اوائل الربيع ، اي بعد شهرين على الكثير ، فادعُ القبائل يا قابوس من اليوم ، تغلب ، وشيبان ، وتميم ، وهؤلاء سادة اياد وبهراء يدعون رجالهم ، كل من يحمـــل السيف في العراق يجب ان يخرج الى الساحة فلا نزحف الى الشام بجيش يقلّ عن الستين الفـــاً .

اسمعوا ايها القوم ، من أحبّ ابن ماء السماء فليشحذ سلاحه ، وانت يا صعصعة قل لمرزبان الفرس ان يعدّ كتيبته وافياله ، هذه ارادتنا في الحرب لا نغيّرها فلا تراجعونا في الامر

ثم التفت الى ولي عهده وقال :

وعليك انت يا عمرو ان تهتم لامر المؤونة والزاد ، امـا عامر وابن سلمة فسيكونان في الحرب الى جانب الملك يرشدانه الى قواد ابن جبلة وعظماء جيشه .

قال ابن سلمة: اذا كان لابدّ من ذلك يا مولاي فانتظرناحتى نعود فاستعاد الملك حديثه وقال :

– أتريد يا مولاي ان يصدر امر ابن جبلة – وهو الظالم المستبد باعدام بني جناب وبني سلمة حتي لا يبقي منهم احداً ؟

– لا

اذن لا بدّ من العود الى الشام قبل ان تنشب الحرب

– ولماذا ؟

– لان ابن جبلة يبحث عنا اليوم ، فاذا عرف اننا في الحيرة ، دبت الريبة في صدره، واستعان البطريق الرومي المقيم في دمشق، والبطريق الاخر سيد فلسطين ، فيقبلان عليه بعشرين الفاً من رجال الروم ، عدا

ما ينضم الى الاثنين من ابنـاء الشواطيء والجبال ، فيصبح جيش ابن جبلة ستين الفاً ويطول امد الحرب وقـد يخسر مولاي الملك الكثيرين من رجاله في ساحة القتال ، ولكن نعود فنقول لابن جبلة ، ان ابن ماء السماء قادم لحربك بجيش لايجاوز بضعة آلاف فيستهين الحرب ويستخف بها فيبرز الى الميدان ببضعة الاف – كما فعل خصمه – فـلا تجول الخيل جولة حتى يخر الغساني قتيلاً وتستولي على الشام ، هذا ما اراه يا مولاي خدمةً للعراق وحفظاً لحياة ليلى اختي وسفانة وقيس اخوي عامر اللذين هما على دعوته .

فعاد الشك الى صدر الملك وقال :

وانت ما رأيك يا عامر في هذا ؟

قال : ليس لي رأي يا مولاي ، اذا امر الملك بالرجوع كان رجوعنا في طاعته ، والآن فنحن مقيمان بالحيرة ما بقينا ، وليفعل الله ما يشاء

فقال عمرو : اما انا فقد رأيت غير هذا يا مولاي : اجعل احدهمـا رهينة حتى يعود الآخر

فاجابه قائلًا : ولكنها يقولون ان ابن جبلة لا يثق بهما

فوقف ذلك الخبيث ابن سلمة وقال :

اذا رأى ان غيبتنا كانت لاجله نسي الماضي وعاد الى الوثوق بنا كما كان يثق من قبل ، والا وكلنا الى احد النهديين ، وهمـا من رجالك ، امر اقناعه بما فيه مصلحة العراق ، فهما حارساه ونديماه وكلمتهما نافذة في بلاطه ، فاطمئن يا مولاي ، ان الذي يركب بعيره مسيرة شهرين طائفاً في بلاد العرب ليحول بين خنجر القاتل وبين صدر الملك العظيم لايكون

خائناً ، افلم تثبت رسالة عروة وخنجره اخلاصنا لعرش العراق وهما لا يزالان في يد مولانا قابوس يقلبهما بيديه ؟؟

ولما لم يجد الملك لهذا السؤال جواباً ، اخـــذ الرسالة من قابوس وتظاهر انه يعيد قراءتها ثم رفع رأسه بعد قليل قائلاً :

لابأس فارجعا ، فان كنتما خائنين فقد ابقيت على حياتكما لانكما حفظتما حياة الملك ؛ وابن ماء السماء لا يكافيء الجميل الا بمثله ، ولكن متى تعودان ؟

قال ابن سلمة : لانعود الى الحيرة يا مولاي بل الى ساحة الحرب ، أتجعل الحرب يا مولاي في الشام ام في البادية ؟

– : ان الزحف الى الشام متعب وكثير الخطر ،ولكن نحارب ابن جبلة هذه المرة في عين اباغ ، في ذلـك السهل الواسع الفسيح الارجاء ، اتظن انه يقود جيش الشام الى ذلك الموضع ولا يخاف

فقال عامر : انا اضمن قدومه الحيرة اذا اعلنت فيها الحرب يا مولاي سنهون عليه الصعب ، وسنخدمه بقولنا ، ان معظم الجيش العراقي هو من شذاذ العرب لا يصلح لحرب ولا يثبت في قتال، وابن جبلة كما تعلم يا مولاي ، رجلٌ يحب المغامرات ويستهين بالاخطار ، ومع ذلك فاذا ظن الملك بنا سوءاً فنحن مقيمان في الحيرة كما قلت ولو عرضنا اهلنا في الشام لخطر القتل

فكبر على ابن ماء السماء ، وهو فارس العرب وسيدها ، ان يتردد في الامر ويظهر الخوف من«عامل الروم»وهو لا يليق ببابه فقال لعامر وقد طفح وجهه بمظاهر العظمة والجلال :

كونا من رجال ابن جبلة فنحن لانبالي ، وخبراه انا سنقدم على
حربه بستين الفاً من رجال نجد والعراق ولا نعود الى الحيرة الا برأسه ،
فليستعن الفرس كما يستعين هو الروم فأما ان يخفق علم العراق فوق
رأس كل عربي واما ان نموت في ساحات الشرف وقد قمنا بما علينا نحو
هذا العرش الرفيع الذي ورث الرئاسات والامجاد

ونهض عن سريره وهو يقول :

ابن جناب وابن سلمة ليسا اكرم من ابن ماء السماء ، انصرفا الان
وفقكما الله ، واذا عدتما الينا عرفنا كيف نكافيء الخدم الصادقين ...

فقبلا الارض ثانية بين يديه وقال عامر :

موعدنا عين اباغ يا مولاي ...

ثم ودعا صعصعة وخرجا

وقبل ان يجتازا القصر لحق بهما صعصعة وقال لهما : اتبعاني
لاعطيكما ناقتين من ابل الملك البيض التي لا تلحق ، واحذرا ان تبقيا
الليلة في الحيرة فان ولي العهد ليس من رأي ابيه . وقد يحدث غداً ما لا
يعلمه الا الله

واعدّ لهما ما يحتاجان اليه

وعند العصر ركبا ناقتيهما عائدين الى حوران

وفي صباح اليوم الثاني ، طلبهما الملك ليجعل احدهما رهينةً عنده فلم
يجدهما ، فقال له ولي عهده :

لقد خدعنا الشقيان وكان عروة المسكين ضحية حيلتهما

اما الملك فلم يكن يريد ان يصدق انه مخدوع

- ٣٠ -

بنو جناب في الناصرة ـ أمرء القيس في حوران

عامر وابن سلمة

ونزل بنو جناب في الناصرة، في بيت قائد مئة رومي اسمه تيوفان ، هو احد أولئك الجنود الابطـال الذين اخضعوا السامرة الثائرة بقيادة الحارث الجبار .

والرجل في الستين من عمره ، لا زوجة له ولا اهــــل ، غير فتى « عرفه قراء الاجزاء السابقة » هو مالياني ابن اخيه خادم المنذر الخاص.

وليس في منزله غير خادمة يهودية عجوز ، قضت فيه اكثر من ثلاثين سنة تخلص للرجل النصيحة والحب

وكان يتردد الى حوران ، فالحارث يحبه ويعرف فيه ذلك الجندي الشجاع الذي حارب بين صفوفه ، ومالياني ، لا يصبر على فراق عمه اكثر من شهرين او ثلاثة شهور ، فنشأت بين الرجل ، وبين الامير أبي

كرب ، مودة وصحبة هي صحبة الخادم لسيده واخلاص الفتى الصادق لمليكه .

وقبل ان يصل القوم الى الناصرة ، استقبلهم تيوفان كما يستقبل المرء اهل بيته ، لان مالياني كان قد سبقهم اليها من طريق آخر لينقل الى عمه ارادة ولي العهد في نزول الجماعة اضيافاً عليه

الغنم والنوق والحبوب وجميع الحاجات ، كلها ترد على الناصرة من حوران ، حتى ان سكان الناصرة كانوا يعجبون من هذا الرومي تتدفق عليه خيرات السماء ، وتحيط بمنزله الصغير طوائف الماشية والنعم

وقضى القوم في الناصرة شهرين كاملين لا يخرجون من المنزل ، وليس لسفانة من يفرج غمها غير الدموع تذرفها على فراق الحبيب ، حتى كاد جسمها النضير يذوب غراماً ويأساً ، وشبابها الغضّ يذبل كما تذبل الزهرة تلفها الشمس

كان ابوها قد برّح به الهم ، واثرت فيه تلك الكلمات الجارحة التي وجّهها اليه ابن جبلة في مجلسه ، وهو على كثرة خدمته ملوك اليمن ومنادمته اياهم زمناً لم يسمع من احدهم يوماً ما سمعه من ملوك حوران هذه الذكرى كانت تبكيه . كما يبكيه احتجاب عامر عن عينيه كل هذا الزمان .

فقال يوماً لولده وهو يشرق بالدمع :

لقد طالت غيبة اخيك يا بني . أتظن ان الايام ما ابتسمت لنا ساعة الا لتعبس سنة ؟

فقال قيس : ان عامراً سيعود قريباً يـا مولاي ويعود الخير معه ان شاء الله .

- : ومن انبأك بذلك يا قيس ؟ أرسائـل ولي العهد التي لا يذكر فيها غير شدة شوقه ووثوقه بالمستقبل . ام ثرثرة العبد الذي ينقل هذه الرسائل وهو لا يحدثنـا الا بغرام مولاه ؟ ان في الحيرة لو تعلم ملكاً كثير الحيلة شديد الحذر اذا نزل غريب الحيرة احاطه رجاله بنطاقٍ من الرقابة ونفذت ابصارهم الى ضميره فاستخرجوا امراره وقرأوا مافيه والويل لهذا الغريب اذا رافقته الشبهات ، فان ذلك الملك القاسي لا يعرف ان يجازي الاّ بالموت ، ألم يـــذبح عتبة بن هند لانه جاسوس الحارث ، واين هو يزيد بن عمرو الجاسوس الآخر ؟ الا تظن انه قتل كما قتـل عتبة ؟ اني خائف يا بني ولم يبق لي أمل في هذه الحياة الا ان يرجع عامر فأراه وليجرُ الدهر بعد ذلك ما شاء الجور فلا ابالي

وكأن الشيخ ذكر ماضيه في ذلك الحين وأبت عليه عزة نفسه ان يتناول احسان الحارث ابن جبلة وقـــد طرده من بلاده طرداً قبيحاً واتهمه بالخيانة والكذب فقال :

أنقيم في بلاد الروم ونظل أضيافاً على بني غسان ؟ ان هـذا أمر لا يحتمل ، ومع ذلك فلو كنا اضياف الملك لهان الامر ولكننا اضياف بنيه والملك لا يعلم ذلك ولا يريده وهذا لعمري منتهى الخساسة والذل فأبعدوني عن فلسطين احملوا شيخوختي الى مصر ففي مصر يقدر الفقير ان يعيش من تعب يده وعرق جبينه ...

ووضع الشيخ رأسه بين يديه واستخرط في البكاء

فقال له قيس :

وكيف نغادر فلسطين وعامر في الحيرة ؟ ان هذا لا يكون قبل رجوعه ، وأما اننا نتناول احسان الغسانيين ونحن في بلاد الروم فهذا حقنا ما دام عامر في خدمتهم ، فلنصبر شهراً آخر يا أبي فلعلها آخر محنة يبلونا بها الزمان

وكانت سفانة تسمع الحديث وهي ذاهلة ، واذا كفت عن البكاء فلكي تعيد قراءة الوسائل التي يعللها فيها ولي العهد بالامل ، ويعدها باسترضاء ابيه

ولكنها كانت تعلم ان الملك لا يرضى الا اذا جاءوه بدليل يثبت نحس النهديين وصدق أبيها فيما قاله له عنها ، ومن يظهر هذا الدليل غير عامر وابن سلمة القادمين من الحيرة ؟ ان رضى الملك اذن في يد عامر وحده لا في وعود ولي العهد الذي لا يغضب أباه اكراماً لعينيها السوداوين .. أجل انه أقسم ان لا يتزوج الا سفانة ولكن ماذا ينفعها هذا القسم وهي بعيدة عنه ولا تجسر على الاقامة في بلاده كما انه لا يجسر هو على المجيء الى فلسطين ليراها خوفاً من ابيه

وكان المنذر من الجهة الاخري ، يفكر فيما تفكر فيه سفانة ، وهو ينتظر رجوع ذلك السفير الذي يحمل هناءه او شقاءه بين شفتيه

وكان صادقاً في قسمه ، فقد قال لابيه مرة ثانية ان لا يحدثه بامر الزواج لانه لا يريد ان تقترن حياته بحياة فتاة غير سفانة ولو كانت سيدة العالم

فاحترم ابوه ارادته وترك أمر الزواج الى وقت آخر يعود فيه ولي العهد الى نفسه

ومن غرائب الامور ، ان ذلك الولد البار ، ذلك الامير الكبير في

خلقه ، لم يسأل أباه مرة عن ذلك الغضب الجنوني الذي كان ضحيته القوم الذي يحترم والفتاة التي يحب

بل كان أرحب صدراً من ابيه ، فلم يعاتبه ولم يظهر له شيئاً مما يكنه صدره المضطرم بنار الغرام ، تاركاً أمره للزمان فهو الكفيل بردّ كل شيء الى أصله ... كذلك كان ثعلبة بن هنب تاركاً كل شيء للزمان...

• • •

وبينما كان الملك في مجلسه ، ورزاح ابو الغلامين جالساً بين رجاله اقبل عاصم بن ثعلبة وقال :

بالباب ملك من ملوك العرب يريد ان يراك !

فنهض الحارث عن سريره وقال :

أهو يقول انه ملك ؟

— : نعم يا مولاي وعلى جبينه مظاهر الجلال

فبقي الملك واقفاً على قدميه حتى يدخل الملك العربي

وفتح عاصم باب القاعة فدخل الملك

رجل في العقد الرابع من عمره ، ذو لحية صغيرة شقراء ، وشعر يتدلى الى آخر ظهره ، وعينين كبيرتين غائرتين ، وجبين عريض خط القدر بين غضونه سطور المذلة والشقاء

فمشى بقدمٍ ثابتة الى الملك فحنى له رأسه قائلًا :

أبيت اللعن يا ملك الشام ، اني امرؤُ القيس بن حجر بن الحارث الكندي ملك بني اسد وغطفان

فمد اليه الحارث يده وهو يقول في نفسه :

لشرٍ تقدم علينا ملوك نجد ...

ثم قال له . اهلاً بك ايها الامير أفأنت القائل .

ولكنني اسعى لمجدٍ مؤثلٍ وقد يدرك المجد المؤثل امثالي ؟

قال نعم ايها الملك وانا القائل ايضاً .

قفا نبكي من ذكرى حبيبٍ ومنزل ، ثم ذكر له بعض ابيات من هذه القصيدة الخالدة والدموع في عينيه

فاستغرب الحارث بكاءه ، فقال له .

وما يبكيك ايها الامير ؟

قال : الذي ابكاك ايها الملك يوم مات ابوك جبلة

ففهم الملك ان اباه قد مات ولـــكنه انكر عليه ان يبكي كما تبكي النساء ، فقال :

الامراء لا يبكون يا ابن حجر

فقال : لاجعلك الله من الامراء الباكين ايها الملك ، الا تعلم ماذا جرى في نجد ؟

ـ لا نعلم من امر نجد شيئاً

قل . قتل ابي غدراً في منزله

ـ ومن قتله ؟

ـ الرعية الناكرة الجميل ، بنو اسد

وقص على الملك حكاية قتله ثم قال :

كذلك قتل سلمة وشرحبيل ايها الملك قتلهما اغراء ذلك النذل ابن ماء السماء ، ولم يبق من اعمامي غير معدي كرب وهو امير جبان باع

اباه واخوته بجفنة من التمر

فبدا الاضطراب على وجه الملك عند سماعه هذا الخبر الذي يقضي على كل آماله في نجد

فأطرق ساعةً لا يقول كلمة وامرؤُ القيس ورجال البلاط ساكتون الا ثعلبة بن هنب فكان يحدث نفسه قائلًا .

هذا دليل آخر على سقوط بني جناب

ثم رفع الملك رأسه وقال :

ـ وماذا فعلت بكر وتغلب ؟

ـ ان تغلب انضمت الى ابن ماء السماء ، فهاجم الفريقان بكراً فأذلاها وقتلا عمي سلمة وابن عمي يزيد بن شرحبيل، وذبحا كهول بكر وفتيانها وشيوخها على جبل اوارة ، واحرقا نساءها ، واباحا الاموال والانعـام .

ـ وهل استسلم قومك بنو اسد لابن ماء السماء

ـ نعم ايها الملك واخذ منهم نديمين

ـ اذن كل قبائل نجد خضعت لخصمنا الا بكراً

ـ اجل ولا ينقضي الشهر حتى تخضع له لانها لا تطيق حربه

فتمتم الملك كلاماً لم يفهمه السامعون

ثم قال : لقد بعثنا الى نجد والعراق، اثنين من رجالنا ينظرون في امر تلك البلاد ويحملان الينا اخبارها ، والى الآن لم يرجعا ، اسمعت عنهما شيئاً ايها الامير ؟

لا ، فقد قتل ابي وانا غائب . ولما عدت الى قومي كان الزمان قد

انقلب ، فرأيت الاصحاب اصبحوا اعداءً والانسباء اصبحوا خصوماً، ورأيت عيون الرجـــال كألسنة النار تحوم حولي لتحرقني وانا سيدها ، مليكها، فطفت في بلاد العرب أسأل امراءها المعونة، فأغلقت في وجه الملك الطريد ابواب الملوك ، حتى اشار اليّ السموأل بن عاديا بالمجيء اليك فاتيت مستجيراً مستعيناً على عدوي ، فاذاابيت ايها الملك ان تمدّ يدك القوية فاكتب الى صاحبك ملك الروم ان يبعث معي جنداً الى بني اسد اردّ به ملكي وانتقم من عدوي (١)

ففكر الملك قليلاً ثم قال :

اما ان نبعث معك رجالنا الى نجد ، فنجد لا يكفيها اليوم ما عندنا من رجال ، ولكن نكتب الى حليفنا ملك الروم فهو قادر ان يمدّك

---

(١) السموأل بن عاديا من يهود يثرب ضرب به المثل في الوفاء ، وحكاية ذلك ان امرء القيس لما قتل ابوه خرج يستنجد بملك الروم فمرّ بتيماء وفيها « الابلق » حصن السموأل ، فأودع السموأل مائة درع من دروعه وبعض السلاح ومضى ، فسمع الحارث بن ظالم المرّي بهذه الدروع فجاء ليأخذها من السموأل فأبى وتحصن بحصنه ، فأخذ الحارث ابناً للسموأل كان خارج الحصن وناداه قائلاً : اما ان تعطيني الدروع واما قتلت ولدك ، اقتله فلا اعطيك شيئاً ، فضرب الحارث وسط الغلام بالسيف فقطعه وابوه يراه وانصرف ، ومنع السموأل الدروع حتى مات وضرب به المثـــل في الوفاء فقالوا اوفى من السموأل .

والسموأل من شعراء الجاهلية المجيدين وله لاميته المشهورة في الحماسة ومطلعها :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكـــل رداء يرتديه جميـــل

اما امرؤ القيس فلما اصبح عند القيصر واجاب القيصر دعوته وسمع مدائحه وشعره وشى به « الطماح » احد بني اسد اعدائه قائلاً لملك الروم « ان امرء القيس شتمك » فصدّق القيصر الوشاية وامر بامرىء القيس فسمّ ومات قبـــل ان يعود الى تيماء ، وهكذا انقضت حياة ذلك الشاعر العظيم الذي نسيه قومه وابناء زمانه .

بجند يملأ الجزيرة ، اكتب للامير ما يمليه عليك يا لبيد ، واعطه من المال ما يكفيه للوصول الى القسطنطينية ، وماذا تريد بعد ذلك ايها الامير ؟

فقال : ان يلقي الله عدوك بين يديك

فقال : ان عدوي هو عدوك يا ابن حجر فاذا القاه الله بين يدي فقد تمّ لك ما تريد

ثم عاد الى التفكير

واذا بصوت ابن ثعلبة يدوي في تلك القاعة قائلًا :

لقد عاد رسولاك يا مولاي عامر وابن سلمة

فاتجهت انظار القوم الى مصدر الصوت

وبدا الاهتمام على وجه الملك

اما ثعلبة بن هنب ، فلما سمع صوت ولده ، مدّ عنقه ليرى الرسولين وهو لا يهتم لرجوعها من العراق ، ولماذا يهتم لهذا الرجوع وقد خلا لسليمى الجو ومهدت لها الاقدار ، في نظره ، سبل الوصول الى العرش

ولكنه اخذ يفكر في عروة ، في ذلك الرسول الامين الذي حمل رسالته الى ملك الحيرة ولم يرجع ، فخفق قلبه وقام في ذهنه انه قتل ولولا ذلك لما عاد عامر الى حوران ، ولكن اين الرسالة التي تثبت خيانته وهي اذا ظهرت قضت عليه بالموت ؟ فبذل الجهد كله ليخفي مظاهر الخوف الذي استولى عليه ووضع يديه على صدره ينتظر دخولها

ولم يكن عامر يجهل الحادث الغريب الذي جرى في غيابه ، فقد رأى قبل وصوله الى بصرى ، ذلك الخادم الرومي ، ماليـاني ، فاطلعه على حكاية ذلك الجنون الذي نزل بالملك

فثار ثائر الفتى اولاً ، ولكنه رى اخيراً ان الحق في جانب ابيه ، وان النهديين اللذين قتلا كانا من رجال ابن ماء السماء فلا مجال للخوف

فقال لماليناي :

أيقيم رزاح ابو الغلامين في القصر ؟

قال : نعم وهو يخرج من مجلس الملك الى قبته لا يلتفت الى احد ولا يحدث احداً غير ابن هنب

فقال ابن سلمة :

والله لا خرجتُ من منزل الملك حتى اذيع الاسرار وافضح الاشرار

فقال عامر : واي اسرار يا جفال ؟

قال : ذلك امر يتعلق بي فلا تهتم لما لا يعنيك ..

فهزّ عامر رأسه وقال :

لقد احسنا الخدمة لابن جبلة فاحسن الجزاء .. ولكن حسبي ان ولي العهد وجبلة راضيان ..

وسار الرفيقان لا يلويان على احد حتى دخلا الى قاعة الجلوس

• • •

أبيت اللعن يا مولاي الملك

قالها عامر بصوته الهادىء ولهجته الرصينة

وتلاه ابن سلمة فقال :

لقد عدنا اخيراً من العراق يا مولاي نحمل اليك تحية صاحبك ابن ماء السماء .

فبانت اسنان الملك من وراء شفتيه الصفراويين وكانت تلك ابتسامته

التي استقبل بها رسوليه
ثم قال لابن سلمة :
انه صاحب امثالك يا لعين ، تعالَ نصافحك
ولم يقل لعامر كلمة
فجثا عامر على ركبتيه يقبّل الرداء الملكي ثم حيّا ولي العهد وجبلة وتراجع الى الوراء

اما جفال فمد يده الى الملك وهو يقول :
اما الامراء فنتصافح .. كيف انت يا ابن جبلة يا عامل الروم ؟
فضج المجلس بالضحك .
فقال الملك : ما هذا اللقب الذي تمنحنا اياه يا ابن سلمة ؟
قال : ان صاحب الجلالة ملك العرب العظيم ابن ماء السماء هو الذي يمنح الناس الالقاب .

ففهم الملك قوله فقال :
اذاً فجلالته لا يعترف بوجود ملكٍ عربي غيره، وهل رأيته ياجفال
نعم : نعم يا مولاي وهو يتساهل فيسمح للنـــاس بان يلقبوك بامير حوران

فلمعت شرارة الغضب في عيني الملك وقال :
ليقل خادم الفرس ما يشاء فله يوم ، ثم قال لرجاله :
لينصرف كل منكم الى عمله الان الا ابا كرب وجبلـــة ولبيداً ، وانت يا ابن ثابت خـــذ الامير امرء القيس واعدّ له ما يريد ، وان اعانك ملك الروم ايها الامير فاخبرنا

فخرج القوم ، فنظر عندئذٍ الى عامر وقال :
اما أنت فقصّ علينا ما رأيت
فرفع الفتى رأسه وقال :
رأيت قبل كل شيء ان نجداً افلتت من يد مولاي الملك
قال عرفنا ذلك ثم بعد
– ممن عرفت يا مولاي ؟
– من هذا الامير الذي خرج الان ، وهو امرء القيس بن حجر سيد بني اسد ألم ترَ اباه ؟
– لا يا مولاي فقد كان غائباً وانتظرناه شهراً ولم يرجع ، ومع ذلك فليس بين امراء نجد من يصلح لان يضع الملك يده في يده
وماذا رأيت بعد ذلك ؟
– رأيت ابن ماء السماء يعرض جيشه في سهول الحفير قبل ان يزحف الى بكر ثم رأيته يقود ذلك الجيش الى اليامة ليحارب بكراً ، فمشينا بين صفوفه وقتلنا من خصومه اكثر من عشرين
فنظر الملك اليه نظرة قاسية وقال :
أتجرد السيف في سبيل عدونا يا ابن زهير
فقال : نعم يا مولاي اذا كان في ذلك خدمة لك ، ثم عدنا الى الحيرة ، فلما مثلنا بين يدي ملكها فاجأني بقوله : « أيلجأ ابوك الى عامل الروم ابن جبلة والعراق اقرب اليه من الشام ؟ »
فبغت الملك وقال أيعرف هذا ايضاً ؟
– نعم يا مولاي ويعرف ان ابي « كان » نديماً لك ، كما يعرف ان

ابن سلمة هو صاحب اضيافك، واجسر على القول يا مولاي، انه يعرف اسرار قصرك كما يعرفها هـــذا الشيخ الضعيف الجسم الصغير العينين ، الذي رأيته الان جالساً في الموضع الذي كان يجلس فيه ابي ..

فاحمرّت عينا الملك لهذا التعريض ، فقال :

من تعني ؟

أعني رزاح بن نهد ابا الغلامين

فقال الامراء في نفوسهم يظهر ان عامراً يعرف قضية ابيه وستنقض الصاعقة على رأسه من جديد

اما الملك فلم يقف عند هذا الحد فقال :

أيعزّ عليك يا ابن زهير ان نستبدل ندماءنا الخونة بالرجال المخلصين؟

قال : بل يعزّ عليّ يا مولاي ان تملأ جواسيس ابن ماء السماء قصور الشام، والحارث بن جبلة لا يدري ، كما انه يعزّ عليّ ان يستولي الغضب على الملك فلا يعرف صاحبه من عدوه ، فيطرد ذلك الصاحب ويستبقي هذا العـــدو .

وتجلى الصدق كله في لهجة الفتى ، حتى ان الملك ما استطاع الا ان يحترم هذا اللمعان الغريب البادي في عينيه ، فقال لولديه وللبيد :

ان سفيرنا الى العراق يعطينا مثلاً جديداً في ادارة الملك

فرفع عامر صوته وقال :

يا مولاي الملك ان رسولك الى العراق ، يريد ان تطرد من قصرك الخونة والجواسيس لا الرجال الامناء، ان أبي لم يكن كاذباً يا مولاي، لقد نصح لك بان تقتل سهلاً وحزناً ، وانا انصح لك بان تقتـــل اباهما

رزاحاً، ان الولدين خائنان كان الوالد خائن وقد قدم حوران ليثأر بهما.

فاهتز الملك لما سمع وقال :

« لا حيّ الله اباك الغادر الكذوب الساعي » أتريد ان تخدعنا انت كما خدعنا هو فنعيده الى القصر ليبعد عنا من يحب ؟ ألا فاعلم ان دور الخداع قد انقضى ، وذلك الذنب الذي اقدم عليه ابوك لا تمحوه الشفاعات ، فقل لنا الان ماذا جرى في العراق فقد انتدبناك لامر لم تقدم لمولاك بعد حساباً عنه

فابتسم ذلك الفتى النبيل ابتسامة الاستخفاف وقال :

ألم اكن مخلصاً عند ما ارسلني مولاي الملك الى نجد ؟

– بلى

– وهل ينقلب هذا الاخلاص بين ليلة وضحاها الى خداع ؟

– من يعلم فللزمان شؤون تغير كل شيء

– اجـــل ، تغير كل شيء .. وان هذه الشؤون لتتغلل في صدور الملوك فتوغرها ، وفي قلوبهم فتغيرها حتى يصبح الحب بغضاً والرضى غضباً كما جرى لمولاي الملك في حادثته مع ابي ، ومع ذلك فلكل شيء حدّ يا مولاي وان اخلاصي للملك ينتهي عند حدّ حبي واخلاصي لابي ، لقد قلت ان ابي لم يكن كاذباً وسأثبت هذا القول ، فلا يبغتني مولاي بغضبه ان لي قلباً كالجبل الراسخ لا يتزعزع ولا يخاف

سانطق بالحق يا مولاي حتى يعلم به الناس ، وسأخرج ابي من تهمته نقي الصفحة طاهر الذيل ولو قتلت لانه بريء وغيره المجرم ، ولانه صادق وخصومه يكذبون

وكان الملك يحب عامراً كما علمت ويحترم رأيه غير ان حادثة الوالد اضعفت ثقته بالولدين ، فأخذ يحدق اليه وهو يتردد في امره ، وقد بدأ الشك يتسرب في نفسه ، ثم قال :

أقرأت براءة ابيك في الحيرة ؟

قال : بل سمعت حكم البراءة يصدر من فم الملك العراقي

ولكنها كانت كلمة غريبة كما ترى فقال الملك

حدثنا بجلاء يا ابن زهير ولا تعمد الى الابهام

قال : ألم تقتل ولدي رزاح يا مولاي

– بلى

– ثم ألم تندم بعد ذلك ؟

– بل كاد يقتلنا الندم

ولماذا يا مولاي ؟

– لانا بحثنا عن امر القتيلين فوجدناه باطلا

– اذن فاعلم يا مولاي انه غير باطل ، وان ابن ماء السماء سألنا عن الرجلين واعترف بأنهما عين له عليك ..

فكأن الصاعقة انقضت على رؤوس القوم

والتفت الملك الى ابن سلمة كأنه لم يصدق

فقال جفال : كل ذلك صحيح يا مولاي ، وعندما عرف ذو القرنين انهما نديماك ظهر البشر على وجهه

فغاص الملك في بحر من التفكير ، وساد القاعة صمت رهيب لا يسمع فيه غير انفاس المجتمعين

ثم انقشعت سحابة الريبة امام الملك ، وبدا الصبح
ولكنه اراد ان يستثبت في الامر ، فقال : « وما آية ذلك ؟ »
«فقال عامر : اسقِ اباهما وزاحاً الخمر ثم ابعث اليه عيناً يأتيك بخبره»
فعاد الملك الى الذهول ، ثم رفع رأسه فجأة وقال : اجل سنفعل ذلك بعد قليل ، تعال يا عامر

فدنا الفتى من الملك وقلبه يرقص في صدره
فوضع الحارث يده على كتفه وقال :
لقد عدنا الى الثقة بك يا بني فعد الى الحديث
قال : ثم سألنا ابن ماء السماء عن جيش الشام وقواده ، وعن عدد الرجال في القبائل ،وهو خبير بكل ذلك يامولاي كأنه مقيم في حوران
فتمتم ابن جبلة قائلاً :
خبير بكل ذلك كأنه مقيم في حوران ...نعم ... ايستعد الرجل للحرب ؟
– بل قد استعد لها يا مولاي واخذ يهتم لتعبئة الجيش
فنظر الملك الى ابن عمه وقال :
أسمعت يا لبيد ؟
قال : ليفعل فجيش الشام يحمل سلاحه
واستطرد عامر قائلاً :
وسيكون جيشه ٦٠ الفاً يا مولاي بينهم كتيبة الفرس ، والحرب حرب فناء يجعلها في عين اباغ ويزعم انه يعود منها برأسك
فقال : ولكنه لا يصل الى هذا الرأس حتى تتدحرج رؤوس بني

قومه ومع ذلك فلندع الحرب الآن فلها وقتها ، قصّ علينا يا عامر كل شيء .

فأعاد الفتى على الملـــك حديث ابن ماء السماء ما نسي منه شيئاً الا امر عروة فقد اخفاه .

فقال الملك ، اذن فقد اعترف اللعين بذبحه عتبة بن هند ، أفلم يعترف ايضاً بقتله رسولنا الآخر يزيد بن عمرو ؟

قال ابن سلمة : لو كان يزيد حياً يا مولاي لعاد من شهرين

: أتظن انه قتل في الحيرة ؟

ـ : كل من يشتبه ابن ماء السماء في أمره فهو مقتول

وكيف اذن لكما ان تنصرفا من بـــلاده وهو يعرف انكما من رجال ابن جبلة .

فتردد عامر في الجواب

اما ابن سلمة فقال :

لقد حفظنا حياته من القتل يا مولاي ولولا ذلك لقذف بنا الى الفرات

فضحك الملك وقال لقد جُنّ ابن سلمة يا ابا كرب

فلمعت عينا الفتى وقال :

اجل لقد جننت ، عندما رأيت رجال قصرك يرسلون الرسائل الى عدوك ابن ماء السماء ...

فصاح الملك قائلاً : ويلك يا ابن سلمة ، افي القصر اصحاب علاقـة بالحيرة ؟

ـ : بل في القصر من يخونك وانت لا تعلم ...

فعضّ عامر على شفته وارخى عينيه ينظر الى الارض

فقال الملك :

اذن هنالك حكاية جديدة يا ابن سلمة ؟

قال نعم ، وهي حكاية تستحق الذكر ، أتريد ان اقصها يا مولاي

فقال ولي العهد : عجّل ما استطعت

فقال : أتذكر يا مولاي يوم سفرنا الى نجد ؟

: نعم

ـ : أتذكر ايضاً اني تقدمت عامراً الى بئر وهب اللات ؟

ـ : نعم اذكر ذلك

ـ : ولكنك لاتعلم ان فتىً خرج من القصر الابيض قبل ان يخرج عامر منه ، وفي كمّ ردائه رسالة لملك العراق

فضربه الملك بدرته وقال :

من هو الفتى وما هي رسالته ؟

ـ : اما الفتى فلصّ عربي يقيم في حوران منذ عامين ، واما الرسالة فصاحبها يغري ابن ماء السماء بقتل عامر بن زهير وجفال بن سلمة رسولي ابن جبـــلة .

فارتجف جسم الملك من رأسه حتى قدميه

ونهض الامراء الثلاثه يسمعون حكاية جفال

اما عامر فظلّ مطرقاً وقد ذكر في تلك الساعـة اليمين التي اقسمها لشبح الليل ...

ثم عاد الملك الى نفسه فقال :

أقرأت الرسالة يا ابن سلمة ؟

ـ : قرأتها وحفظتها وهذه هي بحروفها :

« الى الملك العظيم المنذر بن امرىء القيس ملك العراق »

« حامل كتابي هذا يدلك على رجل في الحيرة يدعى عامر بن زهير ارسله ابن جبلة ليأتيه برأسك ومعه رجل آخر يدعى جفال ابن سلمة »

فازداد اضطراب الملك وقال : ومن هو صاحبها ؟

ـ اما صاحبها فمن رجال قصرك يا مولاي وعظماء دولتك

افهمت ، فمن هو ؟

وقبل ان تخرج الكلمة من فم جفال رفع عامر رأسه وقال :

ولكني اقسمت ان لا ابوح باسمه يا ابن سلمة

فحدجه الملك ببصره

اما ابن سلمة فقهقه ضاحكاً وهو يقول . اما انا فما اقسمت لاحد ثم خفض صوته وقـــال . هو ثعلبة رئيس عشيرة هنب يا مولاي وقائد جيش الشام

فنظر الامراء بعضهم الى البعض الآخر متحيرين مستغربين

وجهد الملك في اخفاء اضطرابه ففضحه اصفرار وجهه

غير انه قال لابن سلمة وهو هادىء .

اريد ان أرى الرسالة يا جفال

ـ ليست معي يا مولاي بل هي في ثياب عامر

فمد الملك يده ليأخذها من الفتى كأنه يأمره بذلـك

فقال له : لقد اقسمت براسك وشرف ابي ان لا اسلمهـا ولو امرني

الملك ، فاحترم قسمي يا مولاي

– ولمن اقسمت ؟

– لذلك الرجل الذي دلني عـلى الرسالة

فاستولى الملك جالساً وقال :

اذن اريد ان اعرف كل ما جرى فلا تخف ِعليّ شيئاً

فأخذ عامر يقص حادثته مع ذلك الشبح المحسن اليه ، كيف اجتمع به في الخيمة ، وكيف اعطاه رسالته ليستبدل رسالة عروة ، وكيف تمّ الاستبدال وأفضى الى قتل ذلك المنكود الحظ ، والملك ومن حوله يعجبون لهذه الحكاية التي يسمعون

ثم قال الملك :

أتقسم لي يا ابن زهير انك لا تعرف ذلك الرجـل ؟

– اقسم لك يا مولاي اني لا اعرفه

– وكيف يثق المرء برجـلٍ لا يرى وجهه ؟

انه حفظ حياتي يا مولاي ، ثم اشترط عليّ الاّ اسلم رسالة عروة الا اليه ، وان لا ابوح لاحد باسم صاحب التوقيـع ، وان لا ابخـــل عليه بحياتي اذا هو سألني بـذل هذه الحياة ،

اتسلم اليه الرسالة وانت لا تعرف من هـو ؟

قال : كل من يقول لي « انا صاحب رسالة الليل » اعطيه الرسالة ، وهذه هي كلمة التعارف يا مولاي، ولكن فات الشبح وفاتني انا الابله ان ابن سلمة لا يكتم الاسرار ، فاستعنت به على استبدال رسالة عروة، فقرأها وانا لا اعلم ثم جـاء الآن يفضح الخفي والسر سري يا مولاي

وانا الذي اقسمت على كتمانه

فقال الملك : لقد احسن ابن سلمة فيما فعل فالملـــك لا يكتمونه الاسرار يا ابن زهير ، اعطني الرسـالة الآن

فتراجع عامر الى الوراء وهو يقـول :

وكيف ابرّ بيميني يا مولاي ؟ اتريد ان ينكث ابن جناب عهده؟

ـ ان الوعود لا تحول دون ارادة الملك

ـ اذن فمولاي الملك يأمرني بان اكون نذلاً ؟ ...

ـ ليست النذالة في طاعة الملك بل في عصيانه ، ومع ذلك فالامر قد ظهر الآن وقد باح به ابن سلمة وانت البريء

ولكن عـامراً كان يتردد

فقال ولي العهد :

اعمد الى القوة يا مولاي

فقال الملك : اسمعت يا ابـن زهير ؟

ـ ولكني ادافع ما استطعت

فأعجب الملك بالفتى وخلقه العالي، ولكنه اراد ان يختبر نبالته حتى النهاية ، فقال :

ادع حاجبنا عاصماً يا ابن سلمة

فلما مثل عاصم بين يديه فاجأه بقوله :

ان في ثياب عامر بن جناب رسالةً يمنعنا اياها ، فخذها منه ، وان ابى فاضرب عنقه

فجرد عاصم سيفه ويده ترتجف

ولكن عامراً جثا على ركبتيه ومد عنقه قائلاً :

حسبي ان ابي بريء مما اتهم به ، فاضرب عنقي يا مولاي فانا لا اخون من انقذ حياتي من الموت

فغمز الملك ولي العهد بطرف عينه ، فنهض الامراء الثلاثة ، وامسكوا يدي الفتى ورجليه ، يعاونهم عاصم وابن سلمة ، ومد جفال الى الرسالة فأخرجها وطرحها على سرير الملك

فقال الملك : اجلس يا عامر فقد انتهى الامر الان ولم تنكث عهدك ، وخذ الرسالة يا ابن ثعلبة واقرأها

فتناول عاصم الرسالة واخذ يتلوها بصوت عال وهو لا يعرف ما فيها .. ثم اصفر وجهه وتراخت ركبتاه فسقط على الارض والرق يهتز في يده ...

اما الملك فقال :

اعرفت خط ابيك يا حاجبنا العزيز ؟

فرفع ذلك الفتى النبيل رأسه وقال :

نعم يا مولاي

– وما رأيك في قائد من قواد الجيش يكاتب عدونا ويغريه على قتل رجالنا المخلصين ؟ !

– ليس لي رأي فيمن يخون الملك يا مولاي ولو كان هذا الخائن ابي ...

قال لبيد : الا يجوز ان تكون الرسالة مزورة يا مولاي ؟

فقال : اذا كان هنالك خائن ومزور فهو ابن هنب ، ومع ذلك فسنرى ، قل لابيك يا عاصم ان يحضر

فخرج الفتى والدموع على خديه

ولكنه قبل ان يدعو اباه ، اتجه رأساً الى قصر كوكب فخبر اخته سليمى بما رآه ثم مر بغرفة ابيه فبلغ اليه امر الملك

• • •

ماذا تقول في هذه الرسالة يا ثعلبة ؟

قالها الملك وعيناه تختلجان

فلما وقعت عين الرجل على رسالة عروة ، امتقع لونه واختنق صوته في صدره فلم يجب

وكيف يجسر على الجواب وقد ظهرت خيانته ظهور الشمس

فقال الملك اتنكر ام تعترف ؟

فتمتم قائلًا : عفوك يا مولاي فقد اخطأت

فابتسم الملك ابتسامة قصيرة عقبتها ثورة هائلة من الغضب ، قال : اتخوننا وتسألنا العفو يا ابن هنب ؟ وما الذي دعاك الى الخيانة وانت قائد جيشنا المستأثر برتب البلاط والمتمرغ في نعمة بني غسان

فرأى ثعلبة خيال الموت ماثلا في تلك الساعة امام عينيه ولا سبيل الى النجاة الا اذا لم يكذب ، فقال :

تلك ساعة مشؤومة يا مولاي دب فيها الحسد الى الصدر ، فاردت القضاء على بني جناب ...

— ولماذا ؟

ـ : لاني كنت اطمع بالعرش تصير سليمى ولية العهد وتتربع فيه ولكنك تكاتب ابن ماء السماء ايها الكاذب وتغريه على قتل ابن جناب وابن سلمة ، فأي دخل ٍ لهذا العراقي بما تطمع به من ولاية العهد؟

ـ حسبت ان ابن ماء السماء يقتل عامراً فنبعث اليك عندئذٍ من يقول انه اصبح من اتباعه ، فتامر بطرد بني جناب من حوران ويخلو لسليمى الجوّ

فقهقه الملك ضاحكاً وقال :

انها لمؤامرة تدل على ضعف العقل ، ولماذا ذكرت لملك الحيرة اننا بعثنا اليه عامراً ليحتزّ رأسه ؟ .. اتقول لابن ماء السماء ان ابن جبلة جبان غادر يرسل الى بلاده الرسل ليقتلوه ؟؟.. ويلك يا ابن هنب اتستهين بنا الى هذا الحد فتطمع بعرشنا وتراسل عدونا في امور الشام ونحن لا نعلم ، ومن قال لك ان الملك وولي عهده يختاران سليمى لتكون ملكة ؟ اتظن ان العروش تؤخذ بالمؤامرات ؟ مسكين انت لقد اردت قتل الرسولين فقتل رسولك ، وحفرت الحفرة لبني جناب ووقعت فيها ، فاستعد للموت ايها الخائن واذا ارتفع لعشيرتك صوت فالويل لها

ثم التفت الى الرسولين وقال :

لقد صدر حكم الموت فنفذاه فانتما صاحبا الحق في هذا ... اقتلاه في ساحة القصر حيث تزدحم الوفود وتكثر جماعات العربان ، وقل للناس يا ابن سلمة انه خان مولاه فامر بقتله ، اذهبا وارجعا برأسه بعد ساعة

فعاد ذلك الخائن الى نفسه في تلك الساعة ، وتمثلت له فظاعة الذنب

الذي اقدم عليه ، فارتمى على قدمي الملك وقال :

مثلي من يذنب ومثلك من يعفو يا مولاي

فانتهره الملك قائلاً : بل مثلك من لا يستحق الحياة ايها اللعين

وكان عاصم يبكي ورأسه بين يديه

فذكر ثعلبة ولديه ، فقال للملك

اتريد ان اودع ولديّ ايها الملك ؟

قال : انه لعارٌ على ولديك ان ينتميا اليك ، ومع ذلك ناذن لك في هذا ، قم يا ابن سلمة واحضر سليمى الآن

وما كاد جفال يجتاز القاعة الى الباب حتى رأى رجلاً يلتف في عباءةٍ سوداء وتحجب وجهه ملأة اشد سواداً

فقال له : ماذا تريد يا رجل

قال : اريد الدخول فاستاذن لي

فقال ابن سلمة للملك

بالباب غريب محجب يريد ان يقابل مولاي

ولكن الغريب لم ينتظر الاذن ، بل تقدم بقدمٍ ثابتة فحنى رأسه للملك ثم اخذ يجيل نظره في القوم من وراء حجابه حتى رأى عامراً فقال له بصوت يكاد يكون همساً :

انا صاحب رسالة الليل يا ابن زهير ...

فاصفرّ وجه عامر وتمتم يقول :

هذا هو ذلك الشبح يا مولاي

فاتجهت اليه الانظار

اما الملك فبرقت اسرة وجهه وظلّ ساكتاً يريد ان يعرف الرجل المحسن الى رسوليه والمخلص لعرشه

ثم قال عامر للشبح وهو مطرق :

لقد احتفظت بالرسالة ولكن سلبتني اياها قوة الرجال وابن سلمة هو الذي باح بالسر

فقال الشبح : ومن باح بالاسم الذي جاء في الرسالتين ؟

— ابن سلمة ايضاً

— فزفر الشبح زفرة طويلة وقال :

الذنب في ذلك ذنبي فقد كان عليّ ان ارى ابن سلمة واستوثق من كتمانه وماذا جرى الان

فاجابه الملك قائلا :

لقد جرى ما اردت ان يجري ايها الفتى الامين ، قتل عروة وحكم على مولاه ثعلبة بالموت

وما هو جزائي يا مولاي ؟

— اطلب ما تشاء الا حياة ابن هنب

ولكني لا اطلب الا حياته الا تهبها لي ايها الملك ؟

فقال : لقد صدر امرنا الان فلا نرجع عنه ولكن اطلب ما تشاء غير ذلك وارفع صوتك قليلا لنسمع ...

فقال ، لم يرفع صوته :

أاطلب ما اشاء غير ذلك يا مولاي ؟

— نعم

اطلب اذاً حياة رجل غيره هو عامر بن زهير

فنظر القوم بعضهم الى البعض الاخر واستولت عـــليهم الدهشة والاستغراب

اما عامر فقال : لقد وهبت له هذه الحياة ونحن في الخيمة يا مولاي والان فانا ابرّ بيميني واسألك ان تستجيب له

فقال الحارث : ان الملك لا يجود بحياة رجاله الامناء فسل غير ذلك

قال دائماً غير ذلك يا مولاي ! ...

اذاً فانا لا اطلب ما شاء بل ما يشاء الملك

فكره ابن زهير ان يكون جباناً فقال :

اذا بخل الملك بحيـــاة عبده فانا ابذلها طائعاً لمن احسن الي ، فخذ حياتي من الان ايها الشبح فهي ملك لك

فغضب الملك وقال :

سنخوض مجال الحرب بعد قليل يا ابن زهير فليست حياتك لك بل للعرش ، اذهب يا ابن سلمة وادعُ سليمى لتودع اباهـــا، وكفوا عن الجدال الان فقد سئمنا الغموض والالغاز ، اما انت ايها الرجل فارفع هذا الحجاب لنراك

فلما رأى الشبح ان الملك ماض في تنفيذ امره ، جثا على ركبتيه امام العرش ، ورفع حجابه بعنف وهو يقول :

انا هي سليمى يا مولاي اسألك حياة ابي ...

فاهتز الملك على عرشه ، واصيب القوم بالذهول ...

اما ثعلبة ، فاخفى وجهه الذي يشبه وجوه الاموات وراء كمه وتنفس الصعداء

وجثا عاصم وراء اخته ثم قال :

وانا يا مولاي اسألك حياة ابي واستحلفك بتربة مولانا جبلة ان تهبها لنا

وسمع صوت عامر يقول :

وانا ايضاً اطلب عفوه عن ابن هنب

فوضع الملك يده على رأس سليمى وقد تغير وجهه وقال

قومي ايتها الفتاة

فنهضت سليمى والدموع تجول في عينيها

فاومأ الملك الى وسادة امام العرش وقال

اجلسي الان وقصي علينا ما تعرفينه ولا تكتمينا شيئاً

فقالت : وقد اشرق وجهها ولمع الاخلاص في عينيها السوداوين الجذابتين .

لقد عرفت ان ابي يحسد ، بني جناب، يحسدهم على نعمتهم ومكانهم من الملك ، ثم رأيت ان هذا الحسد سيقذف به الى اعماق الهوة ، فنصحت له انا وعاصم فلم يسمع ، ثم عمد الى رسالته التي رأيت ، فعمدت بدوري الى رسالة اخرى افسد فيها عليه تدبيره وانتهى الامر، ولكن هنالك من زين له الاقدام على خيانته يا مولاي

فقال الملك : اجل لقد كثر الخونة في قصر الملك فمن هو ؟

قالت : هو قيس بن ثابت يا مولاي، ولست اسميه من قبل السعاية

بل لاني اريد ان يعرف الملك قلوب رجاله ... لقد خنت ابي يا مولاي لاحفظ حياة رسولك خدمة للعرش الغساني الذي اقدسه ، ولكن ، ولكن حفظت في الوقت نفسه شرف آل هنب ومنعت ابي من ان تلطخ الجريمة يديه بدماء المخلصين، فكافىء هذه الفتاة بما تستحق يا مولاي ، وليس اعزّ عليّ في هذا العالم من حياة والدي وان يكن غير بريء ، فاصفح عنه يا مولاي ، وابعدنا عن الشام فنحن لا نستحق ان نعيش في جوارك

فاعجب عامر والامراء بنبالة هذه الفتاة وعزيمتها الثابتة ، واخلاصها لآل غسان ، واخذوا يحدقون الى الملك منتظرين كلمته الاخيرة وهم يميلون الى العفو عن ثعلبة وان يكن يستحق الموت

فهزّ الملك راسه وقال :

اصبت يا سليمى فعلى الملوك ان تعرف قلوب الرجال لا ظاهرهم ، ان الظاهر شيء والباطن شيء آخر ، عليّ بقيس بن ثابت

فخرج عاصم ليدعو قيساً وهو يقول في نفسه

سامحك الله يا ابي فقد البستنا العار الى الابد ولولا سليمى لتاهت عشيرة بني هنب في بوادي العرب

وكان عامر كثير القلق ، وقد استيقظت في صدره ، في تلك الساعة، عاطفة ميل الى سليمى غريب ما احس بمثله من قبل ، هي عاطفة قلب مشى اليه الهوى كاللص فتغلل فيه

واقبل قيس وقلبه يخفق من الخوف

فقال له الملك :

اتخامر علينا يا قيس وقد انفقت العمر في خدمتنا وابيض شعرك في قصرنا ، فزينت لابن هنب خيانة مولاه وانت مطمئن الضمير وتتظاهر بالاخلاص ؟ !

فحاول الشيخ ان يجيب فتناول الملك وسادةً من وسائد السرير وضربه بها وهو يقول .

لا نحب ان نسمع اعتذاراً ايها المنافق بل اقراراً ، قل نعم او لا ، الم تخامر على الملك ؟ فخرج صوت الشيخ يتقطع في حلقه وقال : رايت ابن هنب ماضياً في امره فسكت لا انصح له ولا اجاريه

قال : اترانا سكتنا كل هذا الزمان عن الاحسان اليك يا شيخ النحس ؟ ! اليس في قصر ابن جبلة ، على كثرة الخاصة والمقربين ، من يخلص الخدمة لمولاه ؟ كلكم كذبة غادرون ؟ فقل لي يا ابن هنب ألم يكن هذا الشيخ شريكاً لك في الجريمة قل ولا تترد، والا فوالله لاحفرن حفرةً في سوق بصرى وأدفنكما فيها حيين

فقال ثعلبة وعيناه في الارض وصوته يرتجف . ان ابن ثابت هو الذي اشار اليّ بما فعلت ، وعندما اردت ان اجعل الرسالة غفلاً نهاني عن ذلك بقوله . ان ابن ماء السماء لا يقراء الرسائل لا توقيع فيها

فابتسم الحارث وقال لجلسائه . كلا الاثنين اكثر خبثاً من الاخر والذنب في ذلك ذنبنا فقد ادلّ علينا ابن هنب ما شاء الادلال فاغضينا على القذى ، اما الان فقد انقضى دور التساهل والحلم ولا ابقى الله علينا ان ابقينا في قصرنا من يأكل خبزنا ويخامر علينا ... اجلس يا ابن ثابت .. اجلس وحجب لحيتك البيضاء ببردة الخبز التي خلعناها عليك منذ

يومين .. امـــا انت يا ابن هنب فاخفض راسك وابك ماضيك ، ولا تذكر ولديك بعد ان هذين الشريفين لا يعترفان بوالدٍ يحط نفسه من هـذا العلو الذي كان فيه الى حضيض المذلة والهوان

ثم التفت الى عاصم وجفال قائلاً .

قولا لقوادنا وجميع خاصتنا وندمائنا والمقربين الينــا ان يحضروا الساعة فلقد اعددنا لهم مجلس الشراب ... ولا تنسيا رزاحاً ابا الغلامين وقم يا لبيد فقل لساقينا ان يحضر الخمر ..

ففهم عامر والامراء ان الملك يريد ان يختبر رزاحاً ، ليكون الحكم الذي يصدره حكماً شاملاً لا يبقي فيه على الخونة في بلاده

وقبل ان يجتاز عاصم وجفال قاعة العرش ناداهما الملك وقال لهما .

ولتحضر بنتنا واختنا ووصائفها فيجب ان يشمل الفرح الجماعة..

ثم قال للامراء ولعامر . وليشرب كل منكم الا ثعلبـــة وقيساً ، وانت يا اباكرب فاسق رزاحاً حتى يسكر ثم نرى بعد ذلك مايكون.

واقبلت الجماعة بعد ساعة ، فغصت القاعة بالرجال ، وجلست اخت الملك وبنته الى شمال جبلة ، والوصائف وسليمى تجـــاه الملك وحولهنّ المدعوون .

وكانت حليمـــة وكوكب وجميع النساء ، قد استغربن ، عند دخولهن ، وجود سليمى بين يدي الملك تلبس تلك الثياب السود

اما المنذر ، فكانت روحه تحوم في سماء فلسطين ، حيث تقيم الفتاة التي يحب ، وقد بدأ ــ بعد ان رأى ما رآه ــ يعلل النفس بقرب اللقاء

كذلك كان لبيد يفكر فيحليمة بنت الملك،وعامر يخفق في صدره غرامه الجديد .

ثم اقبل رزاح ومعه بنته ، فقال الملك :

اهلًا بالنهدي ان مجلسنا اليوم مجلس انس وطرب ، فاجلس امام ولي عهدنا واشرب

وطافت العبيد تحمل الخمر والكؤوس والملك يقول لساقيه . اسق رزاحاً فهو اعزّ علينا من جميع الناس

ورزاح يشرب ... ان الملك يحبه وهو متمتع برضاه ...

« فلما انتشى صرفه الى قبته وبعث عليه عيوناً »

ثم خاطب رجاله قائلًا : أتعرفون اي ملكٍ من ملوك العرب يكيد لآل غسان ؟

فقالوا جميعاً : نعرفه فهو ملك العراق

قال : أو تعرفون عدواً اشد نكايةً فينا واخبث نفساً ؟ فقالوا : لا

قال : ولكن في هذا القصر من يجاري ذلك العدو ويكيد للملك !

فارتفعت اصواتهم قائلين : نعوذ بالله من الخونة

فأوما الى ثعلبة وابن ثابت وقال : هذان الرجلان يكاتبان ابن ماء السماء ويوافقانه في مساعيه، اسمعوا ماذا فعلا. لقد بعثنا الى الحيرة عامراً وابن سلمة ينقلان الينا اخبار العراق، فبعثناهما الى عدونا برسالة يسألانه فيها القضاء على الاثنين ، ! أرأيتم افظع من هذا؟ يؤثران مصلحة العراق على مصلحة الشام ، وعرش بني لخم على عرش آل غسان ، ويطلعان العدو الغادر على اسرار الملك ، ولماذا ؟ ! ليبعدا بني جناب عن حوران

فيستأثرا بكل ما في القصر من مال وسلطان، هكذا هما يزعمان ، ووالله لقلامة ظفر عامر بن جناب افضل من راسيهما

لقد تجاوزنا عن الكثير من الذنوب حتى الآن . واما اليوم فلا نتجاوز عن سيئة واحدة . فاحكموا بالامر ايها القوم فقد دعوناكم للحكم لا لشرب الخمر . خذوا فاقرأوا رسالة الرجلين

فتداولت الايدي تلك الرسالة حتى اصبحت في يد حليمة فقالت لابيها:
من فضح امرها يا مولاي ؟
قال : هذه الفتاة الصادقة التي حفظت حياة الرسولين
واومأ الى سليمى ، ثم امر عامراً فأعاد الحكاية . فحدقت العيون الى الفتاة .

اما هي فسترت وجهها بخمارها الاسود واستغرقت في البكاء
فقال الملك: لقد فوضنا اليك امر الحكم يا حليمة ولكن بالعدل
فتمتمت حليمة قائلة: وبالرحمة ايضاً.. واي الاثنين كتب الرسالة؟
فقال عامر : كتبها ابن هنب
فقال ثعلبة دون ان يرفع رأسه . واشار بها ابن ثابت
فقالت حليمة : كلاكما مجرم ، الرأس المفكر واليد المنفذة
اتطلق يدي في الامر يا مولاي ؟
قال : لقد عدلت فقلوب النساء اقرب الى الرأفة منها الى العدالة ، ان الملك نفسه سيحكم بامر الخائنين ...
واذا بالقوم الذين ارسلهم عيوناً على رزاح قد عادوا، ففاجأهم بقوله:

ماذا رأيتم ؟ فاجابه احدهم قائلًا: عندما دخل رزاح قبته قامت اليه ابنته تسانده فقال لها :

« دعيني من سنادك ان حزناً   ومهلًا ليس بعدهما رقودُ »
« الا تسلين عن شبليك ماذا   اصابهما اذا اهترش الاسودُ »
« فاني لو ثأرت المرء حزناً   وسهلًا قد بدا لك ما اريدُ »(١)

فلما سمع الملك شعر رزاح تهلل وجهه فقال لعامر . بارك الله فيك يا ابن زهير فقد صدقت وصدق ابوك، اذهب يا عاصم واتني برأس النهدي، واشار الى رجلين اثنين ليسيرا معه ، ثم التفت الى لبيد وقال . وانت يا لبيد فاكتب الى صاحبنا عامل الروم في فلسطين ان يبعث الينـــا بابن جناب وولديه غير مروعين ، الا يقيمون في الناصرة يا ابا كرب ؟ قال نعم يا مولاي ولكن ان شئت فابعث اليهما برسول من قبل الملك يحمل اليهم رضاه ، فقـــال . اصبت فيجب ان نعوض الشيخ من كرامته ، كن انت يا جبلة ذلك الرسول فالملك لا يضع الشيء الا في موضعه

وساد السكوت قليلا حتى يعود عاصم فيصدر الملك حكمه

وما هي الا ساعة حتي عاد الدم يقطر من سيفه ، فقال له . اقتلت الرجل ؟

— نعم يا مولاي وهذه ابنته بالباب تعول . « وقد ارخت شعرها ولطمت خديها » قال لتدخل ، فلما ابصرها رق قلبه فقال لها . امكثي عندنا العمر يكن لك ما تشائين ، فقالت « وكيف اقيم في بلاد ملكها قاتلنا ؟ »

---

(١) الاغاني

فقال « إذن فانصرفي الى بلاد قومك لا رحم الله لك اباً

ثم وجه حديثه الى جلسائه قائلا . والان فقد انتهى دور الغريب وجاء دور قائدنا وشيخ قصرنا ، يا ابن ثابت ، أتعترف الان بالخيانة ؟

فاخذ ذلك الشيخ يبكي ويضرع الى الملك ويقول . بل اعترف باني استحق الموت يا مولاي ، فاذا عفوت فليس بين الملوك من هو اجدر منك بالعفو .

فبدت على وجهه مظاهر الاستخفاف وقال . كل من يريد ان تهب له حياة ابن هنب فليرفع يده

فلم يجسر احد على رفع يده الا حليمة وعامر وولي العهد

وسمع صوت كوكب تقول . وانا يا مولاي اسألك باسم سليمى ان تبقي على حياته

فهزّ الملك رأسه قائلا . اختنا واولادنا يسألوننا العفو !! وكيف تعفو عن قاتلك يا ابن زهير ؟

فقال عامر . لولا سليمى لما رجعت ورجع ابن سلمة من الحيرة ، فان شئت فاحفظ حياة ابيها يا مولاي كما حفظت رسوليك

فارتفعت عندئذٍ ايدي القوم يطلبون ان يستبقي الملك ابن هنب

فاطرق الملك ساعةً ثم قال . يا معشر الامراء والقواد . ان الملك في مجلسه العام يعترف بفضل سليمى بنت ثعلبة واخلاصها للعرش ، واظهاراً لرضانا قد استبقينا اباها على قياس المثل بالمثل يكافأ ، لكن نجرده الان من جميع رتبه في القصر وننزعه من قيادة الجيش ، ونأمره بان يلزم

عشيرته لا يفارقها ولا يوجد في موضع غير موضع نزولها، ونعلنكم الان لتعلموا الناس، ان عامر بن زهير بن جناب هو قائد جيشنا الثاني ، وان قيساً اخاه هو فوق وظيفة الحجابة ، قيّم قصورنا وصاحب بيت المال ، وان عاصم بن ثعلبة هو قائد الحرس الملكي وامير السباق ، اما قيس بن ثابت فخذه يا جبلة الى فلسطين ، وقل لعاملها ان يجعله في بلد لا يخرج منه الا الى قبره ، فقم يا ابن هنب وانصرف الى عشيرتك منذ الان ، وانت يا شيخ النحس فاستعد للسفر غداً لا تحمل من زادنا الا مؤونة الطريق ، لقد اخطأنا الى ذلك الشيخ الطاهر الوجدان زهير بن جناب ، هو الصادق النبيل وانتما الغادران ، وانها لساعة مشؤومة طردنا فيها المخلصين وقربنا الخونة ، اذهبا الى لعنة الله

واشار الى الناس بالانصراف الا عامراً وسليمى فقد بقيا

• • •

اليس لك رغبة في الزواج يا سليمى ؟

فاستولى على الفتاة الخجل واطرقت لا تجيب ، فقال . لقد اخترنا لك عامراً قائد الجيش فماذا تقولين ؟

فكانت دموعها ابلغ جواب

— وانت يا عامر

فركع الفتى وقال . خير جزاء تنعمني به يا مولاي ، هو ان تكون سليمى زوجة لي

فضمها الملك اليه ووضع يديه على رأسيهما قائلا .

انتما خطيبان الان ، ونحن نعقد لكما الزواج بعد الحرب ان نعشنا احياء .

- ٣١ -

عودة المنفيين - الحرب في عين اباغ

بصرى بما فيها ، شيوخها وكهولهـا ، وفتيانها ونساؤها ، مشت لاستقبال النديم العائد من منفاه مع ولديه

وكان المنذر في اول الصفوف ، والى جانبه عمته واختـه والحارث الاصغـــر

فلما وقعت العيون على العيون ، تصاعدت الزفرات وعلا بكاء الفرح وصياح الاستبشار . وتصافح القوم ، وعانقت كوكب وحليمة سفانة ، ثم تقدمت سليمى والوصائف ليصافحنها فضمت سليمى الى صدرها وهي تقول . اذا انحنى بنو جناب امـام سليمي بنت ثعلبة فانما هم ينحنون امام المرؤة والشرف والاخلاص

وعندما ابصر زهير ولده عامراً يلبس بردة القيادة احاط عنقه بيديه وقد خنقته الدموع

ثم اصطف الجيش بجيئ المنفيين . ولكن امراءه كانوا يعلمون انهم

يحيّون ولية العهد ...

وهكذا مشى الموكب الى القصر الملكي ، فاذا بالملك يقف على احدى شرف القصر ويقول : اهلاً باصحابنا الذين ابعدناهم زوراً وظلماً

فدعا بنو جناب له وللعرش ثم دخل الناس . وظلّ الملك واقفاً في وسط القاعة حتى وصلوا ..

فانطرح بنو جناب على قدميه وهم يلهجون بالدعاء ، فأنهضهم واحداً واحداً ومدّ اليهم يديه الاثنتين يلثمونها باحترام ، ثم لثم جبين سفانة وقال :

لقد زها القصر بولية العهد الآن ، اجلسوا فقد عرف الملك ما لكم من الفضل على دولته ، لقد أزعجناك بالرواح والمجيء يا شيخنا العزيز ، ولكن زادك جفاؤنا عزاً واستصغارنا اياك كبراً ، فانزل بيننا الآن شريفاً محترماً لا نصدر الاّ عن رأيك وتجب لك ولبنيك الطاعة كما تجب للملك ، أجل يا ابن جناب ، لقد أصبت وأخطأنا وأخلصت لنا النصح فجازيناك بالاساءة ، فنحن الآن ننظر الى الآتي ونعتذر عما مضى ، وأما بنوك فما أضمرنا لهم بغضاً ولا نكثنا لهم عهداً ، هذا عامر لقد جعلناه قائد الجيش وقيس قيّم القصر ، وستزف سفانة الى ولي عهدنا بعد ان تنتهي الحرب بيننا وبين عدونا الملك العراقي الذي سيوافينا الى عين اباغ كما أن عامراً سيتزوج سليمى فهما اليوم خطيبان ، فان كتب لنا النصر وفينا بالوعد والاّ فالوفاء به شرط على من يخلفنا على العرش

لقد كان من رأينا ان نزوج اولادنا قبل ان نخوض المجال ، ولكن لا يصفو البال والعرش مهدد بالاخطار، أليس كذلك يا سفانة؟ قالت :

لا يقدم في الدولة أمر على مصلحة عرشك يا مولاي فنحن كلنا جنود الملك حتى يلقي الله عدوك بين يديك . وهكذا قـال عامر ومعظم الامـراء

وكان ابن سلمة حاضراً ، فقال : اليس جفال بن سلمة من رجـال الملـك ؟

قال : بـلى ،

الا يحب العرش الغساني كما يحبه سواه ؟

فضحك الملك وقال : بلى ،

— اولست رسولك الى الحيرة الذي « اذاع الاسرار وفضـح الاشـرار » ؟ .

— بلى ، وبعد هذا كله مـاذا تريد ؟

قال : فمالي ارى الملك يختار لفتيانه الزوجات ولا يذكر هـذا المسكين ، افيريد مولاي ان يزوجني اضيافة ؟ ...

فازدادَ الملك ضحكاً وقال : ومن نقل اليـك اننا نسيناك يا ابن سلمة ؟ والله ما حفظنا لاحد فضلًا اجلّ عندنا من فضلك ، سنختار لك من تشاء من عذارى حوران يا جفال فلا تزف سفانة الى ولي العهد حتى تزف اليك الفتاة التي تختار ، قل لنا من تحب يا جفال ؟ قال احب فتاة وجهها كالبدر وقدها كالغصن ولكني اخشى ان يسبقني اليها غيري من فتيان غسان ...

اذن هي لا تحبك وألا لما جعلت لـك سبيلًا الى الخوف

— لقد كانت تحبني من قبل يا مولاي ، ولكن فتىً اجمل مني وجهاً

واعلى نسباً ، رآها فأحبها والنساء يهوينَ الجمال ويفضلنَ الامراء علـــى الفقراء امثال ابن سلمة ... فتعاهدا على الوفاء ورجعت انا الى الوراء ..

وكان يتكلم والجدّ في لهجته

فقال الملك : اغسانية هي ؟ قال : لا يا مولاي بـــل هي غريبة والامير غسانيّ ..

— : ويلك فمن هي ومن هو الامير ؟

هي سفانة يا مولاي والامير هو وليّ عهدك

فلم يبقَ في المجلس احد الا واستغرق في الضحك

فقال ولي العهد : نجود عليك بكل شيء يا خبيث فلا ترضى ، اتريد ان تسلبنا سفانة ؟ قال : لو استطعت لفعلت يا مولاي

فقالت سفانة : لا حاجة لك الى السلب يا ابن سلمة فانا راضية بك ولكن على شرط ... قال : اشترطي يا ولية العهد . قالت : ان تجعل المنذر ابا كرب صاحباً لاضيافك .. قال : لقـــد قبلت وعلى هذا تمّ الاتفاق ، فاشهدوا ايها الناس ...

وقضى القوم يومهم في سرور وفرح حتى اقبل الليل ..

• • •

كان جبلة ابن الملك ، قد اوصى عامل الروم في فلسطين ، بقيس بن ثابت ، وعهد اليه في امره ، فكأنه كره - وهو ذو الخلق الملكي العالي - ان يترك الشيخ في منفاه تحت رحمة الاقدار

اما ثعلبة بن هنب ، فلزم مضربه في العشيرة يبكي ماضيه وقد ندم على خيانته ، فقال يوماً لبنته سليمى : الا يذكرني الملك في مجلسه يا بنية؟

قالت : ما سمعته يذكرك قط فهو يحدّث رجاله دائماً بامر الحرب ويوصيهم بالاستعداد لها، وقد امر عامراً خليفتك في القيادة بان يدعو الى بصرى كل من يحمل السيف في الدولة لان العدو سيزحف قريباً بجيوشه الى عين اباغ وربما يتجاوزها الى الشام ، قال : أتمشي عشيرتي الى الحرب وانا قابع في خيمتي لا املك حق الدفاع ؟ !

أفلا يسأل احدكم الملك ان يأذن لي فيحمل السيف ثم اعود الى عزلتي بعد ان تنتهي الحرب ؟ فقالت : من يجسر على مثل هذا السؤال يا ابي وصدر الملك ممتلىء غيظاً ، ولكن متى اقبل العدو ودارت رحى القتال فاركب جوادك واقحمه الصفوف وليفعل الله ما يشاء

ـ : واذا طردني الملك من الميدان امام قواده ورجال حربه ؟ أفلا اقتل نفسي خجلاً

ـ لا اظنه يفعل ، وابن جبلة لا يهتم في الحرب كما تعلم الا لحركات العدو وهجوم كتائبه ، ومع ذلك فسأسأل عامراً رأيه في الامر وهو بدوره يسأل ولي العهد فلعلهما يجدان للقضية حلاً غير هذا الذي نراه ، فثق بالله يا ابي فهو مغيّر الامور والاحوال .

• • •

وانقضت الايام الباقية من الشتاء ، والجنود تتزاحم في بصرى من معان واذرح وعمان والزرقاء وطبريه وجميع الجهات ، والحارث يبذل لهم ماله ، واهل بصرى يفتحون ابوابهم لينزل بها الجيش على الرحب ، والامراء انجال الملك مع لبيد والقائد الفتى ، عامر بن زهير ، يطوفون حول كتائب الجنود ، وينظرون في حاجات تلك الجموع الجرارة لا

تغمض لهم عين .

واستشار الملك رجاله في الزحف الى عين اباغ ، فقال لبيد :

ننتظر عشرين يوماً يا مولاي ثم ننظر في الامر

ولكنهم لم يضطروا الى الانتظار

فبينا كان الملك يوماً في مجلسه ، وعنده قواده ورجال دولته ، اذ اقبل رسول ابن ماء السماء يحمل رسالةً لملك الشام ...

فقيل للملك فقال : ادخلوه ،

فتقدم الرسول وقبّل الارض وناوله الرسالة

فقال الملك اين هو مولاك ؟

قال : في عين اباغ يا مولاي التي يقال لها ايضاً « ذات الخيار »

- وهل اقبل معه اولاده ام ابقاهم في الحيرة ؟

- ان اولاده الثلاثة على رأس الجيش يا مولاي ، عمر ولي عهده واخواه قابوس والمنذر « الصغير »

حسناً ، فاقرأ يا ابن جناب

فاخذ زهير الرسالة، فاذاهي سطر واحد كتب بيدمرتجفة وهذاهو :

« الى عامل الروم في الشام الحارث بن جبلة :

« نزلت عين اباغ فاما ان تعطيني الفدية فانصرف عنك بجنودي واما ان تأذن بحرب »

فقال الحارث دون ان يتردد : اكتب يا لبيد :

« الى عامل الفرس في العراق :

« انظرنا ننظر في امرنا »

وطوى الرق واعطاه الرسول وقال له

قل لمولاك اننا سنلتقي قريباً في عين اباغ ، واخذ منذ تلك الساعة يعرض جنده ويعد صفوفه

وكانت « عين اباغ » شمالي منازل بني شيبان ، في اول البادية لجهة العراق ، قيل لها ذلك لان «اباغ» رجل من العماليق نزل بها فدعيت باسمه

فجمع الحارث جنوده وقام فيهم خطيباً قال :

يا معشر الامراء والقواد والجنود:

نحن سائرون الان للقاء العدو الذي ما انفك يغزو بلادنا ويسعى تحطيم عرشنا ويثير علينا قبائل العربان ، فاعلموا انها حرب لا تنتهي الا بقتل احد الملكين وبفناء واحـــد من الجيشين ، فمن لم تكن له الرغبة الصادقة والعزيمة الثابتة فليرجع فابن جبلة لا يكلف الناس ما لا يريدون

فانبرى فتى من بني « قاس وقال : كل من لا يقتل اثنين من رجال العراق فاقتله بسيفك

قال : سنجرب ان نكفيكم مؤونة القتال بان نعمد الى البراز ، فان قتلنا فاقتحموا صفوف العدو فالموت خيرٌ من الذل ، والويل لمن يتراجع الى الوراء او يلوي عنق فرسه ففرقة الحرس الملكي تقتل المتراجعين ، واذا امرناكم بالهجوم فاقصدوا امراء الجيش وقادته وحاملي اعلامه فاذا هوت رؤوس الجيش هوت افراده سيروا واذا اردتم ان تحفظوا مجد الشام فاحفظوا عرش آل غسان

ومشت الجنود في تلك الرمال عشرة ايام حتى وصلت الى عين اباغ ، فعرض الحارث جنده لآخر مرة وكتب ابن ماء السماء يقول :

«انـا شيخان فلا تهلك جنودنا وانما يخرج رجل من ولدي ورجل من ولدك فمن قتل خرج عوضه آخر واذا فني اولادنا خرجت انا اليك فمن قتل صاحبه ذهب بالملك » فتعاهدا على ذلك ، وفي صباح اليوم الثاني اصطف الجيشان ، فبرز احد اولاد الحارث « ولم يذكر التاريخ اسمه » فقتله خصمه ، ثم برز اخ له فقتل ايضاً ، فصاح عامر وابن سلمة يقولان :
غدر ابن ماء السماء يا مولانا فالفارسان اللذان برزا من صفوفه ليسا من اولاده

فثار ثائر الملك العظيم وقال : والله ما بكيتهما حتى اقتل بهما هذا الغادر ثم صاح برجاله قائلًا : « لقد جعلنا ابنتنا حليمة زوجة لمن يقتل العراقي » واومأ الى الاربعين الفاً بالهجوم وهو يقول : يا لغسان ، فاخذت فرسان العراق تتراجع امام الجيش الشامي ، ثم اختلط الفريقان وكثر القتل ، وحليمة تنضح وجوه الفرسان بالطيب وتقول : اليوم يومكم يا ابطال البلقاء ، فخرج ابن ماء السماء من تحت رايته واخذ يطوف ليعيد النخوة الى صدور الرجال ، فرأى فارسين احدهما سافر والاخر محجب يشقان بسيفهما الطريق اليه ، فوقف موقف الحذر واستعد للقائهما ، ولكن السافر فاجأه بضربة على كتفه اليسرى فغاص السيف الى الاضلاع ، فصاح ولي العهد وكان قريباً منه : لا شلّت يدك يا لبيد فسفر الفارس المحجب وقال : لقد اردت ان اكفر عن ذنبي بقتل هذا اللخمي فسبقني الامير ابن عمرو ، وكان الفارس ثعلبة بن هنب ، فاجابه ابو كرب قائلًا : نحن نضمن لك عفو الملك

وراجت سوق المنية ، الشباب والكهول ينطرحون بالعشرات

فتدوسهم حوافر الخيل ، وجيش الشام يمعن في التقليل حتى اقبل المساء فلم يبق في الساحة غير اكداس الجثث وقد فرّ الذين سلموا من رجال العراق .

فتراجع الجيش الظافر الى مضاربه، وامر الملك فاحضرت جثتا ولديه وجثة ابن ماء السماء ، فبكى طويلًا وبكى جميع الامراء والقواد ثم امر فحفرت ثلاث حفر دفنوا فيها الاميرين والملك العراقي الذي لم يقم على عرش ملك اكثر منه عملًا ، ثم اخبرو الملك بخبر ثعلبة فعفا عنه

« وكان ذلك في سنة ٥٦٣ للمسيح »

واستراح الجيش خمسة ايام ثم عاد الى حوران، فمثل بين يدي الملك، علقمة الفحل وهو شاعر بني كعب بن عوف ، كان الحارث قد امر بعض قومه ، فأنشد قصيدته التي منها :

وانت الذي آثاره في عدوه من البؤس والنعمى لهنّ ندوبُ

فاطلق الملك الاسرى جيعاً وامر للشاعر بصلة

وفي السنة نفسها ، بعد ان انقضت ايام الحداد ، زفت حليمة الى لبيد ، وسفانة الى ولي العهد ، وسليمى الى عامر ، وفاتنة بنت الربعي الى قيس ، اما ابن سلمة فلم يتزوج

وبعد ايام شخص الحارث الاكبر الى القسطنطينية ليستشير القيصر في امر خلافة ولي العهد ابي كرب ؛ وفيما ينبغي اتخاذه من الوسائل ضد ملك الحيرة الجديد عمرو بن هند ، وهي المرة الاولى والاخيرة التي زار فيها الحارث عاصمة الروم ، فدهش اهلها لهيبته وجلاله ، اما هو فلم

ستأنس بالمدينة لبعدها عن طلاقة البادية وسذاجة العيش .

وبعد سنة عاد الى حوران ومكث فيهالا تعكر الايام صفو حياته، حتى توفي سنة ٥٦٩ وخلفه المنذر ابو كرب

وفي سنة ٥٨٠ زار المنذر عاصمة الروم فاحتفل به القيصر، طيباريوس، والبسه التاج، وسماه بعض مؤرخي الروم : « المنذر ملك العرب »

تمت رواية الحارث الاكبر

صدر من سلسلة

روايات تاريخ العرب والاسلام

- الحارث الأكبر الغساني
- النعمان الثالث
- بلقيس ملكة اليمن ١/ ٢
- زينب ملكة تدمر ١/ ٢
- حسناء الحجاز ١/ ٢
- الحارث ملك الأنباط
- هند والمنذر
- هند أسيرة كليب
- اليتيمة الساحرة ١/ ٢
- فتاة الشام
- محمد وأم كلثوم
- فاجعة كربلاء
- خيانة وغدر
- لقاء المحبين
- السفاح والمنصور
- الأمير العاشق



الثمن

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع